لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

دلالة أسماء سور القرآن الكريم

من منظور حضاري

دراسة رائدة فريدة في بابها حاولت تقديم قراءة جديدة لارتباط سور القرآن الكريم بأسمائها وما تحمله هذه الأسماء من دلالات ومعاني ومرجعيات سياقية وأسس خطابية وإرشادات إيمانية حركية وقد قدمت مقترحات وحلولاً كثيرة لعديد من أشكاليات القرآن الكريم كما حرصت على إظهار وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم وبيانه وإشاراته ودلالاته ومعانيه ثم إقدام الدكتور العزيز على هذه الدراسة العالية التحريرية التي أتى فيها بما لم يأت به أحد من المتقدمين والمتأخرين

د/ محمد خليل جيجك

مؤسسة الرسالة

دلالة أسماء
سور القرآن الكريم
من منظور حضاري

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

مؤسسة الرسالة

للطباعة والنشر والتوزيع

وطن المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بناء المسكن
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢
فاكس: ٨١٨٦١٥ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah
Publishers

Tel: 319039 - 815112
Fax: (9611) 818615
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

Email:
resalah@resalah.com

Web Location:
Http://www.resalah.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

حقوق الطبع محفوظة ©٢٠٠١م. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من المؤلف ①

دلالة أسماء

سور القرآن الكريم

من منظور حضاري

دراسة رائعة فريدة في بابها محاولة تطبيقية هادفة لاستنباط دروس اجتماعية
وإشارات دعوية وتوجيهات سياسية وأسس حضارية وإرشادات إنسانية
حكيمة ودلالات متنوعة وجوانب كثيرة غيرها من أسماء سور القرآن الكريم
ككل مجموعي له مغزاه ومرماه وفيه إشاراته ودلالاته وتعاول من ثم
إلقاء النظرة القرآنية الحضارية العالمية الشمولية التي لها عمقها
وأصالتها على الصعيد العالمي من خلال دلالة أسماء سور الفرقان الحكيم

د/ محمد خليل جيجك

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى والديَّ الكريمين اللذين ربياني صغيراً وسهرا عليَّ كبيراً.. طالما وقفا بين يدي الله سبحانه يبتهلان ويتضرعان إليه عزت أسماؤه لتوفيقي ونجاحي.. وأهديه أيضاً إلى من هو مني بمنزلة السمع والبصر، شقيقي ومعلمي السيد سليمان، الذي كثر ما اهتم بي وبدراستي من نعومة أظافري، ولم يدخر جهداً في نصيحتي ومصلحتي

اعتـذار

إن ما قدمناه من الأرقام والإحصائيات وخصوصا منها المتعلقة بمعطيات حضارة الغرب في مجتمعاته معظمها يعود إلى أكثر من ثلاثين عاما، لأني لم تساعدني الإمكانيات حتى أحصل على الأرقام الجديدة التي تقشعر منها الجلود وتشمئز منها النفوس. ولكن رغما من ذلك ففيما قدمناه عبرة لمن اعتبر وكفاية لمن تذكر.

المؤلف

فهرست المواضيع

مدخل..... ١١

المبحث الأول: الحضارة

تعريفها وخصائصها وخصائص الحضارة الإسلامية

وخصائص الحضارة الغربية

١- مفهوم الحضارة ٢٣

٢- عناصر الحضارة..... ٢٩

٣- خصائص الحضارة ٣٦

٤- خصائص الحضارة الإسلامية ومعطياتها ٣٧

أ- الصبغة التوحيدية..... ٣٨

ب - النزعة الإنسانية ٤٦

ج- السمة الاجتماعية ٥٤

د- النزعة الأخلاقية ٥٧

٥- خصائص الحضارة الغربية ومعطياتها ٦٣

أ-الخواء الروحي والفراغ المعنوي..... ٦٨

١ـ عدم التوازن بين الروح والمادة ٧٠

٢- ازدياد القلق النفسي وفشو الأمراض النفسية..... ٧٦

٣- انتشار المخدرات والمسكرات ٧٨

٤- كثرة الجرائم والانتحارات ٨٠

ب- القسوة المميتة ٨٩

ج- الحرص والجشع البالغ ٩١

د- الظلم الذريع والجور الفظيع ١٠٠
هـ - رفع القسم الكبير من القيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية ١٠١
٦- نوعية الحضارة التي تنتظرها الإنسانية المعاصرة ١٠٥

المبحث الثاني: عالمية القرآن

عقلا ونقلا ومعنى

١- عالمية القرآن حضارة ورسالة..... ١١٩
٢- عالمية القرآن من الناحية الاستدلالية ١٢٣
أ- من الناحية العقلية ١٢٤
ب- من الناحية النقلية ١٣١
ج- عالمية القرآن من الناحية المضمونية ١٤٩
١- الحفاظ على الكرامة الإنسانية..... ١٥٠
٢- استخلاص العبودية لله وحده..... ١٥١
٣- إغاثة المظلوم ونصرة المستضعف ١٥٢
٤- النظرة الشمولية..... ١٥٣
٥- تلك المعاني النبيلة و الفضائل السامية..... ١٥٥
٦- عناية الإسلام البالغة بحماية الحقوق ورعاية الكرامات ١٥٦
٧- الأمن والأمان العام و السلام الكامل..... ١٥٦
٨- الأخلاقيات ١٥٧

المبحث الثالث: السورة

نظرة عامة إلى السورة مفهومها وبعض ملابساتها

١- السورة لغة واصطلاحا ١٦٣
٢- حكمة تسوير القرآن إلى سور ١٦٤

٣- عدد سور القرآن ١٦٧
٤- تسمية السور توقيفية أم اجتهادية ١٦٩
٥- حكمة تسمية السور بأسمائها ١٧٠

المبحث الرابع: نظرة القرآن الحضارية من خلال أسماء سوره

وفيه ثلاث محاور

تمهيد ١٧٩
منهجنا في استنباط النظرة الحضارية من الأسماء ١٨٥
التسمية بالفاتحة ١٨٩
١- المحور الأول الاعتقاديات ١٩٠
الفرع الأول التوحيد ١٩٤
الفرع الثاني الرسالة ٢٠٠
الفرع الثالث القرآن ٢٠٦
الفرع الرابع الآخرة ٢١٠
الفرع الخامس الملائكة والغيبيات الأخرى ٢١٧
٢- المحور الثاني الكونيات ٢٢٣
الشعبة الأولى الطبيعة ٢٢٩
الشعبة الثانية الأحداث ٢٣٢
الشعبة الثالثة البيئة ٢٣٦
٣ـ المحور الثالث الاجتماعيات ٢٤٩
الفرع الأول التاريخ ٢٥٧
الفرع الثاني الأدب ٢٦١
الفرع الثالث الأخلاق والفرع الرابع الدين ٢٦٣

الفرع الخامس التنظيم الاجتماعي..... ٢٦٨
الفرع السادس التنظيم الزماني والمكاني..... ٢٧٤
الفرع السابع التنظيم السياسي ٢٧٨
الفرع الثامن التنظيم الاقتصادي..... ٢٨٥
الفرع التاسع التنظيم العسكري ٣٠٠
الفرع العاشر التنظيم التشريعي..... ٣١٠
نتيجة في نظرة القرآن المعرفية..... ٣١٩
خاتمة..... ٣٢١
المراجع العربية..... ٣٢٦
المراجع الأجنبية..... ٣٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حم * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

[سورة فصلت، الآيات: ١-٥]

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحابته أجمعين

مدخل

إن الإنسانية في العلوم تطورت، ولكن في إسعاد بني جلدته تأخرت. قطعت مسافات شاسعة في تحليل المادة، ولكن عميت وضلت في الكشف عن أبسط مظهر من مظاهر الروح والمعنى. اخترعت آلات عجيبة وركبت أجهزة دقيقة، ولكن غفلت وجهلت في الوصول إلى أي جزء من الحقائق الروحية الناصعة. صعدت إلى أراضي القمر السامقة ولكن تدهورت في الجانب الآخر فوق كوكبنا الذي نعيش عليه إلى حيث اتخذته لها مراكز فخمة للاغتيال والانتحار... فبمخترعاتها بطرت، وبمنجزاتها أشرت، ولكن غالبها صار لها حبوب وباء ووبار، وأدوات فتك ودمار... كلما ظهر لها من جانب تقدمها في ميادين العلم والمعرفة بدا من الجانب الآخر مدى نكرانها لإنسانيتها وكلما ازداد وسائل وإمكانيات الرخاء والرفاهية لديها ازداد بعدها عن هويتها وسعادتها وتحقق قربها من شقائها ومهانتها... وكلما ظن أنه ازداد علمها بمجاري الحياة ازداد غلوها في التفكير الأرعن والتفلسف الأخرق. كل هذا يحمل دلالات واسعة على أن أكفان الإنسانية خيطت و حنوطها[1] جهزت ولكن هل من مدكر؟ فسوف يعلمون!

---

١) كل طيب يخلط للميت.

بعض العقلاء فهم هذه العاقبة المردية المخزية مذ أمد طويل ودق جرس الخطر على رؤوس الأشهاد منذ زمن غير قليل وقال أنا النذير العريان ، فصرف جهودا لا يستهان بها في سبيل إفاقة الإنسانية وإعادة رشدها ولكن يبدو أن الكل ذهب أدراج الرياح[1] ، وما اهتم بتلك الجهود سوى قلة لا يؤبه لها. إن ذلك البعض أدى واجبا آخر بما أنه وضع أمام الإنسانية فاتورتها الدرامية المليئة بأرقام الخسائر الدهشة والمذكور فيها ما ينتظرها من ريح صرصر في يوم نحس مستمر. ولكن أنى لهم الذكرى؟

إذا بحثنا عما في جعبة الذاكرة الإنسانية فوجهتنا إلى ما قبل مبعث النبوة رأينا بصورة مذهلة أن التاريخ بدأ يكرر نفسه من جديد في القرن العشرين وما بعده بغير اعتبار واستبصار: عم الظلام الآفاق، وغلب الفساد الأجواء، نجم الظلم واللأواء[2] ، وخفي العدل والسراء، انتفى الخير والبر وظهر الغي والشر، طمس معالم الهدى والتقى، وبرز آثار الضلالة والهوى، جفت منابع الرأفة والرحمة، وفاضت أخاديد الوحشة والقسوة، حسن القبيح وقبح الحسن، صار الخير والبر يذم، والشر والسوء يكرم، صار اسم النفاق سياسة والتملق مداراة والتذلل تحببا، لقبت الحقائق بأسماء أضدادها، ولبس الثعالب جلود الأسود، وبرزت القردة في مسوح الصالحين. ترى الكثير منهم ذئابا، أخفوا أمرهم

---

١) أي ذهب عبثا.

٢) نجم : ظهر؛ اللأواء: الشدة.

بلبسهم ثيابا، فانقلب الأمر رأسا لعقب: اشتهر الأراذل وخمل الأفاضل. سيطر الفساق والخونة وغلب على أمر الأعفاء والأمنة. صار أسعد الناس لكع بن لكع[1]، وصار المؤمن أذل من شاته! انتعش الشرك في أرذل مظاهره، واختفى التوحيد بغالب معالمه، فدب الشرك إلى العقول والقلوب ولكن من حيث لا يشعرون. زلزلت العقائد في الصدور، زحزح اليقين عن النفوس، تلوثت الأحاسيس، وتدنست المشاعر، تقذرت الأفكار، وتوسخت التصاوير، صارت الدنيا كمزبلة عظيمة ومجزرة لئيمة ترى على حافاتها من جثث الناس الأكوام ارتفعت من هنا وهناك كالآكام وصار الكوكب الأرضي كأنه مسرح كبير يعبث فيه الصغير والكبير تعرض فيه أجناس الفسق وأنواع الدعارات بفاضح الوقاحة وفائق المهارات، وتترنم في جميع جوانبه معازف الفجور والخلاعة على معاني الفسوق والشناعة. لم يبق فيه ولا مزعة[2] طاهرة فإنا لله وإنا إليه راجعون!

فالإنسانية محتاجة إلى نور وبرهان ومشتاقة إلى دليل وفرقان، تنتظر من يغيثها ويأخذ بيدها كي يمسك بها إلى سواحل السلامة، وينقذها من لجج الضلالة، تتوقع بلهف وحسرة من تتمسك بأذياله كي يخرجها إلى شواطئ الأمن والعافية. وذلكم لا يتيسر إلا بشعاع من نور الوحي وضياء من مشكاة النبوة، كما تكرر ذلك عبر التاريخ كلما

---

١) اللكع على وزن عمر: اللئيم.

٢) المزعة: القطعة من اللحم. والمراد هنا القطعة فقط على سبيل التجريد.

وقعت الإنسانية في مثل تلك المهاوي التي وقعت فيها اليوم. وحيث إن باب النبوة أغلق ببعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم إغلاقا لا يفتح إلى يوم القيمة فلا يتسنى إرسال نبي بعده أبدا، ولا مجال لانتظار نبوة جديدة أبدا، فلا يرى أمام الإنسانية إلا خيار واحد فقط أن يرجعوا إلى دين الله الحنيف. ونرى ونأمل أن الله سبحانه سيرحم هذه الإنسانية التعسة الشقية ببعثة الإسلام من جديد مرة أخرى - حيث لا يبعث نبي آخر- بعثة تقوم ما اعوج، وتصلح ما فسد، وتحسن ما حسن، وتقبح ما قبح، وتعلم ما جهل، وتطهر ما وسخ، وترفع ما وضع، وتظهر ما خفي من ملامح الخير والهدى، وتخفي ما ظهر من معالم الشر والهوى وترد جميع الأمور إلى نصابها فالناس اليوم أحوج ما كانوا إلى رحمة منه سبحانه تنقذهم من هذه المهاوي السحيقة والمهالك العميقة.

فلذا ترى الناس في هذه الآونة الأخيرة كثيرا ما يرددون في كتاباتهم وخطاباتهم كلمة "الحضارة الإسلامية" فيذكر البعض شيئا من محاسنها المتحققة فيما سلف من الزمن، والبعض الآخر يحاول أن يصوغ القضية في قالب علمي أكاديمي فيذكر كيانها ومداخلها ومخارجها حسب منهج علمي مدروس، وترى البعض الآخر أنه إلى جانب إفراغه القضية في قالب علمي يحاول أن يسلط شيئا من الضوء على بعض من الاستعدادات الحضارية للمسلمين أي يشرح بعضا من المسائل المتعلقة باستعداد المسلمين لتأسيس حضارتهم من جديد بين ربوع العالم.

إلى جانب تلك المؤلفات المستقلة عن الحضارة الإسلامية الزاخرة التي تعج بها الساحة سواء منها ما كتب باللغة العربية أو باللغات الأخرى. فكثير من المفكرين والمؤلفين والكتاب أدلى في الموضوع بدلوه لما يجد من حاجة هذا العالم البائس الماسة الشديدة إلى نوعية جديدة من الحضارة التي سنكتب مواصفاتها إن شاء الله.

ويجدر بنا هنا أن ننوه بكتاب **أطلس الحضارة الإسلامية لإسماعيل فاروقي** وزوجته رحمهما الله رحمة واسعة. هذا الكتاب القيم الحافل يتناول الحضارة تناولا شاملا من الناحية العملية والآثارية أكثر من الناحية النظرية العلمية ثم ببعض كتابات مصطفى السباعي رحمه الله، وكذا للمعهد العالمي للفكر الإسلامي الذي مقره بأمريكا أيضا اهتمام خاص بالموضوع في منشوراته: يتناول منشوراته القضية من شتى الزوايا تناولا حديثا معرفيا، منهجيا، فلسفيا؛ كما خرج بين منشوراته كتاب **العالمية الإسلامية الثانية لمحمد أبو القاسم حاج حمد** الذي تناول الموضوع من ناحية أخرى حاول المؤلف فيه أن يثبت أن البديل الوحيد لهذه الحضارة المعاصرة هو الإسلام فقط حيث يقول: سيلد القرآن من جديد أمة تحمل إلى العالم نهجا حضاريا كونيا بديلا[1]. إلى جانب كتابات أخرى غيرها. بينما لا ننسى ما يحتوي عليه من المقالات القيمة والكلمات المفيدة حول الحضارة الإسلامية كتاب **الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم** الذي يقع في مجلدين من منشورات الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

---

١) أسامة خليل، العالمية الإسلامية الثانية (نقد وآراء)، التجديد (مجلة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، عدد ١، سنة ١٤١٧/١٩٧٧، ص ١٤٩.

فمع أننا صرفنا أيضا شيئا من الجهد في استنباط نظرة الإسلام الحضارية من خلال أسماء سور القرآن الكريم ولكن نرى أن الحضارات لا تؤسس بالنظرات العلمية وبالبحوث الأكاديمية عن الحضارة بل الذي يؤسس الحضارات ويرسخها هو أخلاقيات الأمم الفاضلة وعقليتها البنائة، المبدعة، النشيطة، الواعية. فإلى جانب تلك العناصر الحضارية التي سنذكرها إن شاء الله. إن هذه المواصفات التي ذكرناها للعقلية الحضارية للأمم: **البنائية، والإبداع، والنشاط، والوعي** هي التي تؤسس الحضارات وهي التي تلعب الدور الأكبر في بنائها، وهي التي تستثمر تلك الطاقات الحضارية لأمة ما وتحولها إلى واقع حضاري ملموس. وهي التي لها المفعول الطيب في كسب الحضارات القوة والمقاومة ضد الأحداث التي تسبب الضعف والوهن. وإذا وجدت هذه المواصفات في عقلية أمة ما بنت حضارتها على أحسن صورة وأكملها إذا شاء الله لها ذلك، وحتى وإن لم يكن لديها أي علم بأصول الحضارة وفصولها النظرية وفلسفتها الفكرية، وحتى ولو لم تسمع بكلمة الحضارة أبدا. كما أسس أسلافنا تلك الحضارة العظيمة مع أن العلم النظري عن الحضارة ما كان موجودا لديهم.[1]

---

١) انظر لفقه التحضر الإسلامي (كما يقول الكاتب أو للمواصفات التي تأتي بالاستقلال الحضاري كما نقول) عبد المجيد النجار، الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي مقال نشر في مجلة التجديد التي نشرتها الجامعة الإسلامية بماليزيا، عدد١ سنة ١٤١٧/١٩٧٧، ص ٨٨-١٢٤.

فنرى أن واجب علماء المسلمين ومنوريهم وكتابهم ومؤلفيهم بدلا من صرف طاقاتهم الفكرية والعقلية على سرد الجانب النظري للحضارة هو أن يوجهوا جهودهم ويكثفوا شهودهم على واقعيات الأمة و كيف يتسنى لهم أن ينشئوا في هذه الأمة أمة تحمل مواصفات العقلية الحضارية - التي ذكرناها - المتوجهة إلى واقعيات الحياة؟ فطالما لم ندخل في ساحة إيجاد العقل المنجز، المبدع، البناء لدى المسلمين، وطالما لم يتحل المسلمون بعقيدة التوحيد الصافية، وطالما لم يصادق قول المسلمين عملهم، وعملهم قولهم في اتخاذ كتاب الله منهج حياة، وطالما لم ندخل في مجال تحلية عامة الناس - كل حسب مقدرته - بالتفكير في رفع مستوى الأمة العقدي، العملي والعلمي والتفكيري وطالما لم نخرج من الدائرة الضيقة لـ"أنا" إلى الدائرة الواسعة لـ"نحن" لا يتيسر لنا بناء حضارتنا من جديد و اللحاق بالآخرين أبدا. وأما تلك المعلومات الأكاديمية الواسعة والتدقيقات العلمية الفسيحة والتحليلات الفلسفية الوفيرة عن فوائد الحضارة وقواعدها وأصولها وفصولها فلا تسمن ولا تغني من جوع إذا لم يصاحبها وجود تلك العقلية التي سردنا مواصفاتها في عامة أفراد الأمة، ولا تفيد سوى إيجاد وعي طفيف لدى بعض خفيف من أفرادها في الثقافة الحضارية فقط. فعندئذ ليوجه المهتمون بالأمر جميع طاقاتهم الذهنية وقدراتهم العلمية ومواهبهم الفطرية وقابلياتهم الدعوية وأنشطتهم التربوية إلى "كيف ننشأ في هذه الأمة جيلا يعتز بكتابها وعقائدها وتاريخها وجميع قيمها، جيلا لا يحس

في قرارة نفسه بمركب النقص تجاه الآخرين، جيلا أبي النفس وعزيزها، سمي الروح، كريم الطبع، رفيع السجية، عزمه قومه، و همته أمته، تفكيره وتذكيه ليس محصورا في ثالوث الحضارة المعاصرة: الجيوب والبطون والفروج؛ بل تحمل همة تطاول الشم الراسيات في رفعتها: تحاول وتجد في إنقاذ هذه الإنسانية البائسة من مخالب الحضارة المعاصرة، جيلا له طموحه وتطلعاته ومشاريعه ومخططاته نحو المستقبل فيعد له عدته قبل أن يستقبله هو بقضه وقضيضه وبهذا الانفتاح الطيب نكون بانين للإنسان الذي يصنع "الحضارة" من جديد. فليصرف جل الجهود إلى "كيف نوجد لدى عامة أفراد الأمة تلك العقلية التي كانت متوفرة لديها ردحا[1] من الزمن فيما مضى"؟ فإن أكثر ما تعاني الأمة من فقدانها في هذه الفترة التي ناخ عليها كابوس الفقر والتخلف هو العقلية الواعية المنتشرة لدى جميع أبناء الأمة، لا النظرات الحضارية وفلسفاتها.

وعملنا هذا وإن لم يكن خطة عملية ومشروعا تنفيذيا عن هذا الأمر لأنه لا يبحث عن "كيف نكون" أو عن "كيف كنا" قدر ما يبحث عن "كيف كائن" ولكن ستجد فيه إن شاء الله بين فينة[2] وأخرى مسا لطيفا ب"كيف نكون" كما ستجد فيه حضا وحثا على بعض الاستعدادات الحضارية الضرورية لمستقبل حضاري مشرق. وذلك الاستعداد والتطلع نحو المستقبل المشرق أهم ما فقدناه نحن المسلمين منذ

---

١) ردحا بفتح الراء والدال أي طويلا.

٢) الفينة: الساعة والحين.

قرون فإن الغرض الذي نشدناه في التقاط نظرة القرآن الحضارية الشمولية من خلال أسماء سوره هو أولا بيان جانب من جوانب جمال القرآن ومحاسنه بالإعراب عن تلك المناسبة اللطيفة والموائمة المنيفة بين الاسم والمسمى في أسماء السور وبيان الوآم والالتآم بين أجزاء مجموعة أسماء السور ككونها كلا له أجزائه ومحدداته ودلالاته المجموعية والأجزائية من ناحية أخرى وثانيا الإسهام في إيجاد هذه العقلية المبدعة المستلهمة من القرآن لدى المسلمين من جانب وإيجاد روح الطموح والتطلع إلى مستقبل مشرق لديهم من جانب آخر. فلعلهم يجدون فيه من خلال المحاور الثلاثة ومضامين كل محور منها حافزا لهم إلى شيء من التهيء للمستقبل.

فنرجو من الله سبحانه أن يكون هذا العمل المتواضع خطوة صغيرة إلى بعض ما نريد الوصول إليه من ذلك الهدف المنشود والله هو المسؤول أن ينفع به وهو الكريم المنان ذو الفضل والإحسان، وعليه التكلان في البدء والختام.

المبحث الأول

الحضارة تعريفها وخصائصها
وخصائص الحضارة الإسلامية
وخصائص الحضارة الغربية

"..إنها القوة العجيبة التي تشع من العقيدة الجديدة (الإسلام)
ومن الدولة التي أقامتها هذه العقيدة والتي نمت
في كل اتجاه وأنتجت حضارة موحدة إلى حد يدعو
إلى الدهشة وذلك رغم الاختلاف الشديد بين البيئات
والمستويات الثقافية التي ازدهرت عليها."

فرانشيسكو كابرييلي

١ - مفهوم الحضارة

لفظة "الحضارة" نراها قديمة قدم العربية يقول إسماعيل بن حماد الجوهري (ت. ٣٩٣) في صحاحه الحضارة (بالكسر) الإقامة في الحضر. عن أبي زيد: وكان الأصمعي يقول الحضارة بالفتح قال القطامي:

ومن تكن الحضارة أعجبته ❖ فأي رجال بادية ترانا[1]

الحضارة مشتقة من مادة ح ض ر كما اشتق من نفس المادة هذه الكلمات التي لها صلة قوية ب"الحضارة": الحضر (بفتح الوسط) و الحضرة (بسكونه) والحاضرة والحاضر.

---

١) إسماعيل بن حماد الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق احمد عبد القادر العطار، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤٠٤، ج ٢، ص ٦٣٣؛ محمد بن مكرم أبي الفضل جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت بلا تاريخ، ج ٤، ص ١٩٧؛ محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٤٠٦، ص ٤٨١.

الكل يدل على معنى له مناسبة قوية مع "الحضارة": فالحضر (بفتح الوسط) والحضرة (بسكونه) والحاضرة كلها خلاف البادية وهى المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار[1] كما أن الحضر يأتى بمعنى خلاف البدو والحاضر خلاف البادي. وجاء الحاضر في حديث: **ولا يبيع حاضر لباد**[2] بمعنى المقيم بالمدن والقرى.[3]

فاللفظ قديم ببنيته اللفظية ودلالته تلك لكنه جديد باعتبار مفهومه الحديث فإنه اكتسب مدلولا جديدا صار بذاك المدلول الجديد عنوانا لأهم مواضيع علم الاجتماع كما أنه بذاك المعنى القشيب أخذ موقعه بين تلك الكلمات التي تدل على أشمل المعاني الغريزة الجامعة. ولشمولية معانيها وأهميتها صارت مجالا واسعا يتسابق في تحديد مداخله ومخارجه وتعيين مضامينه وأطره فهوم الأذكياء وفحول العلماء. وهي في مدلولها الجديد الذي أشرنا إليه آنفا تدل ـ أو يتداعى منها بمجرد أن تلفظ بها ـ على أهم ما يهم حياة الإنسان فردا أو مجتمعا، فجل جوانب حياته -إن لم نقل كلها- له صلة بمدلول الكلمة الجديد إما دخولا فيه بكونه جزأ منه و عنصرا هاما من عناصره الأساسية أو له علاقة ـ قوية كانت أو ضعيفة ـ بذاك المدلول.

---

١) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٤، ص ١٩٧.

٢) البخاري محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح**، البيوع/٧٠.

٣) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٤، ص ١٩٧.

فإذاً ما هو المفهوم الجديد لهذه الكلمة التي طالما انشغل به الكثير من علماء العلوم الاجتماعية وعلماء الإسلام عامة ومن الذين يهتمون بالكلمة أكثر من غيرهم من علماء علم الاجتماع خاصة؟

علماً منا أن تحديد هذا المفهوم ـ الذي لنا صلة قوية به عبر بحثنا هذا ـ من أهم الآليات التي تعيننا على ما نروم الوصول إليه من النتيجة كما أننا بذاك التحديد والتبيين لا نكون ممن يخبطون خبط عشواء أو يسيرون على متن عمياء.

ولكن أرى من واجب الأمانة العلمية أن أبوح باعتراف جميل وهو أنى لم أتمكن ـ أثناء محاولتي للكشف عن ماهية "الحضارة" ككونها مصطلحا علميا حديثا حام حول تحقيق ماهيتها كثير من علماء علم الاجتماع والتاريخ وغيرهم ـ من أن أدخل أعماق المراجع الأصلية والمصادر الرئيسة للموضوع لأن تحقيقها بجميع مالها وفيها وعليها و بكل ما منها واليها خارج من حدود بحثنا الذي نحن فيه لأن قصارى القول فيه أن تحديد ماهية الحضارة من آليات موضوعنا وليس من أساسياته. فهو بهذا الاعتبار بحث هامشي يسير في الهامش و لا يكون عنصرا أصليا داخلا في صلب الموضوع ولا ركنا رئيسا من هيكل البحث. فعندئذ نكون معذورين في النقل ممن ليسوا من فرسان هذا الميدان بل مثلهم مثلي حيث كنا جميعا من المتفرجين عليه من الهوامش و الناظرين إليه من الحواشي.

فهيا بنا نذكر بعضا من التعاريف التي أورده البعض في تعريف

الحضارة:

ينقل د. عدنان زرزور في تقديمه للكتاب القيم لشيخه المرحوم مصطفي السباعي من روائع حضارتنا عن أشفيتسر هذا التعريف للحضارة: "التقدم الروحي والمادي للأفراد على السواء"[1] ويرى المتفكر الفرنسي جورج باستيد (George Bastide) أن الحضارة " التدخل الإنساني الإيجابي لمواجهة ضرورات الطبيعة، تجاوبا مع إرادة التحرر في الإنسان وتحقيقا لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته ورغباته وإنقاصا للعناء البشري"[2] ولنا تحفظ على هذا التعريف لأن هذا التعريف إنما يمكن أن يكون تعريفا للمعنى المصدري أي العمل أو السلوك الحضاري. أما الحضارة بمعنى الأثر الحاصل بالمصدر - وهو الذي نراه مدارا للنقاش والاختلاف بين المهتمين بتحديد الحضارة - فهذا التعريف بمنعزل عنه، ويدل على ما قلنا بعض من تلك التعاريف التي ذكرت للحضارة. فمنها ما قيل إن الحضارة "ثمرة التفاعل بين الإنسان و الكون والحياة"، [3]

وقيل إن الحضارة " نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من

---

١) عدنان زرزور تقديم من **روائع حضارتنا** لمصطفي السباعى، المكتب الإسلامي، بيروت بلا تاريخ، ص ٣١.

٢) محمد فتحي عثمان، **القيم الحضارية في رسالة الإسلام** الدار السعودية للنشر و التوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٠٥، ص ١٥-١٦.

٣) محمد سعيد رمضان البوطي، **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن**، دار الفكر، دمشق ١٤٠٥، ص ١٩.

إنتاجه الثقافي"، [1]

وقيل إن الحضارة في مفهومها العام " سلوك ونظام وقيم ومعان وأسس ومبادئ ومنظومات وطبيعة حياة يزخر بها مجتمع ما وتسيطر على مجريات الأحداث فيه يدعمها ويحافظ على بقائها عمل متصل وفعالية عالية مرتفعة يسهم فيها كل إنسان قادر متأهل بقدر طاقته وتأهيله"، [2]

وقيل... وقيل...وقيل...

نحن لا نملك في هذه العجالة -وقد قدمنا عذرنا فيما سبق- الإحاطة بجميع أو أكثر ما قيل في تعريف الحضارة. كما لا نمتلك من سعة الوقت والآليات ما نناقش به هذه الآرآء والأقوال التي سردناها فوق وبيان الصواب أو الأحسن منها حسب ما نراه، رغما من أننا نرى ـ والله اعلم ـ انطلاقا من الإطلاقات الشائعة بين أهل العلم لكلمة "الحضارة" في البحوث والدراسات العلمية أن التعريف الثاني منها من الحسن بمكان. كما لا ننسى أن ما قيل ـ الذي نقلناه أخيرا ـ في بيان مفهومها العام أيضا من التحقيق والإحاطة والشمول بمكان.

ولكن نرى أن الأولى في تعريف الحضارة هو التعريف الجامع لكل أفرادها المانع لجميع أغيارها وهو كما يلي:

---

١) السباعي، من روائع حضارتنا، ص ٤٥.

٢) محمود محمد سفر، **دراسة في البناء الحضاري**، من سلسلة كتاب الأمة ينشرها رآسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية بدولة قطر، الطبعة الأولى، ص ٢٥-٢٦.

الحضـــارة: المجموعة الحاصلة في الامتداد الزمني والمكاني من العلوم والمعارف والثقافات والمعتقدات والآداب والفنون الجميلة واتجاهات الحياة والصناعات والمؤسسات التي ينعكس منها على الصعيد الجماعي قيم ومبادئ وسلوكيات وأنماط حياة لدى القائمين عليها و الآخرين.

فهذا التعريف يتضمن جميع تلك العناصر التي يتشكل من مجموعها هيكل أية حضارة إنسانية لأن جميع تلك الأمور التي ذكرناها في ثنايا التعريف لا يمكن تصور أية حضارة بدونها، فالحضارة ليست عبارة عن أي شيء واحد منها فقط فمثلا لا العلوم وحدها حضارة ولا الثقافة وحدها حضارة ولا القيم وحدها ولا السلوكيات و لا الآداب ولا الفنون الجميلة وحدها حضارة بل كل واحد منها جزء أساس في تكون البنية الحضارية، وصرح الحضارة إنما يقوم بتفاعل جميع أجزائه تفاعلا إيجابيا متراصة، متشابكة، متمازجة، متداخلة وهذه التفاعل والتشابك والتمازج والتداخل بين الأجزاء الحضارية عبر قيام صرح الحضارة هي التي تحصل الكيان الحضاري. كما نرى ذلك بصورة بارزة في أحداث الحياة اليومية .

بينما لا ننسى أن من الوضوح بمكان أن مدلول الكلمة الجديد لم ينفصل تماما عن مدلولها القديم وبين كلا المدلولين مناسبة ظاهرة.

٢- عناصر الحضارة

إن الحضارة ليست حدثا يوميا أو نشاطا قبليا أو فاعلية محصورة في حدود المدينة الفلانية أو الشعب الفلاني بل هي تتعدى كل تلك الأمور بكثير وتحيط دائرة أكبر وأوسع من تلك الحدود الضيقة بكثير فهي إذن تقتضي أمورا أكثر وأوسع من هذه الحدود المحددة بكثير فما هي تلك الأمور الأساسية التي لا تكون أية فاعلية اجتماعية بدونها حضارة؟ وما هي تلك الأجزاء التي تتوقف ولادة الحضارة ونشأتها ونموها وحياتها عليها و يتسنى لنا أن نسميها بعناصر الحضارة؟

المسئلة بطبيعة الحال اختلافية فبينما ترى أن ويلل درانت وهو الخبير بشؤون الحضارات يرى أن عناصر الحضرة أربع وسنذكرها عنه ترى مالكا بن نبي وآخرين يرون أنها ثلاث وهم فيما بينهم أيضا يختلفون ما هو هذه الثلاث؟ ولا يعنينا تلك الاختلافات سوى قدر علاقتها بموضوعنا. ونرى أن عناصر الحضارة تنقسم إلى قسمين: قسم منها أولي أساسي منها تتكون الحضارة وهي تشكل المادة الأولى والتربة الأساسية للحضارة. وقسم منها ثانوي يخرج إلى الوجود من تفاعل العناصر الأولية. فحينما يعد ابن نبي عناصر الحضارة ثلاثا فإنما يعد العناصر الأولية الأساسية التي هي المادة الخامة للحضارات كلها ولا يوجد لها لون حضاري أو صبغة حضارية أو تركيب حضاري خاص بل الكل تنشأ منها بعد أن تتلقح نشاطاتها الحضارية. وحينما يعدها ويلل أربعا فإنما هي تلك العناصر الثانوية التي لقحت ببذور أية حضارة ما.

ومن ذلك التلقح ينشأ الكيان الحضاري وتتكون الحضارة شيئا فشيئا ثم تبدأ المؤسسات الحضارية تترعرع حاملة طابعها الحضاري و لونها وسمتها الحضارية الخاصة بها.

ونرى الدقة والإحاطة فيما ارتآه **مالك بن نبي** رحمه الله (ت. ١٩٧٣) في عناصر الحضارة في كثير من كتاباته وهو أن العناصر الأساسية للحضارة **الوقت والإنسان والتراب**.[١] فمهما قلبنا الأمر نجد أن الحضارة لا تستغني عن هذه الأمور الثلاث وأنه لا يمكن أن تجري أية فاعلية حضارية بدون هذه العناصر الثلاث.

نرى أن هذه الكلمات الثلاث أدق وأجمع ما يكون في التعبير عن عناصر الحضارة فلسنا مع الدكتور **محمد سعيد رمضان البوطي** مهما ادعى أن التعبير بالإنسان والكون والحياة أدق.[٢] وإن قبلنا أن التعبير بالكون أجمع من التعبير بالتراب.

فأما الإنسان فهو القوة المبدعة المدبرة والمخططة المنسقة لتلك النشاطات الحضارية أو التي ستتحول غدا إلى معالم حضارية هامة وبتلك القوة الفعالة (الإنسان) تنصهر الأحداث في بوتقة الوقت آخذة بعض مكوناتها من العنصر الترابي ثم تأخذ طريقها فيما بعد إلى أن تتكون صورة حضارية.

---

١) مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الطبعة الخامسة، دمشق ١٩٨٩، ص ٣٢.

٢) انظر البوطي، **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن**، ص ٢٠-٢١.

الإنسان قوة فعالة في سبيل تحقيق الحضارة من ناحيتين :

الناحية الأولى: الإنسان بما خوله الله من قدرات مختلفة وقابليات عديدة وكفاءات متنوعة كان المحرك الأول لعجلة الحضارة. فالنبوغ الإنساني والعبقريات البشرية المختلفة كان ويكون لها الدور الكبير في سبيل تحقق البنية الحضارية على وجه هذه البسيطة.

الناحية الثانيـــة: إن جميع تلك الأعمال والجهود التي تشكل البذور الأولى للحضارات وجميع تلك النتائج والمعطيات الحضارية التي تستهدف من الحضارة إنما تدار وتجرى من طرف الإنسان. فبدون الإنسان لا يمكن أن يتحقق أي عمل حضاري وهو المركز الذي يدور في فلكه أنشطة العنصرين الآخرين حتى يتأتى لهما أن يكونا عنصرين أساسيين للحضارة.

وأما العلم والمعرفة والثقافة والمبادئ والمعتقدات والقيم فهي ليست عناصر حضارية بل هي المحركة للقوة الأولى - الإنسان - كي تأخذ موقعها في الدور الحضاري لأن تلك القوة الأولى - الإنسان - إذا لم تمتلك من هذه المحركات القدر الكافي لتحريكها في النشاط الحضاري ولدفع طاقاتها الحضارية إلى أن تنقلب إلى واقعيات حضارية ملموسة محسوسة تبقى عنصرا خامدا غير فاعل. كما أن دور الإنسان البدائي كان كذلك، حيث لم يمتلك من تلك العوامل التي تحركه للدفع الحضاري القدر الكافي فبقي عاطلا غير ناشط، مهملا غير فاعل. ولم يستطع أن يؤسس كيانا متكاملا يستحق أن يطلق عليه الكيان الحضاري.

وأما التراب فهو أيضا عنصر أساسي في تكون البنيان الحضاري من ناحيتين:

الناحية الأولى: بمساحته الامتدادية لأن الحضارة لون اجتماعي ليس فرديا فهي محتاجة إلى مساحة واسعة لأن تلك النشاطات الإنسانية الباقية في دائرة ضيقة من الأرض لا تحمل طابعا حضاريا أبدا إلا إذا فتقت كمامها المكاني وصارت تنمي وتنتشر في المساحات الواسعة. وهذا التوسع عبر الأماكن المختلفة هي التي تتيح للأنشطة الإنسانية أن تتحول مع الزمن من فاعلية فردية محددة قصيرة المدى إلى عمل اجتماعي يكون جزأ هاما يحتل موقعا هاما في الهيكل الحضاري. ونرى أن من الأسرار الكامنة خلف انتشار الحضارة الإسلامية في الزمن القليل عبر القارات المختلفة هو ما تيسر لها من التوسع المكاني أي التراب الواسع الذي تبطن بذور الأنشطة الحضارية فأخذت تؤتي ثمارها الطيبة في اقرب وقت ممكن.

والناحية الثانية: الثراء الحضاري الذي يشتمل التراب عليه فهو أيضا من أساسيات التكون الحضاري فإذا لم يكن في تربة ما تلك الثروات اللازمة للعطاء والاستثمار الحضاري فمن الصعوبة بمكان أن تنجح تلك الحضارة في عطائها العالمي وحتى في تكون حجيراتها الأساسية أيضا. فمن كلتا الناحيتين التربة عنصر حضاري هام لا غناء عنها أبدا.

وثالث الأثافي من عناصر الحضارة هو الوقت: فأي عمل أو نشاط

يحتوى على طاقة حضارية إذا لم يتح له امتداد زمني يلتقي عبره في مختلف المستويات بمختلف الناس ومختلف الأجيال لم يتعد أن تنتفي وتموت آثاره أيضا فور ما انتهى وقته ولا يقدر له أن يأخذ موقعه الإيجابي في البنيان الحضاري مهما علا قدره ورفع شأنه. ففي الامتداد الزمني يأخذ تلك الأعمال النافعة الرشيدة التي تحتوي على طاقة حضارية موقعها اللائق بها وبه ينتشر في الأبعاد الإنسانية والأبعاد المكانية الدروس والعبر والحكم التي تتضمنها تلك الأعمال والتي ستقتدي بها وستدرسها الأجيال.

والناحية الثانية في التأثير الحضاري للوقت: الاستثمار الكافي للوقت من أبناء الحضارة، إن أية أمة ما إذا لم تعرف بكاملها قيمة وقتها ولم تنسقه في النافع المفيد لها لا يمكن أن تلحق في مشوارها الحضاري بالآخرين. فالوقت - كما قيل سلفا- كالسيف إن لم تقطعه قطعك . إن استثمار الوقت ونشر وعي ذلك الاستثمار من أهم الأمور المحركة لعجلة الحضارة نحو الكمال. فإن عدم استثمار أي قوم أو شعب للوقت على الوجه النافع السديد يدل على عدم تطلع له وطموح نحو مستقبل مشرق، مما ينبئ عن موت روح الأمل فيه، كما يدل على كسله ودنائة همته ورضائه بالعطالة والبطالة. وهذه الأمور الأربع تحمل دلالة قوية على فقدان العقلية الحضارية عند تلك الأمة وغياب الوعي الجماعي منها. فأية أمة أرادت لنفسها العطاء والرخاء إنما تهتم أول ما تهتم بتثمير الوقت ونشر وعيه بين أفرادها ونجد اليوم ذلك الوعي ضاربا جذوره في

المجتمعات الغربية بحيث يقطفون ثماره على أتم وجه. ولذلك تجد بينهم من مثل تلك الكلمات التي تعرب عن حرصهم البالغ على الزمن فيقولون مثلا "**نحن نسابق مع الزمن**"، كما تجد مثلا الأمريكيين حينما يتجهون إلى تنفيذ مشروع ما يهتمون أكثر ما يكون بتنفيذه في أقصر وقت ممكن اغتناما للوقت. فإذا كان المشروع يقتضي أسبوعا من الزمن يركزون عقولهم و يكثفون جهودهم كي يتموا تنفيذه في خمسة أو أربعة أيام . ووجدنا في ألمانيا أن الناس في الساعة السادسة صباحا (يعني قبيل طلوع الشمس بنحو خمس وأربعين دقيقة) كلهم قيام يتهيئون للذهاب إلى العمل في ساعته المحددة، وكذا وجدنا في أمريكا أن الناس يأخذون في الاستعداد للذهاب إلى العمل بدأً من الساعة الخامسة والنصف، كي يذهب كل إلى عمله في ساعته المحددة بلا تفويت للوقت ولا تأخر. وهذا من الاستثمار النافع للوقت فيأخذون ثمراته على الوجه الأفضل. وبذلك صاروا الآن يسوسون الدنيا ويضعون لها "النظام العالمي الجديد". فمن جد وجد ومن جهد سعد، **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**. مع أنك ترى المسلمين رغما من أن الله برمج لهم بالصلوات الخمس مثلها أوقاتهم على أحسن وجه وهداهم إلى أفضل طرق استثمار الوقت لا يزالون في النوم إلى الساعة الثامنة أو التاسعة أو العاشرة. ثم يستيقظون ويتهيئون للعمل ببطء وتأن فلا تجد الكثير منهم في ساحة أعمالهم إلا في الساعات المتأخرة. فكيف يلحق المسلمون بالآخرين؟ **إن الله لا يظلم الناس ولكن الناس أنفسهم يظلمون. ما أصابتكم**

من مصيبة فبما كسبت أيديكم.

ومن هذه الجملة ترى للأسف الشديد في البلاد الإسلامية أن المشروع الذي يكفي لتنفيذه خمسة أيام لا ينفذ إلا شهرا. وهذا ما جعل المسلمين في أخريات القوم مع أن نبيهم الحكيم عليه صلوات الله وتسليماته كان نبههم على استثمار الوقت وحذرهم من الإسراف فيه قبل هؤلاء بقرون كثيرة: **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ.**[1]

وهذه المقارنة أيضا تعطينا فكرة في مدى استثمار البلاد المتقدمة للوقت: ففي بعض البلاد ساعات العمل الرسمية (وقت دوام العمل المقرر من طرف الحكومة) ثمان ساعات فبعض البلاد إنما يأخذ منها عطاء عشرين دقيقة والبعض أربعين دقيقة وبعض البلاد كتركيا يأخذ عطاء ساعتين. وأظن أن أكبر المعدل لعطاء ساعات العمل الرسمي في البلاد الإسلامية هو الساعتان. و في بلاد شرق أوربا معدل العطاء أربع ساعات وفي أمريكا وبريطانيا وفرنسا المعدل يرتفع إلى ست ساعات أما في اليابان فمدة العمل الرسمي تسع ساعات والعطاء أيضا تسع ساعات. فهذا النموذج البسيط يعطينا فكرة واضحة عن الدور الحضاري الهام للوقت.

العقلية الحضارية الواعية تتجنب سواء على الصعيد الفردي أم على الصعيد الجماعي عن الإسراف في الوقت إلى أقصى الحدود وتهتم

---

١) رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه وأحمد بن حنبل.

اهتماما زائدا بتخطيط الوقت وتنسيقه الحكيم وتنظيمه الرشيد كي يستثمر على أكمل وجه وأتمه. وهو ما فعله المسلمون الأوائل في استثمار أوقاتهم على أتم وجه وأحسنه. فقال قائلهم:

إذا مر بي يوم ولم أكتسب هدى ❖ ولم أزدد علما فما ذاك من عمري

٣- خصائص الحضارة

مما لا مرية فيه أن لكل حدث فردي أو اجتماعي ولكل نظام طبقي أو دولي خصائص تخصها وميزات تميزها عن غيرها. وإن ما يجعل الشيء شيئا ويجعله مستقلا عن غيره له كيانه الذاتي المستقل هو خصائصه الموجودة في حدود بنيته وإلا كان كل شيء شيئا واحدا، غير متميز بعض الأشياء عن البعض الآخر. فالحضارة كما أنها حدث اجتماعي له مقوماته وعناصره وظروفه وأجزائه وأفراده وأنواعه، كذلك هي كيان له ذاتياته ومشخصاته ومميزاته وملامحه وخصائصه وثمراته وعطائه. وبحسب اختلاف تلك الخصائص والمميزات لكل حضارة تختلف ثمرات وعطاء كل حضارة عن الآخرة وبذلك تباين آثار هذه عن آثار تلك.

فمن الملامح العامة للحضارات:

كونها اجتماعية باعتبار نشأتها وقيامها لأن عمل أي فرد ولا حتى عمل قبيلة ما لا يسمى بمفرده حضارة مهما كان تأثيرهما بالغا في التكون الحضاري.

ومنها كون انتشارها عاما فلا تعرف حدودا ولا سدودا ولا تقف في مسيرها عند زمان ومكان إلى أن تكتمل أجلها المسمي لأن لكل أمة أجلا. **وتلك الأيام نداولها بين الناس.** فمع أن لكل حضارة بعض الخصائص المميزة لها عن الأخرى - كما سنذكر- لكن إن الحضارات أيا ما كانت لا يمكن أن تحبس من طرف الناس في حدود معينة، أو تتقيد بالبقاء في أزمنة خاصة لأن الحضارة حدث اجتماعي نشأ عن التجمع الإنساني وتفاعله مع بعض المعارف والأفكار والقيم والمبادئ من غير تقيد بالزمان والمكان ففي مسيرتها عبر الزمان والمكان أيضا لا تتقيد بتلك المحددات الزمانية والمكانية.

ومنها كون كل منها تحمل طابعا خاصا، فطابع حضارة الإسلام الخاص مثلا توحيديتها وطابع الحضارة الغربية العام وضعيتها... وقس.

٤- خصائص الحضارة الإسلامية ومعطياتها

إن الحضارة الإسلامية من تلك الحضارات التي طال عمرها مع الزمن ؛ فهي وإن لم نقل أطولها زمنا على الإطلاق لكنا نستطيع أن نقول من بين أطولها عمرا ولا تزال ولله الحمد على قيد الحياة -وإن شاخت و ضعفت بما خانها أبنائها وهانها أنجالها وتركوا التشبث بمعالمها الغراء ومبادئها السمحاء وقيمها الزهراء، وأخذوا يلهثون خلف غيرها، فجوزوا بما عملوا جزاء موفورا، **والجزاء من جنس العمل.**

نوعية الحضارة الإسلامية كيان مستقل له ما يحدده من

الخصائص وله أيضا ما يجمعه مع الحضارات الأخرى من الملامح العامة التي ذكرناها. أهم خصائصها عدا تلك الأزمنة والأمكنة التي قامت فيها - لو عدت كل من الأزمنة والأمكنة خصيصة لها باعتبار أنها قامت فيها ولم يشاركها في ذلك الحين حضارة أخرى موازية لها قامت فيها- هي كما يلي ؛ علما منا أن الثلاث الأخيرة من سمات الحضارة الإسلامية متداخلة إلى أقرب حد ممكن ، حتى يمكن أن يفهم بعض القراء تكرارا في البعض أو غنية بالبعض منها عن البعض الآخر ولكننا نلاحظ أن في كل منها سمة حضارية غير الآخر ولو تداخلت أو تقاربت :

أ) الصبغة التوحيدية

لا شك أن جوهر الحضارة الإسلامية هو الإسلام وأن جوهر الإسلام هو التوحيد[1] فالتوحيد هو الصبغة الأساسية التي كانت الحضارة الإسلامية منصبغة بها من أول يوم ولادتها إلى أيام شيخوختها - وهي أيامنا هذه التي تعيش الحضارة الإسلامية فيها أسوأ فتراتها- فذلك اللون التوحيدي سائد على جميع مرافق الحياة الحضارية عبر العالم الإسلامي كله لأن ذلك اللون التوحيدي به لا بغيره قيام الإسلام ، ويسود على جميع المعالم الإسلامية والشعائر التعبدية والقيم الخلقية فيه روح التوحيد. وذلك الروح التوحيدي سرى في جميع ما وجد في عصور الإسلام من النظم والمؤسسات والعادات والتقاليد

---

١) إسماعيل راجي الفاروقي- لويس لمياء الفاروقي ، **أطلس الحضارة الإسلامية** ، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة ، الطبعة الأولى ، مكتبة العبيكان ، الرياض ١٤١٩/١٩٩٨ ، ص١٣٢.

والسلوكيات والآثار والفنون الجميلة وحتى نجد ذلك الروح ساريا في كثير من الملل والنحل التي وجدت في عصور الإسلام السالفة فإذا ما فات اللون التوحيدي فات الإسلام أيضا فلا إسلام بلا توحيد كما لا يوجد اليوم توحيد بلا إسلام فلا يتطرق الشك في التوحيد إلى من كان ينتمي إلى هذه الحضارة أو ساهم فيها...والمسلمون - مهما يكن مستوى ثقافتهم- هم على ثقة مطلقة بأن الحضارة الإسلامية تنطوي على جوهر وأن هذا الجوهر قابل للمعرفة والتحليل والتوصيف وذلك هو التوحيد[1].

ونرى أن الصبغة التوحيدية وإن لوحظت في جميع الأمور التي تستمد الحضارة حيويتها منها لكنها في البعض أظهر وأبهر كما نرى أن مفعول ذلك البعض في التكون الحضاري أيضا أكثر وذلك:

مثل العقائد -وهي أهمها- ومثل العبادات التي لعبت ولا تزال تلعب دورا غير قليل في نشر الحضارة الإسلامية غير ناسين هنا تلك الشمولية التي أكسبها الإسلام للعبادات بحيث تشمل جميع مصالح الحياة ومكاسبها الطيبة وتشمل جميع الأعمال التي تفعل خدمة للفرد والأسرة والمجتمع، حتى ما تجعله في فيّ امرأتك - كما سنذكر ذلك - ولم تلاحظ العبادات في المنظور الإسلامي يوما ما محبوسة بين جدران المعبد منعزلة عن الحياة كما ترى ذلك في عبادات الديانات الأخرى فهذه الشمولية هي التي جعلت للعبادات دورا كبيرا في ترسيخ الحضارة الإسلامية ونشر معالمها بين ربوع العالم. فكل عبادة إسلامية تتضمن

---

١) المصدر السابق.

لوناً حضارياً وسمةً حضاريةً وروحاً حضارياً وفي كل عبادة دافع وسائق حضاري كامل. فمثلا إن تأثير الحج الذي يأتي المسلمون إليه من كل فج عميق ويتعارفون به في ظل تلك المشاعر المقدسة ويفيدون ويستفيدون بعضهم من بعض. إن تأثير الحج في نشر القيم والعلوم والمعارف التي لا تقوم قائمة الحضارة إلا بها تأثير كبير له دور عظيم في نشر الحضارة الإسلامية حتى إن الكثير من المؤلفات القيمة التي صارت مرجعا لأهل العلم فيما بعد من مثل تفسير **الكشاف للزمخشري** (ت ٥٣٨) إنما ألف في ظل الكعبة تيمنا بها واستفادة من تلك الروحانية العظيمة التي تحيط بها وتسبل على زوارها، عدا ما يمتلكه مؤتمر الحج من الدافع الحضاري العظيم.

ومثل الأخلاق فإن من أهم الأرضيات التي تبذر بذور الحضارة فيها وتنميها بتربتها الطيبة و تسقيها بمياهها العذبة لا جرم هو الأخلاق فأخلاق الأمم لها الدور الكبير في بث العقلية الحضارية لدى أمة ما واللون التوحيدي في أخلاقيات الإسلام ظاهر فمثلا الذم البالغ في الإسلام للعجب والكبر وفي مقابلته مدح التواضع نابع من تفرد الله وتوحده بالكبرياء والعظمة كما ترى ذلك باديا في الحديث الصحيح: "**العز إزاره والكبرياء ردائه فمن ينازعني عذبته**"[1]. وسنتناول بإذن الله تعالى السمة الأخلاقية للحضارة الإسلامية.

ومثلا إن الآثار و الفنون الجميلة التي أجيد صنعتها عبر التاريخ

---

١) مسلم بن الحجاج القشيري، **الجامع الصحيح**، كتاب البر والصلة والأدب/٣٨.

الإسلامي آثار التوحيد فيها ظاهرة أيضا فمثلا مآذن وقباب المساجد التي تتحلى بأحسن السمات الجمالية والتي تمثل أجمل الفنون الإسلامية تحتوى على الرموز التوحيدية المآذن بارتفاعها منفردة كأنها سبابة الأرض ارتفعت إلى السماء تشير إلى توحيد خالقها والقباب بهيئتها الانحنائية كأنها راكعة لربها وكذلك تجنب القسم الكبير من الفن الإسلامي عن صور وتماثيل الإنسان والأحياء لها دلالتها القوية على مدى التمسك بروح التوحيد والابتعاد عن كل ما لها مساس بالشرك ولو كان فيما سلف من الزمن حيث اتخذت فيما سبق تلك الصور والتماثيل آلهة تعبد من دون الله.

فالتوحيد هو ذلك المبدأ الذي يمنح الحضارة الإسلامية هويتها - كما سيتبين ذلك من خلال ما نذكره من الأمثلة- ويربط جميع مكوناتها معا ليجعل منها كيانا عضويا متكاملا نسميه حضارة. وفي ربط العناصر المتفرقة يقوم جوهر الحضارة - وهو التوحيد في هذه الحال- بطبع تلك العناصر بطابعه الخاص. ثم يعيد تكوينها بشكل يتناسق مع العناصر الأخرى ويدعمها. ولا يقوم الجوهر ضرورة بتغيير طبيعة تلك العناصر، بل يحولها ليصنع منها حضارة ويعطيها صفاتها الجديدة التي تكوِّن تلك الحضارة. ويختلف مدى التحول بين ضئيل وجذري اعتمادا على مدى علاقة الجوهر بالعناصر المختلفة ووظائفها. وقد برزت هذه العلاقة في أذهان المسلمين الذين كانوا يتابعون ظواهر الحضارة...ووجدوا فيه المنبع الرئيس والمصدر الأساس الذي يحكم جميع الظواهر في الحضارة

الإسلامية.[1]

ومثل السياسة: فإن مفعول التوحيد وأثره الطيب في سياسة الخلفاء والملوك والأمراء أيضا كان واضحا، وخصيصا ذلك الدور الذي لعبه العلماء عند الأمراء والخلفاء في تيسير الأمور بالبر والهدي. هذا الدور ما كان دورا يستهان به أبدا في نشر الحضارة الإسلامية وضرب جذورها في أعماق البلاد. فاستشعار العلماء بالمسؤولية في نصح ولاة الأمور إنما كانت نابعة من كيان الإسلام التوحيدي الذي يشعر المرء فيه بعظمة الخالق أكثر من أي دين آخر، كما أن قبول الخلفاء و الأمراء لذلك بتبسط وانشراح صدر أيضا كان نابعا من نفس الكيان فمثلا نجد خير مثال لذلك ما رواه **الحافظ الذهبي** (ت ٧٤٨) أن **الأصمعي** قال: دخل **عطاء بن أبي رباح** (ت١١٧) على **عبد الملك** (ت ٨٦) وهو جالس على السرير و حوله الأشراف وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته فلما بصر به عبد الملك قام إليه فسلم عليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال يا أبا محمد حاجتك؟ قال يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك المسؤول عنهم واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق دونك بابهم فقال له أفعل ثم نهض وقام فقبض عليه عبد الملك وقال يا أبا محمد إنما سألتنا حوائج

---

١) المصدر السابق.

غيرك وقد قضيناها فما حاجتك؟ قال مالي إلى مخلوق حاجة. ثم خرج فقال عبد الملك هذا وأبيك الشرف هذا وأبيك السؤدد![1]

وكذا لما ولي عمر بن عبد العزيز بعث إلى محمد بن كعب ورجاء بن حيوة وسالم بن عبد الله فقال لهم قد ترون ما ابتليت به وما قد نزل بي فما عندكم فقال محمد بن كعب اجعل الشيخ أبا والشاب أخا والصغير ولدا فبر أباك وصل أخاك وتعطف على ولدك وقال رجاء ارض للناس ما ترضى لنفسك وما كرهت أن يؤتى إليك فلا تأته إليهم واعلم أنك أول خليفة تموت. وقال سالم اجعل الأمر يوما واحدا صم فيه عن شهوات الدنيا واجعل آخر فطرك فيه الموت فكأن قد. فقال عمر لا حول ولا قوة إلا بالله .[2] فبقدر ما تحمل هذان المقطعان من دلالة على دور روح التوحيد في تأصيل الحضارة الإسلامية يحملان كذلك الدلالات العظيمة على ما يتمتع به روح الحضارة الإسلامية من النزعة الإنسانية التي سنتناولها بعد.

إن مفعول عقيدة التوحيد في سياسة الخلفاء وتوجيههم إلى صالح الأمة كان عظيما وما كان بالشيء المستهان به ترى ذلك واضحا في هذا المقطع التاريخي الذي له دلالة كبيرة ولكن عند أولي الأبصار:

"وروى ابن عساكر عن إبراهيم بن المهدي قال كنت يوما عند

---

١) الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناووط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٠٢/١٩٨٢، ج ٥، ص ٨٤.

٢) ابن كثير إسماعيل بن عمر أبي الفداء، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، ١٤١٨/١٩٩٨، ج ١٢، ص ٦٩١.

الرشيد فدعا طباخه فقال أعندك في الطعام لحم جزور؟ قال نعم ألوان منه. فقال أحضره مع الطعام. فلما وضع بين يديه أخذ لقمة منه فوضع في فيه، فضحك جعفر البرمكي فترك الرشيد مضغ اللقمة وأقبل عليه فقال مم تضحك؟ قال لاشيء يا أمير المؤمنين ذكرت كلاما دار بيني وبين الجارية البارحة. فقال بحقي عليك لما أخبرتني به قال حتى تأكل هذه اللقمة، فألقاها من فيه وقال والله لتخبرني. فقال يا أمير المؤمنين بكم تقول إن هذا الطعام من لحم الجزور يقوم عليك؟ قال بأربعة دراهم قال لا والله يا أمير المؤمنين بل بأربعة ألف درهم. قال وكيف ذلك قال؟ قال إنك طلبت من طباخك هذا لحم جزور قبل هذا اليوم بمدة طويلة فلم يوجد عنده فقلت لا يخلون المطبخ من لحم الجزور فنحن ننحر كل يوم جزورا لأنا لا نشتري لحم الجزور من السوق، فصرف في ثمن الجزور من ذلك اليوم إلى هذا اليوم أربعمائة ألف درهم ولم يطلب أمير المؤمنين لحم الجزور إلا هذا اليوم قال جعفر فضحكت لأن أمير المؤمنين إنما ناله من ذلك هذه اللقمة فهي على أمير المؤمنين بأربعمائة ألف. قال فبكى الرشيد بكاء شديدا وأقبل على نفسه يوبخها ويقول هلكت والله يا هارون وأمر برفع السماط من بين يديه ولم يزل يبكي حتى آذنه المؤذنون بصلاة الظهر فخرج فصلى بالناس ثم رجع يبكي وقد أمر بألفي ألف (ميليونين) تصرف إلى فقراء الحرمين في كل حرم ألف ألف صدقة وأمر بألفي ألف يتصدق بها في جانبي بغداد الغربي والشرقي وبألف ألف يتصدق بها على فقراء الكوفة والبصرة. ثم خرج لصلاة العصر ثم رجع

يبكي حتى صلى المغرب ثم رجع فدخل عليه أبو يوسف القاضي فقال ما شأنك يا أمير المؤمنين باكيا في هذا اليوم؟ فذكر أمره وما صرف من المال الجزيل لأجل شهوته وإنما ناله منها لقمة فقال أبو يوسف لجعفر هل كان ما يذبحونه من الجزر يفسد أو يأكله الناس قال بل يأكله الناس فقال أبشر يا أمير المؤمنين بثواب الله فيما صرفته من المال الذي أكله المسلمون في الأيام الماضية وبما يسره الله عليك من الصدقة في هذا اليوم على الفقراء وبما رزقك الله من خشيته وخوفه في هذا اليوم وقد قال الله تعالى **﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾** (الرحمن ٤٦) فأمر له الرشيد بأربعمائة ألف ثم استدعى بطعام فأكل منه فكان غذاؤه في ذلك اليوم عشاء.[1]

نعم وإن أمكن أن يورد بعض المؤاخذات على بعض ما في هذا الحدث التاريخي ولكن له في الوقت نفسه دلالات عظيمة أيضا على مدى المفعول الذي تركه دين التوحيد والعدل في نفوس المسلمين الأوائل وساستهم الذين أدوا أدوارا عظيمة في تأسيس الحضارة الإسلامية. فترى في يومنا هذا يوم حقوق الإنسان والمساواة - على ما يزعمون- يصرف الساسة الديموقراطيون الأحرار المتقدمون (!) الذين هم بمعزل عن الإسلام وتعاليمه السمحة الأموال الجزيلة الكثيرة على شهواتهم بلا أي خشية من الله ولا إلقاء بال على بؤس الشعوب ومسكنتها. فمثلا صرف الديموقراطيون في وزارة داخلية أحد من البلاد الإسلامية بمناسبة الاحتفال بعيد رأس العام الميلادي تشبها بسادتهم

---

١) المصدر السابق، ج ١٤، ص ٣٣-٣٥.

الغربيين حوالي عام ١٩٩٤ على شرب الخمر فقط ما يقدر تقريبا بمأتي ألف جنيه مصري، مع أن قريبا من مليونين ونصف من سكان ذلك البلد يعيشون في الأبنية المبنية على القبور لفقر ذات يدهم ...

وكذلك يستبين واضحا عمق روح التوحيد في كيان الحضارة الإسلامية من تلك الخطب التي ألقاها خلفاء وملوك المسلمين حينما كانوا يبدؤون بوظيفتهم الجديدة ونختار من ذلك جزأ من خطبة **سليمان بن عبد الملك** أول خطبة ألقاها بعد ما بويع له بالخلافة فقال:

الحمد لله الذي ما شاء صنع وما شاء منع وما شاء وضع و من شاء أعطى ومن شاء منع ... يا عباد الله اتخذوا كتاب الله إماما وارضوا به حكما واجعلوه لكم قائدا...[١]

وقس على هذا ما لم نذكره من تلك المجالات الحضارية التي ترى آثار التوحيد فيها بادية بارزة.

ب – النزعة الإنسانية

ونعني بذلك جانبين هامين من المجالات التي أتى بها الإسلام عطفا ورأفة على الإنسانية ورفعا لمكانتها وتساميا بقدرها فكشاهد صدق وبينة رشد للجانب الأول ترى بنظرة خاطفة تلقاها على نصوص الكتاب والسنة كثرة المفاهيم والأوامر التي أتت بخير وبر ورحمة عظيمة للإنسانية، فمن هنا ترى سيادة المعاني السامية والمبادئ الكريمة التي فيها صلاح الناس وخيرهم وبرهم وفيها الرحمة بهم والشفقة والرأفة عليهم

---

١) المصدر السابق، ج ١٢، ص ٦٤٢.

وفيها هداهم وتقاهم على تلك المساحات الواسعة والأقاليم الفسيحة التي تأقلمت بالطابع الإسلامي. فهذه النزعة الإنسانية من أهم خصائص الحضارة الإسلامية ولا ترى تلك النزعة الإنسانية ثابتة في أية حضارة أخرى ثبوتها في الإسلام، فثبوتها في الإسلام ليس مجرد حبر على ورق، بل جميع الملابسات والأحداث والتنظيمات والسلوكيات وحتى السياسات الدولية والمناسبات الديبلوماسية التي يديرها الإسلام إنما تدور وتحور[1] في فلك الخير والرشد والرحمة انطلاقا من آيات كثيرة وأحاديث نبوية شهيرة في الموضوع. فمن تلك الآيات الموجودة بكثرة في الفرقان الحكيم: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2]، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[3]، ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ۞ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[4]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾[5]، ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى

---

١) من الحور وهو الرجوع.

٢) النحل، ١٦/٨٩-٩٠.

٣) الإسراء، ١٧/٩.

٤) نفس السورة، ١٧/ ٢٥-٢٦.

٥) نفس السورة، ١٧/ ٨٢.

وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾[2]. نعم لو ذهبنا نستقصي جميع تلك الآيات التي تأمر الإنسان بالخير والبر والهدى لاضطررنا إلى ذكر قسم كبير من القرآن هنا فلنتكف بهذا.

فانطلاقا من تلك الأوامر القدسية الربانية ترى الرحمة والبر والهدى والوفاء وسائر معاني الخير سائدة على أعمال أولي الأمر من سواس المسلمين وقوادهم. خذ من معاملة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم لأسرى بدر ومعاملته لأهل مكة حينما فتح مكة، إلى توصيات **أبي بكر وعمر** رضي الله عنهما لقوادهما حينما كانا يودعانهم إلى معارك القتال[3]، إلى معاملة **عمر بن عبد العزيز** مع أفراد الأمة وولاته، إلى معاملة **صلاح الدين الأيوبي** حينما فتح القدس مع أسرى النصارى هناك، إلى معاملة **السلطان سليمان** المشهور بالقانوني مع جاليات اليهود الذين طردهم النصارى و شردوهم من الأندلس من أوطانهم، إلى معاملة قضاة المسلمين بالعدل والرحمة مع أبناء الشعوب المسلمة، إلى تلك التوصيات الفقهية الحكيمة الرحيمة التي وجهها

---

١) النمل، ٢٧/٧٧.

٢) العصر، ١٠٣/١-٣.

٣) فإن أردت المزيد من تفاصيل تلك الخطب والوصايا الإنسانية الرحيمة فراجع **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة** لمحمد حميد الله وكذا كثير من كتب التاريخ من أمثال **البداية والنهاية** لابن كثير و**سير أعلام النبلاء** للذهبي و**تاريخ الأمم** للطبري وغيرها تجد فيها البغية فإن حدود هذه العجالة لا تتسع لأكثر مما ذكرناه.

صاحب أبي حنيفة أبو يوسف رحمهما الله تعالى في كتابه الخراج إلى الخليفة العباسي هارون الرشيد حول معاملة الحكومة الإسلامية مع أهل الذمة (فإنها وثيقة تحتوي على أفضل الحريات الدينية التي لم تحلم الإنسانية بمثلها إلى ذلك اليوم) إلى... إلى... ففي كل هذا ترى رحمة عجيبة بالإنسان وترى عدلا كاملا شاملا وترى سياسة الرشد والبر مطبقة بدقة واهتمام.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن انتشار الأوقاف والمؤسسات الخيرية بين ربوع العالم الإسلامي قديما وحديثا انتشارا يفوت العد والحد أيضا من آثار تلك النزعة الإنسانية التي يتمتع بها الكيان الحضاري الإسلامي. فمثلا في التاريخ الإسلامي الطويل ما ترى مجالا خيريا إلا وترى أن وقفا ما أجرى فيه نشاطاته الخيرية فتوسع المسلمون في تكثير أنواع الأوقاف التي يمكن وقفها لفائدة المجتمع، فإلى جانب المنازل والأراضي والضياع والآبار والعيون، هناك أيضا أوقاف لتوفير مياه الشرب وفتح الطرق، إلى جانب وقف الأشياء اللازمة في بعض المهمات من وقف المصاحف والسلاح والكراع والكتب العلمية وبعض الأشياء المنزلية كالفأس والقدوم والمنشار والقدر، إلى وقف المدارس ودور العلم والمكتبات والمستشفيات والربط والخانات[1] والمساجد والفنادق والتكايا والزوايا وبيوت الفقراء والسقايات (تسبيل

---

١) يحيى محمود بن جنيد الساعاتي، **الوقف والمجتمع**، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض ١٤١٧، ص ١٢، ١٦.

الماء في الطرقات العامة للناس) والمطاعم الشعبية وبيوت الحجاج في الحرمين وحفر الآبار في الفلوات لسقي المواشي والزروع والمسافرين وأمكنة المرابطة على الثغور التي يجد فيها المجاهدون بغيتهم من مأكل ومشرب وسلاح وذخيرة والوقف لإصلاح الطرق والقناطر والجسور ووقف أراضي المقابر أو لشراء أدوات تجهيز الميت ومؤسسات تربية اللقطاء واليتامى ومؤسسات المقعدين والعميان والعجزة ومؤسسات تحسين أحوال المسجونين ومؤسسات لتزويج الشباب والشابات العاجزين عن نفقة الزواج ومؤسسات لإمداد الأمهات المرضعات بالحليب والسكر، إلى غير ذلك من الأوقاف الكثيرة البالغ عددها ثلاثين نوعا.[1] وعدا تلك الأوقاف التي تجري تلك النشاطات الخيرية الواسعة في شتي المجالات التي يحتاجها الإنسان تجد في مجال خدمة الحيوانات أيضا مجموعة كثيرة من الأوقاف التي حصر مجال خدمتها على الحيوانات فقط فخذ مثلا من وقف تحمل علف الحمر أو الخيول الهرمة إلى الأوقاف التي تجري فاعلياته على سائر الحيوانات التي لا أحد يعلفها ويسقيها إلى أوقاف تهتم بالطيور وإلى غير ذلك. كان المسلمون يفعلون جميع ذلك فإن نبي الإسلام عليه صلوات الله وسلامه قد بلغ أمته أن **في كل ذات كبد رطبة أجرا**[2]. وهو عليه الصلاة والسلام كان يبلغ أمته أن

---

١) مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، ص ١٢٥-١٢٧.

٢) البخاري، كتاب الأدب/ ٢٧.

رجلا إنما غفر له بسقيه من البئر بخفه كلبا كان يلهث مـــن العطـــش[1]. نعم هكذا كان آباؤنا الأولون وبذلك استطاعوا أن يؤسسوا أعظم وأفضل الحضارات الإنسانية :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ❖ إذا جمعتنا يا جرير المجامع

كما لا نزال نرى في هذه الأيام التي هي أحلك أيام أمة الإسلام لا سياسة فقط بل علما وعملا وعقيدة وأخلاقا أيضا- رغما من أن قيم الرأسمالية القاسية الأثيمة ومبادئها القاتمة اللئيمة تحدد وتقدم القيم لكثير من أبناء المسلمين أنفسهم و لهم غناء بالغ عنها بما في الإسلام وبدأت تسيطر على تفكيرات ونزعات كثير من المسلمين فرغما من كل ذلك ترى في طول العالم الإسلامي وعرضها قسما غير قليل من المؤسسات الضخمة التي لها ميزانيات كبيرة تقدر بملايين الدولارات تقدم خدمات خيرية كبيرة من مواساة زمنى ومداواة مرضى وإشباع جائع وإفطار صائم وكسوة عار وتسديد دين وكفالة تعليم فقير وغيرها. كما نجد درسا بالغا في ما يقدمه في رمضان المبارك أهل المملكة العربية السعودية - التي لازالت قيم الإسلام السمحة تحدد فيها كثيرا من اتجاهات حياة كثير من الناس عامة- من التسابق على أنواع الخير والبر وخصيصا تفطير الصائم : ترى في كل مسجد يشبع مئآت الناس الفقراء بأنواع الطعام الشهية من لحم وأرز ومرق وماء وتمر وحلويات وغيرها. إن في ذلك لمشهدا إنسانيا رائعا ولكن لمن تبصر واعتبر. إنه الإسلام

---

١) نفس المصدر.

يستطيع أن يفعله ويوجه أبنائه إليه لا غير!

وأذكر كنموذج ثان على ما لا يزال موجودا بين المسلمين من خير وبر ما أنجزته جمعية خيرية من المشاريع عام ١٤٢٠ هـ في المملكة العربية السعودية:

١- وزعت على الطلاب والطالبات طوال العام (٢٥٠٠٠) حقيبة مدرسية تحتوي على جميع ما يحتاج إليه الطالب والطالبة من أدوات مدرسية،

٢- صدقة الشتاء وشملت نوعين من أنواع الصدقة وهي:

أ- بطانية الشتاء وقد وزعت (٧٠٠٠) بطانية،

ب- كسوة الشتاء وقد وزعت أربعة آلاف كسوة.

٣- تم تفطير(٣٧٧٠٠٠) شخص طوال شهر رمضان،

هذه المشاهد الإنسانية التي لا يزال الإسلام دفاقا بها بحمد الله ومنه كثيرة في غالب بلاد المسلمين. وحينئذ يمكن أن تعلم علم اليقين عظمة تلك النزعة الإنسانية التي تتمتع بها الحضارة الإسلامية كما يتيسر لك عندئذ أيضا أن تقدر لتلك الطاقات الحضارية الهائلة التي يتمتع بها الإسلام قدرها.

وأما الجانب الثاني هو ما أعطاها الإسلام للإنسان من كرامة ورفعة شأن: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ

---

١) الإسراء، ١٧/ ٧٠.

فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[1]، وهذا التكريم الإسلامي للإنسان يتجلى في بعض النواحي نجملها في جانبين:

١ -الحريات الواسعة التي أتى بها الإسلام الموائمة لفطرة الفرد والمجتمع من الحريات الدينية إلى الحريات الاقتصادية والسياسية والتعليمية والتنقلية السياحية وغيرها فجميع حريات الإنسان تلك مضمونة في الإسلام بلا إفراط ولا تفريط.

٢- حماية سائر الحقوق بالمصطلح الجديد فجميع حقوق الإنسان (لا المسلم فقط بل الذمي أيضا في جميع المجالات) المشروعة الموافقة مع الفطرة السليمة و التي يقبلها العقل المستقيم - وليس فيها إضرار بالنفس والمال والعرض والدين والعقل والآخرين- محفوظة ومحمية في الإسلام كل على حسبه وليس فيها تضحية بأي جانب للآخر كل وفق فطرة الله التي فطر الناس عليها.

هذا الاعتناء الوفير بالإنسان من كلا الجانبين طابع عام للإسلام يتأقلم به كل من تنفس ذلك الجو الإسلامي النزيه بلا خبث طوية ولا سوء نية فصار هذا الطابع العام سمة وخصيصة للكيان الحضاري الإسلامي عبر القرون وتأثر به كثير من المشركين فأسلموا فمثلا استعمل الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إسماعيل بن عبد الله المخزومي وكان حسن السيرة على إفريقية وبلاد المغرب فأسلم في ولايته

---

١) التين، ٤/٩٥.

على بلاد المغرب بحسن سيرته خلق كثير من البربر.[1]

ج- السمة الاجتماعية التي تجعل الفرد من الأمة فردا اجتماعيا وعضوا جماعيا:

إن من أهم خصائص وسمات الحضارة الإسلامية هو انتشار روح الإخاء والمحبة والتراحم والتعاطف والتوادد والتساند والتعاون والتكافل الاجتماعي بين أعضاء الأمة بحيث أن الفرد في المجتمعات الإسلامية مهما ابتعد عن أوطانه وأهاليه لا يحس بوحدة وتوحش وحتى غربة طالما سادت على تلك المجتمعات روح الإخاء والرحمة الإسلامية لأنك تجد في الإسلام حشدا كبيرا من الآيات والأحاديث النبوية يأمر الجامعة الإسلامية بحب الآخرين وبرهم ومعونتهم وأداء بعض الوظائف إليهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾[2]. وفي الحديث الشريف: **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**[3]، **مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**[4]، **لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ههنا (يشير إلى صدره) بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله**

---

١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ١٢، ص ٦٥٩.

٢) الحجرات، ٤٩/١٠.

٣) البخاري محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان/٧.

٤) مسلم بن الحجاج القشيري، **الجامع الصحيح**، كتاب البر والصلة والأدب/١٧.

وعرضه[1] إلى آخر ما في الأحاديث التي تقوي الصلات الاجتماعية بين أعضاء الأمة ومن هنا ترى الإسلام أتى في مصطلحه الخاص بمجموعة من الحقوق التي لا تكاد الإنسانية تعرفها إلا في ظل الأديان السماوية الحقة. (أما إنسانية القرن الواحد والعشرين فبعيدة منها بمراحل وكلما يزداد تطورها الحضاري يزداد بعدها من تلك الحقوق التي أتى بها الإسلام) فيتكون من إصرار الإسلام البالغ على نشر وترسيخ تلك الحقوق والوظائف الاجتماعية في المجتمع عقلية اجتماعية في الجامعة الإسلامية تهيمن على الجو العام السائد على مشارق العالم الإسلامي ومغاربها ويتربى أعضاء الأمة الناشئون في ذلك الجو الإنساني النزيه على روح الإخاء والتساند والتعاون ورعاية وظائفه نحو الآخرين. وهذا هو ما يجعل الفرد المسلم أكثر تفاعلا مع سائر أفراد الأمة وتفاهما معهم ويجعله أيضا حينما يرى النصح والتساند والمعونة من الآخرين أكثر تفانيا في خدمة الآخرين والأداء بواجبه نحوهم:

﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾[2]، ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

---

١) مسلم، البر/ ١٠.

٢) النساء، ٤/٣٦.

﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

فتلك المجموعة الخاصة من الحقوق والواجبات التي أتي بها الإسلام في مصطلحه الخاص والتي تجعل من الفرد المؤمن عضوا اجتماعيا، غير محبوس منعزل، في حدود عالمه الضيق حتى يلجأ إلى مصادقة الكلاب والهرات (كما ترى ذلك في أبناء الحضارة المعاصرة)، تجعل منه عضوا ممتزجا ومنسجما مع المجتمع ومتفاعلا متفاهما معه، تجعل منه عضوا اجتماعيا نشيطا هو يكمل الآخرين كما يكملونه هم، يتم بعضهم بعضا في إكمال ذلك البناء الإنساني الرفيع الذي يرضى الله سبحانه منه أن يكون بنيانا مرصوصا. فتلك المجموعة كما يلي: حقوق الوالدين، حقوق الزوجين، حقوق الأولاد، حقوق الأقارب، حقوق الجار، حقوق الضيف، حقوق الكبير، حقوق الصغير، حقوق المسلم عامة.

هذا عدا تلك الواجبات التي كلف الإسلام الفرد المؤمن بها نحو الآخرين كدفع الصدقات والكفارات والزكوات والنذور والأضاحي لفقراء المسلمين وعيادتهم في مرضهم وتهنئتهم بأفراحهم ودعوتهم للولائم وإجابة دعوتهم وتشييع جنائزهم والتسليم عليهم ورد سلامهم والاشتراك في أعيادهم. فكل هذه الحقوق والوظائف إلى جنب ما يكونه

---

١) الأنعام، ٦/١٥١-١٥٢.

صلاة الجماعة والجمعات والحج من روح التفاعل والتضامن في المجتمع تجعل النزعة الاجتماعية سمة وخاصة حضارية لحضارة الإسلام لا توجد في غيرها بهذا القدر وهذه الطاقة على الإطلاق.

نعم لو ذكرنا تلك الآيات والأحاديث التي تأمر وتبين تلك الحقوق والوظائف الإيمانية لطال بنا النفس وربما يمكن أن يلاحظ البعض علينا أننا بذلك ابتعدنا عن صلب موضوعنا فمن أرادها فعليه بالقرآن الحكيم والأحاديث النبوية. يجد المورد عذبا والنبع ثرا والمعين فياضا ولله الحمد والمنة.

د- النزعة الأخلاقية

إن من محاسن الإسلام أنه - رغما من أنه دين يدعو إلى عبادة الواحد الأحد- نظام جمع بين أحضانه جميع ما له مساس بإصلاح الفرد والمجتمع من نظم العبادات إلى النظم السياسية والنظم الأخلاقية، نظام وازن بين الروح والمادة لا يهتم بأي واحد منهما فقط على حساب الآخر، نظام اهتم بالفرد والجماعة سويا برعاية مصلحة كل في حدوده، نظام اعتنى بالعلم والمعرفة قدر ما اعتنى بالذكر والعبادة، نظام أعلن العداء البالغ على الجهل قدر ما أعلن عدائه لترك العبادة، نظام اهتم بالسعي والعمل كما ندد بالعطالة والبطالة، نظام أعلن حربا شعواء بلا هوادة على جميع المحرمات والمنكرات والفواحش ما ظهر منها وما بطن، نظام أتي بعقوبات مادية شديدة (هي في الوقت نفسه رحمة للعالمين) تحمي الفرد والجماعة من كل الاعتداآت والسيئات وأنواع

الجور والفساد، نظام قدر ما اهتم بعلاقة العبد مع ربه اهتم بعلاقة الإنسان مع بني جلدته، وفي ضمن تلك العلاقات الثنائية والاجتماعية أتى بآداب عالية ومبادئ أخلاقية سامية: خذ من عدم رفع الصوت لكبارنا، وتوقير شيوخنا إلى التسليم على إخواننا حينما نستأذن في دخول بيوتهم، إلى الرحمة على صغارنا ولين الجانب والتواضع والشفقة ومحبة الآخرين...و...و.

ترى الفرقان الحكيم حين يجيز للمسلمين في الفترة المدنية أن يقاتلوا في سبيل تحقيق استقلالهم الذاتي يبين لهم بصراحة ووضوح أن شرط نصر الله لهم إقامتهم لشعائر العبودية الصادقة وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر اللذين هما ملاك كل خير وبر وسلوك حسن فالحجر الأساس لدولة الإسلام التي ستقوم والخميرة الأصلية لها هو كما يلي: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1] ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[2]. فالآية - سواء كانت آية البقرة أو كانت آية الحج[3] - التي أجازت للمسلمين أن يقاتلوا في سبيل

---

١) البقرة، ٢/١٩٠.

٢) الحج، ٢٢/٣٩، ٤١.

٣) انظر محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، دار الفكر، بيروت ١٤٠٩/١٩٨٩، ج ١، ص ١٩٠-١٩١.

استقلالهم وإعادة عزهم ومجدهم وبسط سلطان التوحيد والعدل والحق المطلق على الأرض ترى ظاهرا واضحا من خلال كلماتها الانضباط الخلقي وعدم الاعتداء وتقييد المجتمع -الذي أخذ طريقه إلى النفوذ في العالم بإذن ربه- بالسلوكيات الأخلاقية الحسنة التي يجمعها وأكثر منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فكمثال على بعض ما ذكرنا تدبر هذه الأخلاقيات التي يقدمها للبشرية هذه التوجيهات القرآنية الرشيدة[1]: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۞ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[2]. واقرأ هذين النصين الكريمين كي يأخذ العجب منك كل مأخذ مما أتي به القرآن من جوامع الأخلاق وأساسياتها وكرائمها: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلَا تَقْرَبُوا

---

١) انظر حول بعض المجموعات الأخلاقيات القرآن الكريم، البقرة، ٢/ ١٧٧، آل عمران، ٣/ ١٠١-١١٠، النساء، ٥/ ٣٦-٣٨، الأعراف، ٨/ ٢٦-٣٣، الرعد، ١٣/ ٢٠-٢٥، النحل، ١٦/ ٩٠-٩٧، ١٢٥-١٢٨، الإسراء، ١٧/ ٢٣-٣٧، المؤمنون، ٢٣/ ١-٩، لقمان، ٣١/ ١٣-١٩، الأحزاب، ٣٣/ ٣٥، فصلت، ٤١/ ٣٠-٣٦، الشورى، ٤٢/ ٣٦-٤٤، الحجرات، ٤٩/ ١-١٣، المعارج، ٧٠/ ١٩-٣٤.

٢) الفرقان، ٢٥/ ٦٣، ٦٧، ٦٨، ٧٢.

مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

ثم تأمل بحسن دقة وعمق حكمة هذه الإرشادات النبوية الحكيمة التي هي رشفة من ديمة كي ترى عن كثب جمال وكمال السمة الأخلاقية التي أسبلها الإسلام على كيان حضارتها الغراء: **ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة**[2] **إن من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسا يوم القيمة أحاسنكم أخلاقا وإن من أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلسا يوم القيمة الثرثارون** (كثيرو الكلام) **والمتشدقون** (الذين يتطاولون على الناس في الكلام ويبذون عليهم أي يفحشون القول لهم) **والمتفيهقون** (المتكبرون)[3]، **اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة وخالق الناس بخلق حسن**[4]، **إن خياركم أحسنكم أخلاقا**[5] **إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيمة من تركه الناس اتقاء شره**[6] ، **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو**

---

١) الأنعام، ٦/١٥١-١٥٢.

٢) الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى، **الجامع الصحيح**، البر والصلة/٦٢.

٣) الترمذي، البر والصلة/٧١.

٤) الترمذي، البر والصلة/٥٥.

٥) البخاري، الأدب/٣٩.

٦) البخاري، الأدب/٣٨.

ليصمت[1] إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا.[2] الحياء والعي (قلة الكلام) شعبتان من الإيمان. والبذاء (الفحش في الكلام) والبيان (كثرة الكلام) شعبتان من النفاق.[3]

هذا إلى جانب أن الإسلام الحنيف لم يهمل سلوكيات الفرد الشخصية وملابساته مع نفسه أيضا بلا حدود ولا قيود فترى يبدأ حتى من دخول المرء الخلاء، إلى غسله يديه قبل الأكل، إلى نظافة أسنانه وفمه، إلى نظافة جسده، إلى تطيبه وتنظفه حينما يخالط المجتمع، إلى ضحكه وكلامه، إلى مشيه ومنامه... إلى... إلى... فترى الإسلام أتى في كل تلك الميادين بآداب سامية حنيفة فطرية، ولو ذهبنا نذكر الأحاديث على كل ذلك لبعد بنا الشقة.

فلتحسين شبكة العلاقات الأخلاقية على كل المستويات من جانب والسلوكيات الشخصية من جانب آخر أتى الإسلام بأوامر ترهيبية شديدة إلى جانب ما أتى به من كثير من الأوامر الترغيبية أيضا فلا تكاد ترى جانبا أخلاقيا أو خلقيا إلا وترى للإسلام فيه توجيهات ناصعة حكيمة ونصائح مشرقة رشيدة فلهذا من الخطأ البالغ والافتراء الشنيع المضلل أن يحكم على الإسلام بأنه عقيدة وجدانية فقط أو مجموعة من تلك الأواصر التعبدية المحبوسة في الوجدان فقط أو إنما هي

---

١) البخاري، الأدب/٨٥.

٢) مسلم، البر والصلة/٩.

٣) الترمذي، البر والصلة/٨٠.

مجموعة أخلاقية تنظم الاتصالات الأخلاقية فقط. فالإسلام بريء من كل تلك الانحصارات الباطلة التي قيلت على الإسلام ظلما وعدوانا بل هو يحتوي بتوازن عجيب - بلا طغيان لجانب على حساب الجانب الآخر - علي تنظيم جميع مجالات الحياة بلا انحصار في أي واحد منها.

فهذا البنيان المرصوص المحكم من القيم والأسس والمبادئ الأخلاقية العالمية الجامعة المتوفرة في الإسلام كشجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها أسبل على كيان الحضارة الإسلامية غطاء من إستبرق الإنسانية فصارت السمة الأخلاقية خصيصة هامة من خصائص الحضارة الإسلامية ولله الحمد والمنة.

ولكن المدنية الغربية الحديثة لا تقر الحاجة إلى خضوع
ما إلا لمقتضيات اقتصادية أو اجتماعيةأو قومية
إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني ولكن
الرفاهية.

محمد أسد

٥- خصائص الحضارة الغربية ومعطياتها

إن الحضارة الغربية هي التي تحدد كما كبيرا من اتجاهات حياة الإنسان المعاصر في القسم الغالب من الكرة الأرضية- بما فيه إنسان العالم الثالث- وهي التي تكوّن القسم الغالب من مقومات الحياة الإنسانية اليوم في الشرق والغرب وهي التي تتشكل على وفق مقايسها- غالبا- القيم الإنسانية والأخلاقية كما أن محكومة بغالبيتها العظمى بإدامة حياتها في المجالات السياسية والإدارية والتعليمية والقضائية والديبلوماسية على النحو من المعايير التي تحددها لها تلك الحضارة الغربية رضيت أو كرهت كما أنها صارت المحددة الغالبة للقسم الأعظم من تلك الأمور الأخرى الحيوية كالاتجاهات الفكرية والمقاربات القيمية و الفلسفات الحياتية بله المظاهر اليومية كالمراسلات والأطعمة والأشربة والملابس و أثاثات البيت وحتى أساليب الكلام- التي تلعب دورا كبيرا في حياة جل المجتمعات الحديثة - فترى أن حضارة الغرب من بين تلك

الحضارات الخمس التي بقيت على قيد الحياة[1] هي المهيمنة على كثير من قطاعات الحياة وهذه الحضارة أسست من أول يوم أسست على عدة عناصر أساسية كثير منها يعادى الفطرة الإنسانية وينافي فطرة المجتمع وأهم هذه العناصر المنافية المصادمة للفطرة البشرية هي تشبعها البالغ بالوضعية المركزة على الإلحاد و الجحود ومعاداة الدين حقا أو باطلا وتنشئتها لأبنائها وتربيتهم على روح الجشع والاستعمار والاستغلال والعنصرية اللئيمة وحب الذات والازدراء بحقوق الغير في سبيل تأمين حقوقه[2] وعبودية الشهوات و الملاهي والأموال و الثروات بحيث صارت فلسفة الملاهي ولمّ الأموال هي المعينة لصبغة المجتمعات الغربية ومن حذا حذوها وصارت تلك المقايس المادية هي المسيطرة على روح الحياة واتجاهاته لدى إنسان الغرب ومن تزيا بزيه كما أن من أهم ثمرات تلك الحضارة المشبعة بما تقدم من المساوئ والرذائل أن قد مت للإنسانية طرق المحاربة- أو قل طرق الإفناء والإعدام- مع كثير من تلك المعاني

---

١) إن آرنولد تونبي يقول إن الحضارات التي لا تزال على قيد الحياة هي هذه الحضارات الخمس الحضارة الأورثوذكسية والحضارة الإسلامية والحضارة الروسية والحضارة الهندية والحضارة الغربية وهي من بين تلك الحضارات التسع عشرة التي بدأت الإنسانية بالحياة في كنفها أول ما بدأت قبل ستة آلاف سنة و عاش كل واحد منها ردحا من الزمن إلى أجل مسمى ثم مات ولم يبق منها على قيد الحياة سوى الخمس الآنفة الذكر. أنظر آرنولد تونبي Medeniyet Yarglanyor (Türkç. Ufuk Uyan) Yeryüzü Yay. Ýst. Trz. S. 149-150

٢) انظر تحقيقا لأهم معالم الحضارة الغربية مقارنة مع أهم قسمات الحضارة الإسلامية كتاب المقالات التركية لسعيد النورسي Sözler Envar nc. Ýst. 1993 s. 132-133

الإنسانية السامية كالتواضع والتحابب والإيثار والتعاون والرحمة والمؤاخاة الإنسانية والإنفاق في سبل الخير. وقد أدى ذلك إلى فساد المجتمعات فسادا هائلا فقد أصبح الربا التي هي أبشع[1] وأقسى المعاملات الاقتصادية أساس الاقتصاد الحديث، وصار الميسر الذي هو من أرذل وأظلم المكاسب البشرية أحد المجالات الأساسية المفضلة للكسب، صارت التجارة عملا مساويا للفساد والاستغلال وانعدام الأخلاق، وصارت السياسة مناورات لا أخلاقية واستماتة في الوصول إلى السلطة، واختلط العدل بالمصلحة الشخصية، وقيست صلات الناس بالمنافع المادية، وتحولت الحرية إلى الفوضى واللاأخلاقية والتسيب والتعدي على حقوق الناس، وحل التوافق مع المجتمع (سواء كان في الصالح أم في السيئ) محل القيم الأخلاقية، فاختلت بذلك موازين الناس وأدى كل ذلك إلى تحلل المجتمعات وتفككها وإضعافها إلى درجة أصبحت كلمتا الحق والباطل لا معنى لهما في عالم تحكمه المادة فقط عالم أصبح النجاح فيه هو معيار الحق والقوة تصنعه، والغاية تبرر الوسيلة، والالتزام بمبدأ ما جمود وعقم، عالم تحكمه الأطماع والمخاوف ويفتقر إلى صاحب الرأي السديد!!![2] فمن الناحية الأخلاقية هذه هي الثمار التي أهدتها حضارة الغرب للعالم.

---

١) أبشع من البشع: الكريه، الخبيث النفس، الدميم.

٢) زغلول راغب النجار، **أزمة التعليم المعاصر**، الدار العالمية للكتاب إلاسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٦، ص. ١٦

كما أهدت لها (!) جميع وسائل الدمار الجماعي وجميع طرق إبادة الحياة من على وجه البسيطة ترى ذلك بصورة رهيبة مدهشة في ما ذكره الكاتب الفرنسي **روجيه جارودي**:

حسب معطيات عام ١٩٨٥ (أي قبل يومنا هذا بخمسة عشر عاما) أنفق في العام الماضي على التسلح أزيد من سبعمائة مليار دولار أمريكي فيكون الكتلتان الشرقية والغربية ادخرتا في خزائن أسلحتهما أكثر من مليون قنبلة ذرية من ذلك النوع الذي ألقي في هيروشيما. وقنبلة هيروشيما دمرت في آن واحد أكثر من سبعين ألف نسمة ويعني ذلك أن بإمكانية تقنية القرن العشرين أن تدمر سبعين مليار نسمة أي أضعاف ما يعيش اليوم على وجه البسيطة بخمسة عشر ضعفا.[١] فمن هنا نرى البعض من أبناء تلك الحضارة يعلن وشك إنهيارها وهي في عنفوان شبابها:

نرى **روجيه جارودى** بعد ما قدم فيما ينوف على مأتى صفحة من كتابه "**الاتحاد الأمريكي طليعة الدمار**" كميات الخسائر الإنسانية الفادحة في ما سوى عالم الغرب التي تقشعر منها الجلود وتنكمش منها العقول وتشمئز منها القلوب تلك الخسائر التي منيت بها إنسانية القرن العشرين من جراء ثقافة الغرب وحضارته التي ابتلى بها أربعة أخماس العالم نرى **جارودى** يصرخ و يعلن: "كيف يتسنى لنا أن نفك رقابنا من هذه المنظمات الجائرة الغاشمة (و الحضارة الغربية) التي لا تكون عاقبتها إلا

---

١) Roger Garaudy, Islam ve insanligin Geleceq cev.cemal Ayelin Pinar Yay 2.bax, Islanbul 5.27.

الموت والدمار؟ فإننا أمام خيارين لا ثالث لهما إما الانعدام والفناء وإما أن نتغير حتى يغير الله ما بأنفسنا.[1] كما ترى نفس الكاتب يشرح الخيار الإيجابي من الخيارين المتقدمين بما أفاده هذا السؤال الذي ألقاه هو في مقابلة صحفية أجريت معه: كيف نختار الطريق الحكيم حتى يمكن للإنسان أن يعيش مع الطبيعة من ناحية ومع الإنسان الآخر من ناحية ثانية ثم بتوافق تام مع الله سبحانه؟.[2]

إن إنسانية القرن العشرين لم تسعد بمعطيات الحضارة الغربية بل كانت متألمة إلى أكبر حد مما أتى بها عليها من الويل والدمار والذل والوبار ومما أفقدتها من كثير من ميزاتها البشرية وكمالاتها الإنسانية لأنها جعلت الإنسان كماكينة مبرمجة تتحرك حسبما وضع فيها من البرامج. ترى الغالبية العظمى من الذين يعيشون تحت ظلال الحضارة الغربية برمجوا على العمل في المصانع أو أي محل آخر والذهاب والإياب حسبما حدد لهم والتردد على الملاهي والملاعب والأكل والشرب والسفاد وجر النفع لأنفسهم إن وجدوا لذلك سبيلا. البرنامج الذي أتحف إلى الإنسان المعاصر هو هذا فقط وأما ما سوى ذلك من الأعمال الخيرية والبر فلا أبدا -إن لم يبرمجوا عليه من مثل ما ترى في بعض

---

1) Roger Garaudy, A. B. D. Çöküün Öncüsü (Türkç. Cemal Aydn) Nehir yay Bas. Ýst. 1997 s. 213

٢) حيدر عبد الكريم الغدير، **المسلمون والبديل الحضاري**، سلسلة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية ١٤١٢-١٩٩٢، ص ٢٧-٢٨.

المؤسسات الخيرية- فنسيت الفضائل و تركت سبل البر والإحسان واندرس في المجتمعات جميع مسالك الخير والسمو الإنساني وهجرت الأخلاقيات الحسنة والشمائل الكريمة. فمن جراء كل هذا عانت الإنسانية من تلك الحضارة الراقية الزاهرة!؟ ولا تزال تعانى في كثير من جوانب بنيانها أشد الآلام المادية والمعنوية ونوجز بعضا من تلك الأضرار الفادحة التي لحقت بالإنسانية بسببها فيما يلي (وقد سبقت إشارة مجملة إلى البعض منها):

١-الخواء الروحي والفراغ المعنوي

إن الخواء الروحي أي خلو الحضارة مما يسعد الروح ويطمئنه هو الذي يضيق الخناق من الإنسانية ويجعله في ضيق مميت وعناء بالغ وسوء ذريع وشر منتشر مما سبب ويسبب المشاكل الكثيرة على مستوى الفرد والمجتمع في جميع تلك البلاد التي اتخذت معالم تلك الحضارة لها شعارا. وجعلت معطياتها لها دثارا. وذلك الخواء بما تخفيه تلك الحضارة في باطنها من الإلحاد والجحود الناتجين من الوضعية التي هي أهم وأبرز المعالم الفكرية لتلك الحضارة فانعكست منها آثارها السيئة على واقعيات حياة الفرد والمجتمع والدولة.

الإنسان الغربي ومن كان على شاكلته رغما من الإمكانيات الكثيرة والرفاهية التامة والرخاء البالغ إلى أقصى الحدود غير سعيد اليوم أبدا ويبحث حثيثا عما عساه أن يسعده من الملهيات والمغريات ويجاري

مع هواه في جميع ما تشتهيه وتهواه. ولكن أنى له السعادة؟ فتراه كثيرا ما يلقي بنفسه تفاديا[1] مما يكابده من ذلك الخواء الفاقر في مغامرات شتى ويغامر[2] بنفسه في أحداث كبرى. إن كثيرا مما يرتكبونه من الأعمال التي هي أشبه بالمغامرة من أي شيء آخر وإن راحوا يسمونه بالرياضيات أو غيرها فهو في واقع الأمر إنما يرتكب هربا و تفاديا من ذلك الفراغ والخواء وبحثا عما عساه أن يسعده ويخفف شيئا من آلامه وشقائه.

وهذا الخواء الروحي كان نتيجة لحدث هام لم ينجح فيه الحضارة الغربية من أول يوم أسست فيه إلى يومنا هذا، ولا تزال فاشلة فيه. كما أنتج هذا الناتج أيضا ولدا أشئم: فالأول الذي نتج عنه هذا الخواء الروحي هو فشل هذه الحضارة الذريع في التوازن بين الحالة المادية والوضع الروحي للإنسان وعدم سعيها لذلك أبدا، فاهتمت هذه الحضارة بجميع عناصرها ومؤسساتها وقيمها وثقافتها ومبادئها وتعاليمها وأفكارها وقوانينها ودساتيرها بالمادة فقط على حساب المعنى فجاء يوم طغى فيه المادة بأسوأ صورة على الروح ومبتغياته فبقي من الكيان الإنساني أكوام من الجثث بلا روح ولا حياة فانتنّت الجثث، وفسدت الهواء، و طارت جراثيم ذلك الطغيان إلى مشارق الأرض ومغاربها. فصارت تزداد يوما فيوما بحيث عم البلاء والوباء الأرض كلها وطم، وغلب الظلام وتم! فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

١) تفاديا: توقيا وتجنبا.

٢) يغامر: يلقي بنفسه في غمرة أي شدة.

فلنذكر البعض من تلك الآثار السيئة الناجمة عن هذا الخواء الروحي المنتشرة في عرض البلاد وطولها:

أ- عدم التوازن بين الروح والمادة

إن من الثوابت التي لا يماري فيها اثنان ولا ينتطح فيها عنزان ويكاد أن يقع عليها الإجماع هو أن الحضارة الغربية لم تستطع إلى يومنا هذا أن تحقق التوازن بين الروح والمادة يفصح عن ذلك هذه الاعترافات التي ننقلها من الغربيين أنفسهم - وصاحب الدار أدرى بها - فلننقل بعض تلك الاعترافات كي يزداد القارئ بصيرة واطمئنانا بأننا لا نقول ما نقول جزافا أو رجما بالغيب.

عدم التوازن بين الروح والمادة والفشل في اطمئنان الروح وترك الجانب الروحي مهملا غير معتد به من أهم سمات الحضارة الغربية - كما علم مما أسلفنا - فلذا ترى اليوم تعلو صيحات الألم والقلق في شتى الأصعدة الغربية وتزداد تلك الآلام والشقوى يوما فيوما. تراهم يبدون قلقهم لا على مستوى مصير الفرد فقط بل على مستوى مصير الشعب الغربي عامة. والذين فهموا حقيقة الخطر فأخذوا يستصرخون ويستغيثون إنما هم عقلائهم الذين أفاقوا برهة[1] من الزمن من غيهم وسكرهم. وأما غالبية الشعب فهي لا تزال تمادي في باطلها وترتبك أكثر فأكثر في أوحال ضلالها وشقائها بلا علم ولا فهم لما سيؤول إليه

---

١) البرهة: بفتح الباء وضمها الزمان الطويل أو أعم.

أمرها. وإليك بعضا من اعترافاتهم وما يظهر عيانا مدى قلقهم على مصير شعوبهم:

١ - يبدو القلق السائد على الغرب واضحا حينما يعرب **محمد أسد** النمساوي اليهودي الأصل سبب إسلامه حيث يقول:

"في ذات يوم من أيام شهر أيلول من سنة ١٩٢٦ كنت راكبا مع زوجتي في قطار برلين تحت الأرض فوقعت عيني اتفاقا على رجل أنيق الملبس جالس قبالتي. كان على ما بدا لي تاجرا تبدو عليه آثار النعمة والثراء، على ركبتيه حقيبة صغيرة جميلة وفي إصبعه خاتم ماسي كبير. وأخذت أفكر بتكاسل كيف أن مظهر هذا الرجل الحسن كان يعكس الرخاء الذي كان المرء يقع عليه في كل مكان من أوروبا الوسطى في تلك الأيام: ذلك الرخاء الذي عقب سنوات التضخم التي كانت فيها الحياة الاقتصادية كلها رأسا على عقب، ورثاثة المظهر هي القاعدة. إن معظم الناس كانوا الآن يلبسون جيدا ويأكلون جيدا، ومن هنا لم يكن الرجل قبالتي خلاف غيره من الناس إلا أنني عند ما نظرت إلى وجهه خيل إليّ أنني لم أكن أنظر إلى وجه سعيد، فقد بدا لي قلقا: لا قلقا فحسب، بل شقي بصورة حادة، ترسل عيناه نظرات فارغة إلى الأمام، وزاويتا شفتيه متقلصتان[1] ألما - ألما غير جسماني. وإذ لم أرد أن أكون وقحا، لقد أشحت[2] بوجهي فرأيت إلى جانبه سيدة على شيء من الظروف لقد

---

١) من قلص شفته بمعنى انزوت وشمرت.

٢) أشحت بمعنى أعرضت.

كان وجهها أيضا يعبر تعبيرا غريبا عن عدم سعادتها، كما كانت تعاني أو تفكر في شيء يسبب لها الألم. ومع ذلك كان ثغرها يفتر عما يشبه ابتسامة جامدة لم أشك في أنها لا بد أن تكون عادية لديها وعندئذ أخذت أجيل ببصري في جميع الوجوه الأخرى - وجوه أناس كانوا جميعهم دون استثناء يرتدون الملابس الجميلة ويقتاتون بالغذاء الجيد- وفي كل وجه منها استطعت أن أميز تعبيرا عن الألم الخبيء إلى درجة أن صاحبه بدا و كأنه لا يشعر به.

والحق أن هذا كان غريبا فأنا لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا العدد من الوجوه التعسة[1] من حولي... أو لعلني لم أبحث من قبل عما كان ينطق فيها بمثل تلك الجهارة! كانت الانطباعة قوية إلى درجة جعلتني أذكرها لزوجتي، فأخذت هي أيضا تنظر حولها بعيني رسام حريص اعتاد دراسة القسمات البشرية ثم استدارت إليّ دهشة وقالت: أنت على حق ... إنهم جميعا يبدون وكأنهم يعانون ألم الجحيم..."[2]

٢- ما يعانيه الغرب من الخواء الروحي بلغ مبلغا لا يمكن أن يخفى بعد فلا يجد كثير من عقلاء رجالات الغرب بدا من أن يظهروا قلقهم ويتجرعوا كؤوس تلك الاعترافات المرة بهذه الحالة الخطيرة التي تعيشها أمتهم بين حين وآخر فحينما تسلق **نيكسون** منصب الرياسة

---

١) التعسة من التعس بسكون العين: الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط.

٢) محمد أسد، **الطريق إلى الإسلام**، ترجمة عفيف البعلبكي، مكتبة العبيكان، الطبعة التاسعة، الرياض ١٤١٨، ص٢٤٩-٢٥٠

الأمريكية لم يتحرج من أن يعلن في أول خطاب رسمي له ذلك الخواء الروحي: "إننا نجد أنفسنا أثرياء في البضائع ولكن ممزقين في الروح ونصل بدقة رائعة إلى القمر، وأما على الأرض فنتخبط في متاهات ومتاعب كبيرة"[1]

٣- وهذا هو ديجول رئيس فرنسا السابق يقول: "إن مجتمعاتنا الأوروبية فقدت شيئا ثمينا جداً تحت وطأة تقدمها الضخم، وهو الإنسانية و أعني بها القيم الروحية البشرية العليا فقد قطعت حضارتنا تلك الصلة المعنوية التي تربط البشر بعضهم ببعض. لقد جف شعورنا وتجمدت قيمنا الأخلاقية وانحلت".[2]

٤- وهذا أيضا هو السفير الألماني السابق بالرباط/المغرب دكتوراه في القانون أسلم عام ١٩٨٠ وأخذ اسم مراد، يعرب في كتابه **الإسلام كبديل** الذي أحدث في ألمانيا ضجة كبيرة عن بعض ما تعانيه الشعوب الغربية من الخواء الروحي: "ولنتأمل معا ضحايا ذلك المجتمع الصناعي وقيمه الحيدية المزعومة فحسب: إنهم يتمتعون بكل ما يريدون من الاستقلال الذاتي والحياة المؤمّنة منذ المهد إلى اللحد والحرية أو الإباحية الجنسية التي لا تعرف محظورا أو محرما والمخدرات على اختلاف أنواعها وأذواقها حسب كل مزاج وطلب وأوقات الفراغ والعطلات والإجازات المكفولة قانونيا وكافة الحقوق المدنية التي يحلم

---

١) حيدر الغدير، **المسلمون والبديل الحضاري**، ص ٢٥-٢٦.

٢) المصدر السابق.

بها المرء، لكنهم مع كل ذلك يحسون فراغا هائلا يملأ وجودهم الفعلي ويتوقون إلى الحنان والدفء البشري من قبل الجماعة التي يعيشون معها أو ينتمون إليها وإلى سلطة زعيم روحي..."[1] ولكن أنى لهم ذلك؟

٥- كما نرى محمد أسد* الذي أسلم قبله بكثير عام ١٩٢٦ - وقد ذكرنا الحدث الذي كان سبب إسلامه - يعلن وهو الخبير بالغرب الرضيع من ثديها تلك الحقيقة الثابتة عن الخواء الروحي في حضارة الغرب:

"إن المدنية الغربية لم تستطع حتى الآن (حوالي عام ١٩٥٢) - وحتى الآن عام ٢٠٠٠ وإلى يوم القيامة - أن تقيم توازنا بين حاجات الإنسان الجسمانية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية لقد تخلت عن آدابها الدينية السابقة دون أن تتمكن من أن تخرج عن نفسها أي نظام أخلاقي آخر مهما كان نظريا... وإذ كان الغربي يفتقر إلى كل توجيه ديني صادق: فإنه لا يستطيع أن يفيد أدبيا من ضياء المعرفة الذي تسكبه علومه -وهي لا شك عظيمة - فعليه يمكن أن تنطبق كلمات القرآن:

---

١) مراد هوفمان، **الإسلام كبديل**، ترجمة غريب محمد غريب، مكتبة العبيكان، الطبعة الثانية، ١٤١٨، ص ٢٩.

*) له مؤلفات قيمة عن الإسلام وخصوصا ترجمته أو نقول تفسيره القيم للقرآن الكريم في ثلاث مجلدات باللغة الإنجليزية ترجم إلى لغات أخرى أيضا من ميزات ترجمته هذا - رغما من بعض ملاحظاتنا على تفسيره لبعض الآيات - أنه أجاد استعمال رصيده الثقافي المعاصر في تفسيره وله تحقيقات جدية هامة في تفسير كثير من الآيات لا يستغني عنه باحث القرآن.

"مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حولـــه ذهـــب الله بنورهـــم وتركهم في ظلمات لا يبصرون"[1]

ويقول في محل آخر: " لقد كان العالم الذي كنت أعيش أنا فيه - كل ذلك العالم - يترنح[2] بسبب من فقدان أي اتفاق على ما هو خير وما هو شر روحيا وبالتالي اجتماعيا واقتصاديا أيضا. إنني لم أكن أؤمن فعلا بأن الإنسان الفرد كان بحاجة إلى الخلاص، ولكنني كنت أؤمن فعلا بأن المجتمع الحديث كان بحاجة إلى الخلاص لقد شعرت، أكثر مـن أي وقت مضـى، بـأن عصرنـا هـذا كـان بحاجـة إلى أسـاس أيديولوجـي لعقـد اجتماعي جديد: بحاجة إلى إيمان يجعلنا نفهم بطلان الرقي المادي من أجل الرقي نفسه - ومع ذلك يعطي الحياة الدنيا حقها، إيمان يبين لنا كيف نقيم توازنا بين حاجاتنا الروحية والجسدية وبذلك ينقذنـا مـن الهلاك الذي نندفع إليه برعونة وتهور[3]."[4]

في هذه الاعترافات والإشارات التي اقتبسناها من الغربيين أنفسهم كفاية لمن اعتبر.

---

١) محمد أسد، **الطريق إلى الإسلام**، ص ٢٣٦.

٢) يترنح: يتمايل سكرا أو غيره.

٣) الرعونة: الحمق والتهور الوقوع في الأمر بقلة مبالاة.

٤) المصدر السابق، ص ٢٤٦. ما ذا ترى يكتب محمد أسد عـن الغرب لو كـان حيا إلى هـذا الحين ورأى مدى الافتضاح الغربي في حقوق الإنسان تجاه حروب بوسن وكوسـوفا والشيشان؟ وما ذا ترا ه يقول لو رأى تلك الأرقام الهائلة عن كـثرة الانتحارات وانتشار المخدرات وفشو الأمراض النفسية في الغرب ؟

٢- ازدياد القلق النفسي و فشوّ الأمراض النفسية

لعل من أبرز مظاهر الخواء الروحي الذي تبثه الحضارة المعاصرة أينما حلت هو ازدياد التوتر العصبي والقلق الروحي وكثرة المشاكل والأمراض النفسية لدى من يرتضعون من ألبانها وينتعشون بأنفاسها. وبطبيعة الحال هذا هو الذي يؤدي غالبا إلى استعمال المسكرات والمخدرات وذيوعها بين المجتمع وينتهي الأمر بالانتحار فكما أن تحمل الإنسان للجوع والعطش إنما هو إلى أجل مسمى إلى حيث ينفد الجسد ما لديها من الطاقة المخفية فكذلك تحمل الإنسان للخواء الروحي أيضا إلى زمن محدود ثم ينتهي الأمر إما باستعمال تلك الأمور التي تنسيه ذلك الخواء ولو فترة قصيرة كالكحول والمخدرات وأما إلى الخلل والشذوذ في الحركات والسلوك (أي المرض النفسي الذي يبرز آثارها في اختلال الحركات والسلوكيات) وإما إلى السعي في القضاء على حياته كي يتخلص مما يعانيه من الشقاء و الألم الروحي.

وكل هذه السلبيات مما ترى بكثرة في تلك الأماكن التي ثبتت فيها عقلية الحضارة الغربية أو جزء من ثقافتها أفليس من الغريب المؤسف جدا أنه انتحر في قرية صغيرة من قرى ماردين في جنوب شرق آناضول بتركيا (كانت مبتلاة إلى حد كبير بالتلفاز) ضمن عام واحد سبعة أشخاص مع أننا نعلم أن الانتحار ما كان موجودا في تاريخها قبل.

هذه الأرقام التالية من أصدق الشهداء على ما تتسم به الحضارة المعاصرة من خواء روحي هائل يسبب الكثير من الأمراض النفسية

والاضطرابات الروحية: في الاتحاد الأمريكي يتداوى أربعة أشخاص من كل ألف في عيادات الأمراض النفسية. وفي منطقة نويورك يرتفع إلى خمس من كل ألف. وكذلك يشغل مرضى الأمراض النفسية في جميع مستشفيات الاتحاد الأمريكي أكثر من نصف المرضى المنومين. وحسب تقرير قدمه مؤسسة الصحة الأمريكية عام ١٩٦٨ أجري في الاتحاد الأمريكي أسئلة استطلاع رأي عام على ١١١ مليون شخص مما بين ١٩ و ٧٩ عاما من العمر فرؤي أن واحدا من كل خمسة يعانى بعض الأزمات النفسية.

وبعد عشرة أعوام مضت على هذا التقرير أسس في أيلول عام ١٩٧٧ لجنة الصحة النفسية بأمر من الرئيس الأمريكي فرؤي أن هذه المشاكل النفسية في المجتمع الأمريكي أخطر بكثير مما كان يخمن لأنه شوهد أن ربع السكان قلق جدا من تلك المشاكل النفسية.

وثبت في دراسة ميدانية أجراها معهد صحة النفس الوطنية في أمريكا عام ١٩٧٧ أن أكثر من ٣١،٩ مليون شخص أمريكي يتداوى من المشاكل الروحية والقلق والاضطرابات النفسية وأن ٨ ملايين طفل من ٥٤ مليون محتاج إلى المعونة بسبب الاختلالات النفسية.[١]

---

١) نقلنا كل هذه الأرقام من كتاب عاليا عزت بيغوفتش، **الإسلام بين الشرق والغرب**، ترجمة صالح شعبان التركية، نشر دار النهر، إستانبول بلا تاريخ، ص ٩٨ ومن هامش مكتوب في نفس الصفحة.

٣ - انتشار المخدرات والمسكرات

ومن أهم تلك الظواهر التي نجمت عن الفراغ الروحي لدى الكثير من أبناء الحضارة المعاصرة كثرة انتشار المخدرات والمسكرات. فكما قررنا آنفا أن الإنسان إذا ما كلف أن يحمل روحه ما ينوء بحمله آل أمره إلى أن يقع في تدهور وهبوط نفسي وقلق دائم يحب أن ينقذ نفسه من آلامها مهما كان الثمن غاليا فلذا لا يرى المناص إلا في الالتجاء إلى ما يخدر به وعيه ويغيب به شعوره وعقله، فسبب تعاطي المخدرات والمسكرات إما النوء بعبء الحياة بحيث لا يستطيع حملها وليس لديه من أي ملجأ معنوي آخر يلتجئ به فيطمئن به باله أو يجد به العزاء والسلوان وإما الخواء الروحي الذي يسبب القلق والضجر والسآمة من الحياة وأحداثها - هذان الأمران هما السببان الرئيسان لتوجه غالب الناس إلى تناول المسكرات والمخدرات- وإما التفكه والتلهي وهو في ديارنا إنما يكون سببا عند الطبقات الأرستقراطية والأثرياء الذين ضعف الوازع الإسلامي فيهم أو ما بقي أصلا.

إذا لوحظ هذه النقاط علم بسهولة سبب فشو المخدرات في المجتمعات الغربية أو من تتجه اتجاهها من بعض المجتمعات المسلمة وهو - باختصار- فشو الخواء الروحي الناتج من تأسسها على الوضعية والمادية وثقل أحمال الحياة ومشاكلها المسببة لكثرة القلاقل والسآمة والاضطرابات النفسية والتفكه والتلهي الناشئين عن فراغ الحياة بمعنى

الكلمة عندهم. ومهما كان الأمر نجد أن عدد المخدرين من أبناء الحضارة المعاصرة بلغ إلى أرقام هائلة :

ففي أمريكا يوجد لعشرة ملايين إنسان على الأقل مشاكل كحولية وحسب التقرير الذي سجله شرطة نيف يورك (Newyork) إن عدد الذين يستعملون الهيروين وسائر المخدرات القوية التأثير لعام ١٩٦٣ أكثر من ثلاث وعشرين ألف شاب هؤلاء سجلوا أنفسهم على الطريقة الرسمية.[١]

إن دراسة إخصائي النفس في الاتحاد السوفياتي **ن. هوداكوف (N.Hodakow)** تكشف عن انتشار رهيب للكحول في البلاد المتحضرة بعد الحرب العالمية الثانية فقد ازداد استهلاك الكحول في العالم ضعفين من عام ١٩٤٠ إلى ١٩٦٠ وازداد المعدل ٢,٥ إلى عام ١٩٦٥ ، وبنسبة ٤,٣ إلى عام ١٩٧٠ ، و بنسبة ٥,٥ إلى عام ١٩٧٣. وينكشف هنا شيء آخر وهو انتشار الكحول بين الشباب و النساء أيضا : فحسب الأرقام التي أعطتها جمعية محبي الخير للإنجليز (The Offered Help) يوجد في بريطانيا أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ شخص كحولي. وكل واحد من اثنين من هؤلاء يذهب إلى مستشفى الأمراض النفسية ، وواحد من كل ثلاثة منهم مرشح للانتحار. وفي استهلاك الكحول فرنسا تحوز الدرجة الأولى ثم تتلوها إيطاليا ثم الاتحاد السوفياتي* وأما الموت بالأحداث التي

---

١) عاليا، المصدر السابق، ص ٩٦.

*) حينما قبسنا هذه السطور كان الاتحاد السوفياتي أثرا بعد عين ولكن حفاظا على الموجود في الأصل كتبنا نفس الشيء.

نشئت من الكحول فبرلين الغربي في ألمانيا تحوز الدرجة الأولي لأنه يقع لكل ١٠٠,٠٠٠ شخص كحولي ٤٤,٤ حادثة موت ثم بعدها فرنسا بنسبة ٣٥ ثم النمسا بنسبة ٣٠. (هذه المعلومات راجعة لعام ١٩٧١)[١] نكتفي بالمذكور من الأرقام القديمة التي ازدادت اليوم أضعافا مضاعفة ففيها عبرة لمن اعتبر.

ومن كثرة انتشار المخدرات تكونت تلك المؤسسة أو الجمعية الرهيبة في العالم المافيا فبلغت إلى درجة يحسب لها حسابها كثير من الدول القوية وهو بلاء آخر سلط على العالم المعاصر بسبب عصيانه وطغيانه.

٤- كثرة الجرائم والانتحارات

هذا الخواء الروحي الذي يعاني منه إنسان الغرب الكثير بينما يسبب من جانب تلك الشقاوة الروحية والتعاسة العميقة التي أثرت في أعماق إنسانيتهم تراه من جانب آخر سبب كثيرا من الأمراض والمشاكل الاجتماعية أيضا غير انتشار المسكرات والمخدرات كما ذكرنا من فشوّ الجرائم البشعة وكثرة انتشار الانتحارات والاغتيالات فيما بين إنسان الغرب وهذه الأرقام والإحصاآت التالية رغما من أنها قديمة أخلقها الزمن (لأن الغرب تقدمت في هذه الأمور وازدادت أرقامها أكثر وأكثر) فإنها تعطينا فكرة كافية عن الحضارة الغربية وما أتت به للإنسانية من الدمار والبوار:

---

١) بيغوفتش، **الإسلام بين الشرق والغرب**، ص. ٩٥.

١ - يرتكب من أبشع الجرائم كل سنة خمس ملايين جريمة في الاتحاد الأمريكي الذي هو من أغنى بلاد العالم كما أن نسبة ارتكاب الجرائم العظيمة ازدادت لفترة ١٩٧٠-١٩٦٠ مائة وثمانية وسبعون بالمائة، وفي تلك البلاد لفترة ١٩٦٤ يعتدي على النساء في كل خمس وعشرين دقيقة مرة، وفي كل خمس دقائق يرتكب غصب، وفي كل ثانية يسرق سيارة، .كل هذه الأرقام حسب التقرير السنوي الذي ضبطه المخابرات الأمريكية.[١]

٢- إن ما يجدر أن يلفت نظر العالم أجمع ويسترعى انتباههم قاطبة هو الازدياد المخوف المفزع في القتل والجرائم في تلك الدول المتمدنة التي رشحت نفسها لسيادة العالم وقيادته فمثلا كان يقع في عام ١٩٥١ لكل ٣,١ نسمة قتل بينما ترى أن تلك النسبة ارتفعت لعام ١٩٦٠ إلى خمسة قتلات وفي عام ١٩٦٧ إلى تسعة قتلات يعنى ازدادت نسبة القتل في الاتحاد الأمريكي ضمن ستة عشر عاما ثلاثة أضعاف.[٢] وفي ألمانيا الفيدرالية بينما كان عدد الجرائم لعام ١٩٦٦ مليونين ارتفع العدد لعام ١٩٧٠ أي ضمن أربع سنوات فقط إلى ٢٤١٣٠٠٠ جريمة

---

١) المصدر السابق، ص. ٩٣.

١) راجع المصدر السابق وانظر حول ما تعانيه الغرب والاتحاد الأمريكى من المخدرات

Roger Garaudy **Coküün ?ncüsü,** Türkçesi Cemal n, Nehir yay. Ýst. 1997, s. 35-36.

٢) المصدر السابق ص. ٩٤.

وفي فرنسا ازداد وقائع السرقة ضمن عشرة أعوام من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٦ بنسبة ١٧٧ بالمائة.[١]

وحينما كتبت هذه الأرقام كنت أستاذا زائرا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٢٠/٢٠٠٠ بالرياض فبحثت عن شيء من إحصائية قضايا القتل فقط بمنطقة الرياض التي ينوف عدد سكانها على خمسة ملايين كي أتيح للقارئ مقارنة ما بين هذه الحياة الرهيبة في الغرب وبين ما يعيشه المسلمون فوجدتها كما يلي حسبما ضبطه الكتاب الإحصائي الثاني والعشرون لوزارة العدل عام ١٤١٨ : مجموع قضايا القتل في جميع محاكم منطقة الرياض وهي اثنان وعشرون محكمة ست وسبعون قضية فقط لعام ١٤١٨/١٩٩٨. وقضايا السرقة المنظورة أمام محكمة الرياض الكبرى لنفس العام ثمان وخمسون قضية.

٣- دولة السويد -التي تبوأت الدرجة الأولى في كثير من مجالات تنظيم الحياة الاجتماعية وهي أكثرها تمسكا بمبادئ الديمقراطية كما أنها من أغنى دول العالم وأكثرها استثمارا كاملا للعمل ومضى عليها ١٥٠ عاما وهي تعيش في أمن وسلام - ضربت الرقم القياسي في الانتحارات واستعمال المخدرات وكثرة ذوى الأمراض الروحية إلى أن ألجئ برلمان السويد إلى مذاكرة قضية ازدياد عدد ذوي الأمراض الروحية في البرلمان. وعدد الانتحار في عام ١٩٦٧ كان ١٧٠٢ انتحارا.[٢]

---

١) المصدر السابق.

٢) المصدر السابق، ص ٩٨.

٤- كما يأخذ العجب منا كل مأخذ حينما نقرأ هذا التقرير الذي نشره منظمة الصحة العالمية عام ١٩٦٨ حيث بين التقرير حول حادثة الانتحار أن ألمانيا الفدرالية والنمسا وكندا ودانيماركا وفينلانديا ومجاريا والسويد وسويسرا تحوز الدرجة الأولى في الانتحار، ففي هذه البلاد الانتحار هو السبب الثالث للموت بعد مرض القلب والسرطان.[١]

٥- ظاهرة الانتحار في الغرب لا ترى بين العاديين من أبناء الشعب فقط بل يرى انتشاره بين كثير من مشاهيرهم أيضا فهذا يقدم مؤشرا ذا أهمية خاصة يدل على حال اليأس والإحباط والقلق والخواء الروحي الذي يتردى فيه كثير من الناس الغربيين وحتى قسم كبير من مشاهيرهم أيضا :

في سنة ١٩٤٢ انتحر الروائي الكبير **ستيفان زفايج** في البرازيل في إحدى ليالي الكرنفال إذ تناول السم مع زوجته وهذه الجملة التي كتبها في إحدى قصصه الأخيرة يدل على مدى الهبوط الذي وقع فيه وبه تردى: "إن العالم الذي نعيش فيه لم يستطع أن يقدم لنا الشيء الكثير في الوقت نفسه الذي لن نستطيع فيه المشاركة في تغيير أي شيء، إننا لا نعدو أن نكون مجرد أشباح وذكريات"،

وفي سنة ١٩٤٩ انتحر الأديب الألماني **كلاوس مان** في مدينة كان الفرنسية،

---

١) المصدر السابق، ص. ٩٨.

وفي سنة ١٩٥٠ انتحر الأديب الإيطالي **سينزر بافيزه** في مدينة تورنتو بعد أن وصل إلى قمة الأدب الإيطالي إثر نشر روايته " مهنة الحياة" التي تفوح منها رائحة الموت والانتحار،

وفي سنة ١٩٦١ اهتز العالم لانتحار الأديب الأمريكي الشهير **أرنست همنجواي** الذي اختار أن يضع نهاية حياته بيده بعد أن بلغ من الشهرة الأدبية داخل أمريكا وخارجها ما يجعله في مصاف الأدباء العالميين،

انتحر عام ١٩٧١ الكاتب المشهور **ياسوناراي قاواباتا** الذي فاز بجائزة نوبل للأدب العالمية لعام ١٩٦٨،[١]

وفي يوم افتتاح معرض الكتاب الدولي في مدينة فرانكفورت سنة ١٩٧٨ انتحر الكاتب الفرنسي **جان إيمري** الذي التزم طوال حياته بأدب الموت مقتفيا أثر ملهمه الفكري **هاينريش فونكلايست** الذي انتحر سنة ١٨١١،

وفي سنة ١٩٨٠ بالغ الشاعر الألماني الدكتور **هانز باير** في الاحتفال بانتحاره حيث عمد في ذكرى ميلاده الحادية والستين إلى تناول كمية كبيرة من الحبوب المنومة بعد أن ارتدى حلته الجديدة، ونثر الزهور على سريره الذي استقبل عليه الموت،

---

١) المصدر السابق، ص ١٠٣.

وفي سنة ١٩٨٣ دخل خادم الكاتب البريطاني المعروف (آرثر كوستلر) غرفة جلوس سيده فوجده جالسا على أريكته التي كان يطالع فيها وبجانبه زوجته، وكان الاثنان ميتين بعد أن عمدا إلى الانتحار.[١]

والأعجب الأغرب أنه ترى الأدلة العديدة التي تحوي وصفات عديدة للانتحار بدأت تنتشر في أوربا وأمريكا بمختلف اللغات مع انتشار جمعيات تشجيع الانتحار التي زاد عددها على ثماني عشر جمعية.[٢]

حقق دولة السويد ازديادا هائلا في مجالين فيه عبرة لمن اعتبر:

أ- حقق رابع معدل في الإنتاج الوطني الخام في العالم،

ب- حقق أول نسبة في الانتحار لدى الشباب ما بين الخامسة عشر والخامسة عشرين سنة في عام ١٩٩٢.[٣]

ويلاحظ المراقبون لأحوال المجتمعات أن السويد وفرنسا وألمانيا تأتي في مقدمة بلاد العالم من حيث عدد المنتحرين ففي فرنسا وحدها انتحر عام ١٩٩٢ أحد عشر ألفا.[٤] كما أن الانتحار هو السبب الرئيس الثالث للموت بعد مرض القلب والسرطان للذين أعمارهم بين ١٥ و

---

١) حيدر عبد الكريم الغدير، **المسلمون والبديل الحضاري سلسلة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية ١٤١٢-١٩٩٢، ص ٢٣-٢٤ مع تصرف قليل.**

٢) نفس المصدر

٣) أحمد القديدي، **الإسلام وصراع الحضارات**، سلسلة كتاب الأمة، الطبعة الأولى، قطر ١٤١٥، ص ١٠٧.

٤) المصدر السابق، ص ٨٩.

٤٥ عاما في كل من ألمانيا والنمسا وكندا ودانيماركا وفينلانديا وبلاد المجر وسويسرا والسويد.[١]

ولا يغيبن عنا أن المجتمعات الشرقية من أمثال اليابان والصين وغيرها مهما ازدادت احتكاكها و مداناتها بالغرب في أخذ قيمها ومعالمها الحضارية ازداد فيها أمثال تلك المشاكل التي يعاني الغرب منها من كثرة الجرائم وذيوع الانتحارات ولكن هنالك بعض الأمور يلزم أن لا يغيب عن بالنا:

فأولا إن دخل الفرد في بعض من تلك البلاد (كالصين) ومستوى رفاهية الفرد فيها لم يبلغ كما لدى المجتمعات الغربية مستوى من الشبع يحس المرء فيها بالجوع والفراغ الروحي فمادام المرء مشغولا فكره وعقله بحاجات البدن من مأكل وملبس ومشرب وسكنى فقلما يجد الزمن الكافي للتفكير في الحاجات الروحية أو قلما يحس بالفراغ الروحي.

وثانيا إن تخلي بعض تلك البلاد من القيم الروحية والمعنوية لم يبلغ بعد مبلغ بلاد الغرب فأمثال الكونفوشستية و البوذية والبرهمانية والطاوية والزرادشتية والهندوكية والشنتورية من ديانات الشرق الأقصى وإن كانت باطلة لكن المرء يجد فيها بعض السلوان فيسلي بها بعض الشيء روحه ويملأ بعضا من فراغه بها فتعرقله تلك التسليات وإن كانت باطلة عن الإقدام على الانتحار وأمثاله،

---

١) بغوفيش، الإسلام بين الشرق والغرب، ص ٩٨.

وثالثا إن بعض تلك البلاد لم يصل بعد مستوى بلاد الغرب في تلك الدرجة المرموقة في الرفاهية والتطورات التكنولوجية وبصفة عامة في المستوى الحضاري فلا تزال تبعا للغرب في كثير من أمورهم فالأنظار متجهة إلى الغرب أكثر وارتباط الناس بها أزيد، كما أنها أكثر انفتاحا من غيرها أيضا، فالوصول إلى بعض المعلومات عن المجتمعات الغربية أيسر فلذا علمنا بها وبما يجري في ساحتها أكثر وأوسع.

ورابعا إن الغرب تتبنى هذه الحضارة وتعتز بها وتضيف إلى نفسها جميع محاسنها فإضافة مساوئها أيضا إليها أعدل وأوفق.

مع أن هناك تثبيتا رائعا لرئيس البوسنة السيد **عاليا عزت بغوفيش**:

"فمذ عام ١٨٩٥ انتحر في اليابان من بين كتاب القصص الرومانسية ثلاثة عشر كاتبا وظهور هذا الحدث المخوف في ثقافة اليابان يصادف الوقت الذي أخذت حضارة الغرب وعقليتها المادية تتسرب فيه إلى تقاليد اليابان المحافظة"[1]

ومما لا تكاد تصدقه تجاه ذلك الحدث المنتشر انتشارا هائلا في الأوساط الغربية ومن على شاكلتها أني بحثت عن إحصائيات الانتحار في منطقة الرياض فأفادني أحد من قضاة محكمة الرياض الكبرى أن الانتحار في المملكة شيء نادر جدا وقال إن المجتمع السعودي ما تعارف مع الانتحار إلى عام ١٤١٦/١٩٩٧ الهجري وضمن هذه السنوات الأربع التي تعارف المجتمع مع الانتحار بواسطة التلفاز أو الجاليات الغير

---

١) عزت بغوفيتش، المصدر السابق، ص ١٠٣.

المسلمة التي يشتغلن فيها لم يقع في طول المملكة وعرضها سوى ثلاث أو أربع انتحارات فقط واحد منها كان غير مسلم وواحد كان مريضا نفسيا. ومما يصدق ما قاله القاضي الفاضل ما عشته أنا بنفسي طول عمري الذي ينوف الآن على اثنين وأربعين عاما وهو أني لم أصادف إلى اليوم ولا انتحارا واحدا في الأوساط التي عشت وأعيش فيها المتمسكة بالإسلام - قليلا أو كثيرا- لا في القرى ولا في المدن الذي مر فيها أيام عمري في مناطق الشرق وشرق الجنوب للأناضول بتركيا.فالانتحار ما كان معروفا في أوساطي المسلمة التي أعيش فيها أيضا. وهذا من فضل الله بالإسلام علينا فلنحمد الله كثيرا.

والسبب الرئيس في ذلك هو ما يتمتع به المسلمون من عقيدة التوحيد والآخرة أولا ، وما أمر به الإسلام من الصبر على الشدائد وتحمل المشقات والنهي عن الجزع منهما ثانيا ، وما وعد به من الأجر الجزيل على صبر المصيبات وجميع المضايقات ثالثا ، وحرمة الانتحار في الإسلام باتا وعده من الكبائر رابعا ، يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في حديثين رواهما مسلم : **"من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا. ومن شرب سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ومن تردى من جبل وقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا."، "من حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذبا فهو كما قال ومن قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيمة..."**[1]

---

١) مسلم، كتاب الإيمان/٤٧.

فهل ترى أحدا يؤمن بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يحاول أن ينتحر وهو صحيح سليم؟

ب- القسوة المميتة

إن الرحمة والشفقة قد ضاعت لحد مرعب فيما بين بني الإنسان الذين تحدد معالم الحضارة الغربية حياتهم لأن أهم الألوان السائدة على حياة أبناء الحضارة المعاصرة هو الرأسمالية وبدورها الغير اليسير في تشكيل عقليات عامة الناس كان أكثر ما يتحلى غالب أفراد شعوب الغرب به (!) هو البراجمتية السيئة أي النفعية وحب الذات لا غير، ومن أدل الدلائل على مدى تلك القسوة التي يتمتع بها ذلك الروح الغربي:

أولا ما أوجده الغرب واخترعه من أسلحة الإبادة الجماعية من القنابل، إلى المدفعيات الثقيلة، إلى الصواريخ، إلى الأسلحة الكيميائية، إلى الأسلحة البيولوجية، إلى القنابل الهيدروجنية والذرية أو بصفة عامة الأسلحة النووية (التي كل منها أشد وأخبث من الآخر). فلو كان لديها أدنى مرحمة بالإنسانية أو بذوات الحياة لما تسابقت مع غيرها في ذلك السبيل، فمثلا كيف يتصور أن يصنع أو يحدث إنسان أو جهة أو حكومة يوجد لديها أي شيء من المرحمة والرأفة أمثال تلك الأسلحة البيولوجية التي تنشر الجراثيم الفتاكة التي لا تعرف لا صبيا

بريئا ولا شيخا نحيفا ولا أي أحد آخر؟ مهما كان بريئا نعم إنه حضارة الغرب تصنع هذا وأدهى وأمرّ!

ثانيا تلك الأموات العظيمة والمجازر البشعة التي تجري على ساحتها وبأيدي البعض من خلص أبنائها وعلى مرأى ومسمع من البعض الآخر من أبنائها فمثلا قتل في الحرب العالمية الأولى ثلاثون مليون، وفي الحرب العالمية الثانية سبعون مليون نسمة، كما أن فاتورة الاحتلال البلشفي ودوام الشيوعية -التي هي من أشأم أولاد الحضارة الغربية- في الاتحاد السوفياتي في الضحايا البشرية خمس وستون مليونا، كل هذا في الربعين المتوسطين من هذا العصر وأما في الربع الأخير أو قل في العقد الأخير من هذا القرن فما جرى على ساحة بلاد الأفغان وما جرى في قلب أوربا في البوسنة والهرسك وفي كوسوفا وما يجري حاليا في الشيشان فمن أبشع جرائم البشرية المتقززة[1] التي قلما رآها الإنسانية إلا في مثل الحربين العالميين مما يديرها عقلية الحضارة الغربية. قتل في حرب بوسنة بأيدي الجلادين الصربيين بوسنية أكثر من ثمانية عشر ألف صبي كما انتهك عرض ثمانية وثلاثين ألف امرأة شيشانية وكما قتل لحد الآن- حسبما نشر على طريق الانترت وأذيع عبر وكالات الأنباء العالمية- من شعب الشيشان القليلة بأيدي الروس التي تحاول إبادة ذلك الشعب بكامله على مرأى ومسمع من جميع العالم نحو من عشرين ألف نسمة وانتهك أعراض عشرين ألف امرأة

---

١) المتقززة: التي يعفاه الطبع ويأباه.

شيشانية، فلذا يسمي هذا العصر أحد من خلص أبنائها وهو مستشار الرئيس الأمريكي السابق **جيمي كارتر** في البيت الأبيض **برزنسكي**: **عصر الموت الأكبر**.

هذا عدا تلك المجازر الجماعية التي جرت في كل من بوسنا وكوسوفا والشيشان والجزائر والبلاد الأفريقية الأخرى وعدا ما كان يجري في مخيمات الأسرى البوسنيين والكوسوفيين والشيشانيين من تلك التعذيبات التي لا يستطيع إنسان بقي في قلبه صبابة من الرحمة أن يتفرج عليها دعك من فعلها. لكنه هو الغرب الذي أقفر وأجدب أرضها من الرحمة والشفقة منذ أمد بعيد!

ملكنا فكان العدل منا سجية ❖ فلما ملكتم سال بالدم أبطح

ولا عجب هذا التفاوت بيننا ❖ فكل إناء بالذي فيه ينضح

فيا ترى! بالله عليك! أليس كل هؤلاء الأمور من أدل الدلائل على ما تطبعت به الحضارة الغربية من القسوة والوحشة والعنف والشدة من جراء خلوها من جميع معاني الرحمة والرأفة؟

ج- الحرص والجشع البالغ

إن الحرص الزائد على تجميع ثروات الأموال ثم الوصول إلى قدر أزيد من ملذات الحياة والتمتع بزخارفها هو المحدد لاتجاه الغالبية العظمى من الناس الذين ارتضعوا من ثدي تلك الحضارة - سواء كانوا غربيين أم لا - فصار الكثير من الناس الذين نفخ فيهم روح الحضارة

الغربية هنا وهناك لا يعرف في سبيل الاستحصال على المزيد من الأموال واللذائذ لا ضابطا دينيا ولا قيما أخلاقية ولا مانعا فضائليا ويضحي في ذلك السبيل بكل نفس ونفيس لأن أبناء تلك الحضارة الإنسانية(!) يرون أن جميع فلسفات الحياة وقيمها مبنية على حب "أنا" وإيثاره على كل شيء، فلذا ترى المعاملات الربوية ومؤسساتها هي التي تشكل صلب الحياة الاقتصادية حتى صاروا بحيث أن الكثير منهم يعتقد أنه لا يمكن أن ينجح أي نظام اقتصادي بدون الربا والبنوك وانطلاقا من ذلك الرأي الخاطئ الآثم انتشر الربا في بعض من دول العالم الثالث اتنشارا غير متزن ولا طبيعي بحيث صار يهدد نظام وأمن البلد بأجمعه بما تأتي الربا به من تضخم بالغ وعلى سبيل المثال إن مدفوع تركيا السنوي للربا يبلغ عشرة مليار دولار أمريكي ومعنى هذا أن تركيا يعيش كل عام نوعا من تلك الزلزلة الكبرى التي عاشها عام ١٩٩٩ لأن جميع خسائر تلك الزلزلة قدر باثني عشر مليار دولار أمريكي.

كما ترى كأثر لهذا الحرص والجشع البالغ والخواء الروحي الذي مر بنا انتشار القمار أيضا في المجتمعات الغربية بصورة رهيبة: فأكبر محلات المقامرة إنما هي في بلاد الغرب من مثل مونته كارلو (Monte Carlo) ودوويلله(Doville) وماكاو (Macao) ولاس ويجاس (Las Vegas) وبني في آطلانطك ستي (Atlantic City) محل للقمار يتسع ستة آلاف مقامر كما أن الفرنسيين صرفوا عام ١٩٦٥ على القمار ١١٥مليار فرنك

فرنسي وصرف الأمريكيون - حسب المعلومات المأخوذة عن حكومة أمريكا - عام ١٩٧٧ على القمار١٥ مليار دولار أمريكي.[١]

ومثلا قد حدثت جرائم سطو وقتل وعنف وتخريب بدرجة تفوق أضعافا مضاعفة ما يحصل في الأوقات العادية حينما انقطع الكهرباء في نيويورك عام ١٩٧٧ لمدة طويلة وعم الظلام وانقطع الشرطة من مهمته وغاب الأمان.[٢] فهذا الحدث له دلالات كثيرة ودروس جمة فيما يحتوي عليه الحضارة الغربية من القيم والأخلاق وفيما يتمتع به الرجل الغربي ومن كان على شاكلته من الحرص والجشع البالغ بحيث لا يعرف أية فضيلة ولا أية كرامة في سبيل إشباع نهمه، بينما لا ننسى أن في كثير من البلاد الإسلامية التي تعاني شعوبها الفقر المدقع والجوع القاتل ينقطع الكهرباء بكثرة ولفترات طويلة ولا يقع مثل تلك الأمور المخزية فيها. كما لا ننسى إن التدابير الأمنية التي تتخذ في البلاد الإسلامية إذا قورنت مع الغرب ترى أنها ضعيفة للغاية ولكن رغما من ذلك لا يقع فيها أمثال تلك الحوادث. حتى إن من الأمور العادية -وشاهدنا ذلك بأم أعيننا- في مدينة الرياض أن الناس يذهبون إلى المساجد للصلاة ويتركون دكاكينهم التي تحتوي على ملايين الريالات مفتوحة أبوابها وكثير من أموالهم الغالية على قارعة الطريق ولا يتعرض لها أحد - اللهم إلا أحد ممن تشبع بعقلية الحضارة الغربية-

---

١) نفس المصدر ، ص ٩٦.

٢) حيدر الغدير، المسلمون والبديل الحضاري، ص ٢٥.

مع أن في مدينة الرياض يوجد كثير من الفقراء الذين يحتاجون إلى ريال واحد.

كما ترى بكثرة أن الناس في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم يتركون أمتعتهم التي لها قيمة تامة عند دور المياه ويذهبون إلى الحرم النبوي ويصلون ويبقون هناك ساعات طويلة ولا يتعرض لأمتعتهم بالأخذ والاعتداء أحد من هؤلاء الجموع الغفيرة من ملايين الناس الذين أخذوا جزأ - ولو قليلا- من أدب الرسول صلى الله عليه وسلم - ونسبة الفقراء المعوزين فيهم تشكل كما كبيرا- كما جربت أنا ذلك في أمتعتي أيضا عام ١٤٢٠/١٩٩٩ فكنت أنا وأخ آخر معي وضعنا عند دور المياه الجنوبية أمتعة لنا كانت تساوي قريبا من مأتي ريال سعودية أو ربما أكثر وذهبنا للصلاة ولم نرجع إلا بعد فترة طويلة فوجدنا أمتعة كما وضعناها فلم يتعرض لها أحد، ورأيت أن إلقاء الأمتعة هناك بلا حارس ولا حافظ - اللهم إلا حارس الإيمان والعقيدة الحقة- شيء عادي وكذا رأينا نفس الشيء في الحرم المكي حيث تركت عند أحد من أبواب الحرم حقيبة لي كان فيها ما تساوي أكثر من ألف وخمسمائة ريال (أربعمائة دولار) ولم أرجع إلا بعد أكثر من ثلاث ساعات. فلم يتعرض لها أحد أيضا. فلله الحمد والمنة.

ومن الجانب الآخر ترى في الأوساط المتمسكة بالإسلام - وحتى غيرها ممن انحدروا من أصل إسلامي - أن غالب التعامل اليومي بالقرض والدين - البالغ بعضا المبالغ الكثيرة- الذي له حجم كبير في

الاقتصاد اليومي والشهري والسنوي يجري اعتمادا على التواثق الموجود في المجتمع فقط بدون كتابة أية وثيقة أو سند أو شيك أو غيرها من وسائل التوثيق عند الجهات الرسمية لاستيقانهم أن المسلم لا يأكل مال الغير ظلما وعدوانا طالما وجد عنده خشية الله سبحانه. علما منا أن حكمة الإسلام في مثل تلك المعاملات الكتابة إزاحة للنزاع من المجتمع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ...﴾[1].

نعم وكأني بالقارئ حينما يقرأ هذه السطور يرفع عقيرته من حنجرته بسخط بالغ وزجرة شديدة قائلا فإذا كان حال المسلمين على هذا المستوى من الثقة والأمن فما بالهم لا يزالون أسوء الناس حالا وما بالهم يكونون في أخريات القوم حينما يتابعون مشوارهم الحضاري في العالم المعاصر نقول نعم إن ما يقال من سوء حال المسلمين شيء صحيح ولكن ليس السبب هو الإسلام بل السبب هو تركهم للإسلام. فتراهم أنهم في أية ناحية من نواحي حياتهم تمسكوا بالإسلام الصحيح بلا إفراط ولا تفريط فاقوا في تلك الناحية غيرهم أضعافا مضاعفة كما يفيد تلك الحقيقة الرئيس الحكيم عاليا بغوتفش بقوله: **إن تاريخ كل شعب إسلامي هو في آن واحد جدول زمني للمنجزات والانتصارات الرائعة بقدر ما هو سجل للضلالات المؤسفة والهزائم المخجلة وإن جميع نجاحاتنا وهزائمنا السياسية والمعنوية هي في الحقيقة مجرد تعبير صادق عن مقدار تمسكنا**

---

١) البقرة، ٢/٢٨٢.

بالإسلام وتطبيقه في حياتنا اليومية. إن تناقص تأثير الإسلام في الحياة العملية للشعب كان يعقبه دائما انحطاط الناس والمؤسسات الاجتماعية والسياسية...فرقي المسلمين دائما مرتبط وتمسكهم بالإسلام، وتراجع وانحطاط المسلمين دائما مرتبط بإهمالهم للإسلام كذلك.[1]

(ونذكر مثالا بسيطا يمكن أن تجد فيه مقارنة طريفة بين حال المسلمين إذا عملوا بالإسلام وبينهم إذا لم يعملوا بالإسلام وكذا بينهم وبين غيرهم: فبينما أن نسبة الأمية في هذه الدول الآتية في القرن العشرين عام ١٩٠٦ كانت كما يلي: في بلغاريا وفي صربيا ٧٠ بالمائة، وفي إيطاليا ٤٨ بالمائة، وفي إسبانيا ٦٣ بالمائة، وفي بلاد المجر ٤٣ بالمائة، وفي النمسا ٣٩ بالمائة لم يكن بالأندلس في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد -يعني قبل عشرة قرون- أميون كما يقول ج. و. درابر[2] ومن جانب آخر نجد مثلا حسب التقرير الذي قدمه UNESCO Statistics of Educational Attainment and Illiteracy عن إحصائيات ما بين ١٩٤٥-١٩٧٤ أن تركيا الكمالية (بعد عشرة قرون من الأندلس) لا تزال نسبة الأمية فيها سبعين بالمائة[3] والأمَرّ من ذلك ما نشرته **بنك الدنيا** عن تركيا

---

١) عاليا عزت بغوفيتش، **البيان الإسلامي**، ترجمة أبو زيد المقرئ الإدريسي، منشورات الراية، الطبعة الأولى، الرباط ١٩٩٤، ص ١٧.

٢) نفس المصدر، ص ١٨.

٣) عبد المجيد العبد، **دور الشباب في بناء الأمة والحضارة وكيف نعنى به**، بحث نشر في أبحاث اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي باسم الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ج ٢ ص ٤٥٤.

الكمالية في تقريرها لعام ٢٠٠٠ حيث تأتي تركيا في الخدمات الصحية في الرتبة الرابعة والستين (أي يفوق عليها في ذلك المجال ثلاث وستون بلد آخر) وفي استهلاك الطاقة الكهربائية تأتي في الرتبة الخامسة والستين وفي الدخل القومي للفرد في الرتبة التاسعة والثمانين وفي التعليم تأتي في الرتبة الخامسة بعد المائة. ولزعم الكثير من العلمانيين أن الإسلام كان السبب الوحيد لتخلفهم الحضاري كان المفروض أن تتقدم إلى الأمام كثيرا في جميع تلك المجالات بعد تخليها بالعلمنة مذ عام ١٩٢٣عن المظاهر الإسلامية في أدنى الأمور وأتفهها.)

وهناك شيء آخر وهو أن من دواعي الأسف الشديد أنك ترى إلى جنب تلك الإيجابيات في أمن الأموال والدماء لدى المسلمين ترى كثيرا من العادات والأخلاق السيئة السلبية أيضا موجودة في حياة المسلمين بكثرة من غش وكذب وتملق للكبراء والأمراء ونفاق وعدم وفاء للوعود والعهود والتكالب الزائد على المنافع الدنيوية وعدم الاهتمام بحقوق الآخرين والتنافس على المنافع وإيثار النفع الذاتي على أي شيء آخر- حتى مهما كان من الأهمية والقيمة- علما منا أن هذه السلبيات لا يوجد كثير منها لدى غير المسلمين.

ولفشوّ هذه السلبيات لدى المسلمين أسباب كثيرة جديرة بالملاحظة وأرى أن من أهم تلك الأسباب أولاً ضعف الوازع الإسلامي لدى المسلمين عامة وثانيا فشو الثقافات المستوردة الأجنبية في بلاد المسلمين بواسطة أدوات الاتصال الجماعي من التلفاز إلى الجرائد

والمجلات والإنترنت وغيرها. فكثير من أبناء المسلمين حينما أدخلوا تلك الوسائل الثقافية والأدوات التوجيهية فيما بينهم لم يستطيعوا أن يميزوا غثها من سمينها ولا سقيمها من صحيحها فشربوا السم بقصد الشفاء فوقعت عبر العالم الإسلامي كله ما وقعت من الطامات الكبرى لا في الأخلاقيات فقط بل في الاعتقاديات والاجتماعيات وحتى السياسيات أيضا وصدق على تلك الأدوات الخلابة للعقول والقلوب قول القائل:

كم حسنت لذة للمرء قاتلة ❖ من حيث لم يُدر أن السم في الدسم

وثالثا إن تلك السياسات المبتورة[1] المستبدة الغاشمة في عرض بلاد العالم الإسلامي وطوله - سوى جزء قليل منه- التي لا تولي أي احترام واهتمام بشعوبه لها أكبر الأثر - حسب ظني - في تكون تلك الشخصيات الضعيفة، المنسوجة خيوطها الأخلاقية من لفيف من السلبيات الأخلاقية والأضعاف النفسية فإننا راقبنا في بعض البلاد الإسلامية التي زرناها شخصيات الناس فوجدناها ضعيفة للغاية ففي كثير من البلدان الإسلامية قلما ترى الشخصية المتكاملة المتماسكة المتينة تجاه أعاصير الأحداث والمنافع والشهوات وغيرها من السلبيات، فلا ترى ذلك على المستوى الذي تحبه من الانتشار والكثرة والقوة وتفكرنا فيما عسى أن يكون سببا في ذلك فوصلنا آخر الأمر إلى أن من أهم الأسباب في تكوّن الضعف الخلقي ومن ثم ضعف الشخصية لدى المسلمين هي نوعية السياسة القائمة فيها إلى جنب ضعف أخذهم للتربية

---

١) المبتورة: المقطوعة عن البركة، الغاشمة: الظالمة.

الإسلامية فالاستبداد السياسي وظلم رجال الأمن في بعض والجيش في بعض آخر واضطهادهم هو الذي عود الشعوب المسلمة على التخلق في سلوكياتهم بأسوأ أسباب الضعف الشخصي وأحطها وهو الرياء والنفاق والتملق والكذب. كما أن الفقر الذي أكبر سببه نوعية السياسة القائمة في بلاد المسلمين هو الذي يوجههم ويحرضهم أيضا على الاعتداء حينا وعدم الوفاء حينا آخر بحقوق الآخرين وعلى التكالب الزائد على الدنيا والتنافس على منافعها وعدم الإيثار بها وعلى الغش والخيانة اللتين تراهما في كثير من الأوساط المسلمة من أبسط الأمور وأخفها رغما من نهي الإسلام الأكيد عنهما ورفضه البات لكليهما:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]، ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[2]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[3].

غير ناسين أن البعض من هؤلاء المتجهين بالاتجاه العلماني والغربي يرغبون في أن يجعلوا الإسلام المسؤول الوحيد عن ذلك التشتت والضعف الخلقي كما أسلفنا لكن في ذلك مجانبة عن الواقع وهروب عن الحق الصادق فإن الإسلام منع عن كل هذه السيآت منعا

---

١) الأنفال، ٨/٢٧.

٢) النساء، ٤/٥٨.

٣) النساء، ٤/١٠٥.

باتا وحرمها تحريما لا يقبل التأويل والتبديل. وترى النصوص المانعة عن تلك الأمور مبثوثة بكثرة بين صفحات الكتاب والسنة حتى ألف في ذلك مئآت المجلدات من الكتب ولا ترى في المنع منه نظيرا ولا عديلا للإسلام ولم ينجح في الكفاح معها أي نظام آخر نجاح الإسلام ضدها. ولكن في هذه الدنيا المعاصرة حيث إن الأمور التربوية والتعليمية إنما يسوقها ويسوسها الدولة فإذا ما لم تهتم حكومة ما بنوعية تربية فإنها تبقى آثارها الإيجابية بين الناس ضعيفة مهما كان قدرها عاليا وفائدتها جميلة، وهذا هو ما أصيب به الإسلام، حيث لم يحظ باهتمام الدول المعاصرة ولذلك أسباب يطول شرحها.

د- الظلم الذريع والجور الفظيع

إن الظلم الظاهر الذي يدور ويحور على مسرح الأحداث في الغرب باد لكل ذي سمع وبصر وإن حاولوا أن يلبسوه على الغير بما ألبس لباس الحق بالزور وزوق ظاهره بتزاويق الحقوق والحريات والديمقراطية التي لم يبق لون من الألوان إلا وانصبغت به ولم يبق لباس من الملابس إلا وألبسته خصيصا في العالم الإسلامي، وقد سبق أن ذكرنا ما ارتكبته وحوش الصرب من الجرائم البشعة في بلاد البوسنيين والألبانيين من قتل الأبرياء وخصيصا الأطفال وانتهاك الأعراض (حيث قتل ما يقارب عشرين ألف صبي ولوثت أعراض ما يقارب أربعين ألف امرأة وكل هذا على مرأى ومسمع من الغرب المتحضر! مع أنها كانت

قادرة أن تمنع الحرب في الشهر الأول حتى الأسبوع الأول لكنها لم تمنع لأن الدم المراق دم المسلم ولا بأس في إراقة دمه حسب أخلاقيات حضارتهم!!) وأساليب التعذيب للأسرى (وكان جميع الدنيا المتحضرة تتفرج عبر شاشات التلفاز على ما كانت تجريه الصرب في مخيمات الأسرى من أساليب الوحشية والهمجية والبربرية كما أشرنا إلى ذلك سالفا) إن ما ارتكبوه من جميع تلك المجازر والجرائم التي ما غاب صورها بعد عن الذاكرات الإنسانية وإن الذي لا تزال الروس تفعله في الشيشان حتى الآن - حينما كانت هذه السطور تكتب- من قصف الأبرياء واللاجئين من جانب وما ترتكبه من جانب آخر في الأسرى من قطع آذان الناس وشدهم خلف السيارات وسوقها كي تجرهم على الأرض حتى تتقطع أجسادهم إربا إربا من أصدق الأمثلة على مدى الظلم والجور الذي يحيط بأخلاقيات وسلوكيات أبناء الحضارة الغربية. فهل من مدكر ؟

هـ - رفع القسم الكبير من القيم الأخلاقية والفضائل الإنسانية

إن أكبر دلائل الخطر العظيم الذي ينتظر إنسان الحضارة الغربية المعاصرة هو رفع القيم الأخلاقية فيما بين الناس من جراء مزيل تشبع تلك الحضارة بحب المادية العوراء و بما خلفته واستتبعته من الآثار السيئة! نعم ذاقت ـ ولا تزال تذوق ـ إنسانية القرن العشرين بما لحقها من هذه الأمور أمرّ من العذاب الأليم وغصت ـ ولا تزال تغص ـ ما هو أشد عليها من علقم الجحيم!

إن من المسلم أن أوربا قد بلغت القمة في الفن والصناعة، ولكنها ارتدت عن المثل الأخلاقية، فلم تعد تعرف شيئا من الخير للإنسانية فيما وراء حدود عالمها الذي لا يمكن فهمه إلا بلغة المادة. وما كان لحضارة أن تقوم إلا على أساس من التعادل بين الكم والكيف، بين الروح والمادة، بين الغاية والسبب، فأينما اختل هذا التعادل في جانب أوفي آخر كانت السقطة رهيبة قاصمة.[1] وكذلك كانت سقطة الإنسانية في الغرب رهيبة فاقرة! يبدي ذلك الوضع الرهيب بعض من الإحصائيات التي وضعناها بين يديك في هذه العجالة فإن جميع تلك النتائج السيئة إنما ظهرت لأن المدنية الغربية لم تستطع حتى الآن - وإلى يوم القيامة - أن تقيم توازنا بين حاجات الإنسان الجسمانية والاجتماعية وبين أشواقه الروحية. لقد تخلت عن آدابها الدينية السابقة دون أن تتمكن من أن تخرج عن نفسها أي نظام أخلاقي آخر مهما كان نظريا.[2]

هذا النداء من الرجل الألماني **هوفمان** يدل على مدى عمق الهوة[3] الأخلاقية التي يتعفر فيها الغرب ويرتبك: "إن علماء الاجتماع مثل **دافيد بلّ** يسجلون أن النجاح الاقتصادي للدول الرأسمالية قد قوض[4]

---

١)مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص ١٦٨-١٦٩.

٢)محمد أسد، **الطريق إلى الإسلام**، ص ٢٣٦.

٣) الهوة: كل فراغ.

٤) قوض: هدم أو نقض من غير هدم.

القيم الخلقية أو نسفها نسفا[1] وبالتالي اجتث قواعد السلوك والمعاملات...هذه الآلية التي تنسف ذاتها بذاتها تلقائيا تشوه الخصال الحميدة، مثل الجد وعدم التبذير والسلوك الحسن المنضبط و الصبر والإخاء والمروءة والشجاعة. ففي مجتمعات الرفاهية المسرفة والوفرة الفائضة عن الحاجة، نرى تلك الصفات الحميدة قد مسخت وشوهت أضعافا مضاعفة، أو نرى قيما جديدة وأنماط سلوك مستحدثة تحل محلها لتتلائم مع المجتمع الصناعي المادي بالفعل ... هكذا يمكن أن تنقلب... الأثرة والإخاء إلى السلوك الجمعي غير المتعقل والمتكتل في مجموعات (شلل) تؤم المراقص وحفلات موسيقي روك آندرول، وحق تقرير المصير إلى فوضى خلقية (لاخَلقية) كما لمسنا في الصيحة التي ترددت سنوات في الغرب على ألسنة الدعيات الداعيات إلى تحرير المرأة وحقها في أن تفعل بجسدها ما تشاء مثل الإجهاض..(بطني لي وحدي)، وتنقلب حرية الفكر وعدم التحيز إلى إباحية مطلقة، والتسامح والسماحة إلى حيدة القيم، والتنافس المشروع إلى جنون الاستهلاك والحرص على متاع الحياة الدنيا، والمساواة إلى التسوية الآثمة التي لا تميز بين الخبيث والطيب والغث والسمين (عملا بالشعار: المهم هو الحاصل المماثل بدلا من تكافؤ الفرص)، ورهافة الحس إلى الولولة اليائسة، و تنقلب الحيطة والحذر إلى إحجام، وتنقلب التقوى والخشية إلى الفزع والجزع، والشهوة الجسدية المشروعة إلى جنون الجنس

---

١) نسف: قلع من أصله أو دك وذرى.

واستعراض المهارات الجنسية، وينقلب السعي الجاد النشط إلى استعباد العمل واستبداده للإنسان كدحا، وتنقلب المرونة إلى عداء أعمى للتراث أو لكل ما يعد تقليديا."

"بالاختصار، وكما سجل بحق مارسيل بوازو عام ١٩٨٤ فإنه لا مفر من حدوث تلك الرزايا المنكرة إذا اختل توازن أعمدة ثلاث أو مبادئ أساسية ثلاث: العقلانية والحرية والحب... هذه الأعراض المرضية المزمنة للوظيفة غير السوية أو التوظيف السيئ المشوه مألوفة على مسرح الأحداث في كافة الدول الصناعية اليوم".[١]

وفيما ذكرنا فوق من الإحصائيات -التي هي رشفة من ديمة- أدلة كافية على مدى الظلم الذي يتصف بها الغرب من ناحية ونفي القيم الأخلاقية تماما من مجتمعاته من ناحية أخرى.

من أجل كل هؤلاء الأمور نرى أن حضارة الرجل الأبيض آذنت بالرحيل لأنها قد استنفدت أغراضها المحدودة ولم يبق لديها ما تعطيه للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ ومثل تصلح لقيادة البشر وهدايتهم إلى سعادتهم ومرد ذلك- والله أعلم- أن تلك الحضارة كانت نتاج قيم محدودة في فترة خاصة وبقعة خاصة تواجه حالات محدودة وأوضاعا خاصة ولم تكن رصيدا إنسانيا عالميا يصلح للبقاء مدة أطول من الفترة التي عاشتها. فإن حضارة الرجل الأبيض حضارة كانت مشبوعة بجميع تلك المعاني والحالات التي تعادى فطرة الإنسان وتصادم

---

١) مراد هوفمان، **الإسلام كبديل**، ص ٢٧-٢٨.

فطرة المجتمعات وتنافي سلوكيات الإنسان الطبيعية حضارة كانت مبتوتة عن الأصل الكبير.. ذلك الأصل الاعتقادي المرتبط بالإيمان بخالق هذا الكون والمرتبط بالتفسير الكلي الحقيقي الواقعي للوجود وهي لذلك لم تراع يوما ولا تراعي فيما سيأتي حاجات الإنسان الحقيقية المنبثقة من طبيعة تكوّنه واصل خلقته وحقيقة فطرته[1] النابعة من كيانه المادي والروحي. فهي غير موافية لأية من متطلباته الجمة الخلقية والروحية.[2]

٦- نوعية الحضارة التي تنتظرها الإنسانية المعاصرة

إن صرخات وعويلات الشكاوى من الحضارة المعاصرة التي تهدد الإنسانية جمعاء بل الأحياء جميعا بل كوكبنا الذي نعيش عليه بمن على ظهره بالفتك والدمار تلك الصرخات تطبق المسامع وتكاد تصم الآذان وتعمي الأبصار وليست من المسلمين فحسب بل من الغربيين أنفسهم أيضا أكثر حتى إن البعض من الغربيين أدرك هذه الحقيقة في بداية القرن العشرين يقول شبنجلر (Shpengler) : "هذا العالم مضطر إما أن يصلح من شأن نفسه وإما أنه ذاهب إلى الدمار" وقد

---

١) فكري أحمد نعمان، **النظرة الاقتصادية في الإسلام**، دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٥، ص ١٦٧ مع تصرف.

٢) انظر محمد خليل جيجك، **أضواء على سورة الملك ويليه بعض جوانب الضعف الإنساني في أربع آي من سورة العنكبوت**، دار نشر جميل، الطبعة الأولى، إسطنبول ١٩٩٤. ص ٣٨-٣٩.

أسلفنا جملة من اعترافاتهم فيما سبق. فلهذا دلالة واضحة على أن الإنسانية محتاجة إلى نسق حضاري آخر وإلى طراز آخر من الحضارة:

(وحينما نعد مواصفات تلك الحضارة التي تنتظرها الإنسانية نذكر بعضا من تلك الأمور التي ترى أن صلتها بالحضارة في الدرجة الثانية وربما في الدرجة الثالثة ولكن ذكرنا ذلك لما نرى ونسمع ونعاني من آثارها السيئة العميقة في نفوس الشعوب في كثير من دول العالم الثالث وهي إما نتاج لتلك الحضارة المعاصرة أو بتوجيه من أبنائها القائمين عليها أو المرتضعين من ثديها أو بحض ضمني منهم فلذا ذكرناها رغما من أن مناسبتها بها في الدرجة الثانية والثالثة.)

أولى مواصفات تلك الحضارة المنتظرة أن لا تكون مبنية على جماجم الغير وبدمائه وأن لا تكون العقلية السائدة فيه "كيف نستغل الآخرين لصالحنا فقط" بل يلزم أن تكون حضارة تنقذ البشرية مما أصابها من الويل والبلاء من جراء تلك الأمور الضارة بها في المحيط الفردي والجماعي معا،

حضارة تهديها إلى سبل رشدها وصوابها، وتأخذ على يدها فيما يضرها في دينها وعرضها وعقلها ومالها ونفسها ونسلها، وتفتح لها جميع وسائل الرقي المادي من جانب، وتربيها على السموّ الروحي والشهامة الأخلاقية من جانب آخر بأن تدلها على كل الفضائل الإنسانية والكمالات البشرية التي تحتاج إليها دوم حياتها في عالم المادة والمعنى من جميع معاني الخير والبر والرحمة والهدى ومن كل ما يوثق

الوشائج و الصلات الاجتماعية بين أفراد المجتمع من القيم الروحية والأخلاقية التي تجعل الفرد متفاعلا مع الجماعة متربيا علي القيم الجماعية بحيث يصير الفرد جماعة والجماعة فردا. وعبر كل ذلك تعزز جميع تلك العلاقات والوشائج و المبادئ الأخلاقية بالقيم الروحية مهتمة إلى حد كبير بالسموّ الروحي وتربيته دائما ؛

حضارة تقدم إلى الإنسانية حب الإنسان قبل حب الكلاب والهرات - فالإنسانية المنصبغة بالصبغ الغربي تعاني اليوم في حب الإنسان أعظم الأزمات حيث يرى في الأوساط التي سيطرت عليها جو الحضارة الغربية أنه يترك حب الإنسان موقعه شيئا فشيئا لحب البهائم والحيوانات من مثل الكلاب والهرات-[1] (فما أفدح خسارة الإنسانية! وما أعظم ضررها!) ؛

حضارة تنير لها السبيل إلى التحلق[2] بالمجتمع في آفاق العلم والمعرفة، فاتحة لها جميع ميادين التفكير والتأمل والاستبصار، غير حاجزة لا على جانبها المعنوي ولا على جانبها الأخلاقي، غير مهتمة بأي من الجانب الروحي فقط أو المادي فقط على حساب الآخر ؛

---

١) هل تعلم أن عدد الكلاب التي يتمتع بحبها البريطانيون يصل إلى خمسة ملايين بينما أن عدد الكلاب التي حظيت بدفء حنان وحب الأمريكيين يصل إلى خمس وأربعين مليونا!

٢) التحلق: الارتفاع.

حضارة تربي في أبنائها روح القصد والوسطية والقوام في كل الأمور[1] وتجنبهم عن الإسراف والتبذير حتى في أبسط الأمور ؛

حضارة تنمي فيهم روح المحبة والاحترام المتبادل والحفاظ على حقوق المخلوقات من الناس - سواء مؤمنوهم أو كافروهم- إلى البهائم إلى المتملكات الأخرى كل بحسبه بلا إفراط ولا تفريط ، ولا إسراف ولا تقتير ؛

حضارة ترسخ في المجتمع روح التعاون والتكافل والتآزر بحيث تجعل من المجتمع المتركب نسيجه من آلاف الخيو ط المختلفة لونا ولغة وجنسا ومستوى كيانا واحدا كل يرى بأعين الآخرين ويسمع بآذانهم ويتفكر بقلوبهم ، همّ الواحد همّ الكل ؛ وهمّ الكل همّ الواحد ؛

حضارة تطور في أبنائها روح الإيثار والتسابق نحو جميع المعالي والكمالات ؛

حضارة تجعل من السعي في تعمير الأرض واكتساب طرق المعيشة وعبادة الله الواحد الأحد شيئا واحدا ؛ شعارها عبر مجتمعاتها : "السعي عبادة والعبادة سعي" ؛

حضارة تجعل العلم والمعرفة والتفكير السليم من أولويات مجتمعاتها ترى السعي في طلب العلم من أنواع الجهاد المقدس والموت في

---

١) انظر لدور القوام والوسطية في التحضر الإسلامي عبد المجيد النجار ، مقال **الاستخلاف في فقه التحضر الإسلامي، مجلة التجديد** عدد ١ ، سنة ١٤١٧٧/ ١٩٧٧ ، ص ٩٧-١٠٢.

سبيله شهادة ؛ تفضل في منظورها الاجتماعي العلم والتعلم على كثير من أنواع العبادات ؛

حضارة تكون مجتمعها رائدا في الخير، سباقا إليه، بثاثا لجميع أنواع البر والفضيلة على جميع الأصعدة البشرية، محافظا على السلم والسلام، ساهرا على الأمن والأمان مهما حل و ارتحل ؛

حضارة قائمة على نفع الآخرين بعيدة عن النفعية الذاتية والبراجماتية البشعة والاستغلاليات الجشعة، حريصة على رعاية الكرامات والحقوق في الحدود الملائمة لفطرة الفرد والمجتمع ؛

حضارة تجعل الناس سواسية في الاستفادة من الثروات العامة في البلاد ومن إمكانيات الدولة في جميع مجاري الحياة لا يستأثر بها قوم دون آخرين مهما علا منصبهم أو سمت مكانتهم أو كبر دورهم ؛

حضارة تجعل الدولة حارسة على أمن العباد والبلاد، ساهرة على مصالح العباد ومنافعهم وخيرهم ودفع الشر والفتنة عنهم فرادى وجماعات ؛

حضارة تهتم بنشر الأخوة والمحبة فيما بين عباد الله المؤمنين والعدل والعفاف والصلاح مع الآخرين ؛

حضارة تهتم برعاية الضعفاء والشيوخ والمرضى والمصابين والمساكين والزمنى في مجتمعه وتنمي في أبنائها عقلية المعاونة معهم والاحترام لهم ؛

حضارة تضيء السبيل للبشر كي يتعامل تعاملا صالحا نافعا رشيدا مع الطبيعة والكون الذي سخره الله لعباده كي ينتفعون به على الوجه الأقوم الأصلح، لا كي يتعرف منه على طرق الإبادة الجماعية، تعاملا يزداد به عطائهم في محاولاتهم التعميرية على وجه الأرض من غير سرف ولا ترف، تعاملا يزداد به مستوى كرامتهم وإنسانيتهم... فإن الحضارات إنما تقاس معطائيتها بمدى قدرتها على تحقيق إنسانية الإنسان وتنمية مواهبه وإطلاق ملكاته ورعاية قابلياته وتحقيق وعيه بذاته وانسجامه مع الكون والحياة و الارتقاء به ليحسن القيام بدوره في البناء الحضاري الذي يكرم الإنسان به ويكرّم[1]

وكل تلك المواصفات مما نجده بلا مغالاة ولا مبالغة في تلك الحضارة القرآنية الرشيدة التي قدمت للبشرية عن طريق الوحي منذ ألف وأربعمائة سنة.

فمع أننا ندرك حق الإدراك ما اخترعته حضارة الغرب للإنسان من الآلات النافعة والوسائل الناجعة والأدوات الشارحة والإمكانيات الصالحة وما قدمته للبشرية من الآليات الوفيرة التي رفعت من شأن الإنسان إلى حد بعيد وما أتت به من المناهج العلمية والمعرفية التي فتحت أمامه آفاقا فسيحة عميقة في كثير من المجالات التفكيرية والعلمية والثقافية و المعرفية والصناعية والاجتماعية ولكن إلى جنب هذا التطور

---

١) عمر عبيد حسنة، تقديم روح الحضارة الإسلامية لابن عاشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٢، ص ١.

الهائل هناك ساحة وهي أهم الساحات لم تنجح فيها حضارة الغرب ولا يمكن أن تنجح فيها أبدا ألا وهي توازن الروح والنفس أو توازن المادة والمعنى -وقد أشرنا إلى ذلك قبل- ؛ ذلك التوازن الذي إنما به فقط يجد المرء كامل سعادته وبه فحسب يطمئن باله وينشرح صدره ؛ إن محمد أسد ينبئ عن بعض ذلك: إن الإنسان يخترع كل يوم آلات جديدة يعطي كلا منها بعض روحه كي ما تنافح في سبيل وجوده، وهي إنما تفعل كل ذلك حقا ولكنها في الوقت نفسه تأتي له كل يوم حاجات جديدة وأخطارا جديدة ومخاوف جديدة... وتضيع روحه في ضوضاء الآلة الجديدة التي تزداد مع الأيام قوة وجرأة وغرابة وتفقد الآلة غرضها الأصلي -أن تصون وتغني الحياة الإنسانية- وتتطور إلى إله قائم بذاته إلى صنم مفترس من فولاذ[1] فلهذا السير التقهقري في كيان الحضارة الغربية نصرّ على أن حضارة الإسلام الرشيدة لم تزل حضارة عالمية عديمة النظير بما امتازت به من شأن جوهري[2]، فيما تحوز وتتضمن من تلك القابلية الفذة في الجمع بين إصلاح ما ظهر من الحياة وما بطن، وفي إشباع أبنائها الشبع المادي والمعنوي، وفي الجمع بين العلم و الإيمان والكون والإنسان في الحدود الفطرية لكل منها بلا اعتداء من أي منها على الآخر. ولنخل المجال مرة أخرى لقلم محمد أسد ذلك الغربي

---

١) محمد أسد، **الطريق إلى الإسلام**، ص ٢٣٦.

٢) محمد الفاضل بن عاشور، **روح الحضارة الإسلامية**، ص ١٩ مع تصرف.

اليهودي الأصل يعبر عما فهمه من الإسلام فألجئ آخر الأمر إلى تبني الإسلام عقيدة ومنهج حياة:

"إن النظام الذي أعلنه النبي محمد صلى الله عليه وسلم في السنوات الثلاث والعشرين من رسالته لم يختص بالشؤون الروحية فحسب بل زود إطارا لكل نشاط فردي واجتماعي أيضا. إنه لم يبسط مفهوم الصلاح الفردي فحسب بل عرض أيضا مفهوم المجتمع العادل الذي يجب أن يوجده ذلك الصلاح لقد قدم مجمل المجتمع السياسي - المجمل فحسب لأن تفاصيل حياة الإنسان السياسية تتوقف على الزمن فهي لذلك عرضة للتبدل والتغير- كما قدم نظاما للحقوق الفردية والواجبات الاجتماعية، أخذ فيه بعين الاعتبار حقيقة التطور التاريخي. لقد شمل الشريعة الإسلامية الحياة من جميع وجوهها، المعنوية والجسدية، الفردية والمجتمعية، وكان لمشاكل الجسد ومشاكل العقل، ولمشاكل الجنس والاقتصاد، جنبا إلى جنب مع مشاكل الدين والعبادة مكانها الحقيقي، مكانها الصحيح (أي حلولها الصالحة) في تعاليم محمد (صلى الله عليه وسلم).[1]

إن كل تلك الطاقة العجيبة التي تملكها الحضارة الإسلامية لمسايرة الزمان والمكان إنما كان لنزولها باعتبار منابعها ومصادرها من لدن حكيم خبير مسبح عن الزمان والمكان مقدس عن التقيد بالظروف والأحوال، محيط علمه بما كان وما سيكون وما هو كائن إلى يوم القيمة.

---

١) محمد أسد، **الطريق إلى الإسلام**، ص ٢٤٣.

فالحضارة التي استمدت منابعها عن تعاليم دينه تكون حضارة فوق الزمان وفوق المكان غير مقيد بحدود الظروف والأحوال بما تحتوي عليه من القيم والتعاليم والمبادئ والغايات والوسائل والأهداف...

إن الإنسانية التي لم تفقد في ضوضاء[1] وصخوب هذه الحضارة وعيها وفهمها ملت وسئمت من الحضارة المعاصرة لخلوها وفراغها من جميع الإشباعات المعنوية وتركها الإنسان كموجود مهمل على قارعة طريق الطبيعة لا حد له ولا قيد ولا معين له ولا مغيث[2] تنهشه الأحداث والكوارث نهشا وتتقاذف به موجات الحياة العارمة من جانب إلى آخر ومن شاطئ إلى آخر فهو كما قال القائل في باب آخر:

فكيف يداري والهوى قاتل الفتى ❖ وفي كل يوم روحه يتحطم

فنرى من هنا وهناك الهتافات تعلو على الصعيد العالمي كي تصرخ وتعلن أن الإنسانية البائسة المتئنة تحت مخالب الحضارة الغربية محتاجة كأكثر ما يكون إلى الحضارة الإسلامية[3] وقد نقلنا بعضا من تلك الصراخات فيما مضى. كل هذا يجري إلى جنب ما يعقبه الغرب ضد الإسلام والمسلمين من سياسة لئيمة معادية بحيث لا يعدل العالم

---

١) الضوضاء: الصياح والجلبة.

٢) انظر لبعض مساوئ هذه الحضارة المعاصرة: محمد خليل جيجك، أضواء على سورة الملك، ص ٣٨-٣٩.

٣) انظر على سبيل المثال لا الحصر آ. تونبي كتابه السابق، ص ١٩٤-٢٠١، و جارودي الكتاب السابق، ص ٢٧، ١٥١-١٥٤ وكتاب جارودي Entegrizim Türkçe çev. Kamil Bilgin Çileçöp Pnar yay. 2ç bas. Ýst. 1993 s. 102*104.

الإسلامي بضخامة جسمه عنده جنح بعوضة. فضلا من تلك الألاعيب والمناورات المظلمة التي تدبر ضد الإسلام والمسلمين خلف الأبواب المسدودة! فهذه السياسة العدوانية ضد الشعوب المسلمة من شأنها أن تثير في الجامعة الإسلامية النخوة والحمية والحماسة لأن تتحرك وتسعى كي تؤتى ببديلها الحضاري من جديد لإنقاذ نفسها خاصة والإنسانية عامة من مخالب تلك المدنية المزخرفة الصالحة ظاهرا الغاشمة الأثيمة البالية باطنا.

تجاه هذا الواقع الذليل المرير الذي يضغط على المسلمين كثيرا وتزداد ضغوطه يوما فيوما يتحتم على المسلمين عامة وعلى علمائهم ومنوريهم و مثقفيهم خاصة أن يهتموا بشكل حثيث بكشف هوية الحضارة القرآنية وسبر أغوارها[1] من جديد كي يقدموا لهذه الإنسانية التعسة البائسة الحضارة القرآنية في ثوبها القشيب بما تجمع في روحها من عوامل التطور والتقدم والرقي المادي من جانب ومن جميع تلك الفضائل الإنسانية و المعاني السامية والكمالات الأخلاقية التي أقفرت أرض الإنسانية منها من أمد بعيد منذ أن هيمنت الحضارة الغربية على قطاعات البشر من جانب آخر.

فاستشعارا بهذه المسؤولية الضخمة ركزنا فكرتنا على نظرة القرآن الحضارية أما صورة الحضارة القرآنية من خلال آياته وأوامره

---

١) السبر: الامتحان؛ الغور: القعر من كل شيء وأقصاه؛ فسبر أغوار الشيء بمعنى محاولة فهم الأقصى منه.

ومناهيه فظاهرة باهرة لكل ذي لب له إلمام بالقرآن، غنية عن البيان لا يجهلها إلا من كان على قلوبهم أقفالها وكتب في ذلك الكثير الكثير ولله الحمد والمنة فحاولنا نحن بدورنا أن نلتقط من هنا وهناك سمة القرآن الحضارية في جانب آخر من جوانبه فرأينا أن تلك القسمة[1] الحضارية القرآنية تبرز بصورة واضحة من خلال تسمية سور القرآن بأسمائها.

ومستندنا في ذلك كما يلي: انطلاقا من أن القرآن تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه نزل هدى ورحمة لقوم يؤمنون يعلم قطعا أن أي شيء ما من القرآن لا يخلو من وجه حكمة ورحمة للمؤمنين و بشرى وهدى للمسلمين: من انتقاء الحروف و الكلمات إلى انتقاء الجمل والهيآت إلى ترتيب الجمل والكلمات إلى ترتيب المقاطع والآيات، إلى ترتيب الأجزاء والسور، إلى أسمائه، وأسماء السور، إلى جميع ما يلابسه ولكن رغما من أن وجه الحكمة ونظرة القرآن الشمولية الحضارية ظاهرة من خلال أسماء سوره ككل مجموعي متراص منضم بعضها إلى بعض في صعيد واحد لم نر من تعرض لذلك بوجه مستوعب سوى جمل قلائل أشار إليها البعض من السلف والخلف وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

وقبل الخوض في غمار ما كنا بصدده رأينا أن نلم بكلمة- ولو تكون قصيرة- حول عالمية القرآن بما فيه حضارته ورسالته وأحكامه فإن

---

١) القسمة بكسر السين وفتحها: الحسن.

لها صلة وثيقة بما نحن بصدده حيث إن عالمية القرآن وصف مغط شامل لأكثر من جانب واحد من جوانبه كما أن عالمية تلك النظرة الشمولية المستنبطة من خلال أسماء سور القرآن داخلة في عالميته العامة المطلقة فمن هنا كان لزاما علينا أن نبين عن عالميته ولو بإيجاز. علما منا أن هذا الموضوع موضوع باكر لم تدخل فيه بعد الأقلام البليغة البارعة ولم تنجز فيه بعد الإنجازات البديعة الرائعة. كما أننا بمن الله وفضله على وشك أن ننتهي من الموضوع في صورة كتاب مستقل تناول الموضوع تناولا شاملا وافيا حسب بضاعتنا المزجاة. وما هنا ليس إلا كنواة لذلك العمل. وكل ما بنا من الحسنات منه وبمنه وإحسانه، فله الحمد كما ينبغي لكريم امتنانه وعظيم سلطانه.

المبحث الثاني

عالمية القرآن عقلا ونقلا لفظا ومعنى

(حضارة ورسالة)

فقد كان القرآن أكثر شمولا وتفصيلا من الكتابين السابقين... حوى القرآن كل شيء وحوى جميع القوانين إذ أنه خاتم الكتب السماوية.

واشنجتون إير فنج

١- عالمية القرآن حضارة ورسالة

لا يغيبن عن بال القارئ أن قضية عالمية القرآن من أهم القضايا التي يتحتم اليوم على علماء المسلمين المعاصرين أن يبينوها و يذكروا وجهة الصواب فيها بالبراهين العقلية والحجج النقلية والأدلة الناصعة لأنه قد خرج في الأوساط المسلمة-في مختلف بلاد العالم الإسلامي- في هذا القرن من ينكرون عالمية القرآن بزعم تاريخانيته عدا المستشرقين. مع أننا نحن معاشر المسلمين سلفا وخلفا منذ أن بعث الله هذا الكتاب إلى يومنا هذا نعتقد جازما انطلاقا من نصوص كثيرة وأدلة ناصعة وحجج قاهرة وبراهين باهرة أن القرآن هو كتاب الله الذي خاطب به البشرية جمعاء إلى يوم القيامة بلا تقيد بزمان دون زمان أو مكان دون مكان أو جنس دون جنس أو طبقة دون طبقة ؛ خاطبهم جميعا بما يسعدهم في دنياهم وأخراهم من العقائد المقدسة التي تليق بعظمة الخالق العظيم والعبادات المعظّمة لجلال الفاطر الحكيم التي تليق بقدسه وكبريائه إلى تلك المعاني النبيلة والأحكام الرفيعة والأخلاق الفاضلة والتعاليم العالية والمبادئ السامية التي يسمو بها البشر روحا ونفسا ومادة ومعنى وفردا

ومجتمعا، ويتطور المجتمع بما تخفيه في أنفسها تلك المبادئ من الطاقات المحركة علما ومعرفة وتفكيرا وفلسفة فهو وحده القادر على تقديم بديل حضاري متضمن لأفضل الأسس لأكرم حضارة عالمية إنسانية تجاه ما ابتليت به الإنسانية من الحضارة الغربية التي لم تستطع أن تسعد الإنسان فردا وجماعة في سوى جوانب طفيفة مادية يلوكها أحناك المادة ويقيئها معدة الروح والمعنى فهي بدورها هذا لا تكفي وحدها في إسعاد البشر.(وقد أشرنا إلى جل ذلك قبل)

عالمية القرآن إذاً من أوسع القضايا القرآنية مساحة وتغطية ولكن لا يسعنا- ونحن التزمنا الإيجاز في حدود هذه الرسالة القصيرة- إلا إشارات خفيفة لطيفة إلى هذا الموضوع الهام لعل الله يقيد له في مستقبل الأيام من رجالات العلم من يعطيه حقه.

وقبل عرض موضوع عالمية القرآن باعتبار مضمونه ومحتواه نرى أن نقدم بكلمة مختصرة عن التاريخانية التي هي ساقتنا إلى تناول هذا الموضوع.

إن مسئلة تاريخانية* القرآن مسئلة طلعت في زي الحداثة بزيها المزخرف المنمق من تحت قرن شيطان الاستشراق فتلقفها مقلدوهم وعملائهم الفكرية من مثقفي المسلمين ولاكوها بألسنتهم عامدا بعضهم

---

*) إن التاريخانية نزعة فلسفية يتخذ منها فلاسفة الغرب نظرة فلسفية إلى بعض الأمور لا صلة لها مع عالمية القرآن ولكن للانبهار البالغ عند كثير من أبناء بلاد العالم الإسلامي لكل ما يهب ويدب من الغرب طبقوها على القرآن وجعلوها نظرة معاكسة لعالمية القرآن.

إلى ما تأتي به من العاقبة السيئة وغير شاعر البعض الآخر منهم بمغبتها المشؤومة ونتيجتها المزؤومة[1] التي أقلها زحزحة عقيدة بعض غير قليل من المسلمين وإضعاف ثقتهم بالقرآن -وهو الهدف الفريد الذي يسعى إليه بكدح بالغ المستشرقون وأذنابهم- لأنها لا تتوائم مع العقيدة الإسلامية الحقة لا في قليل ولا كثير فهي تتنافى مع علم الله المطلق و تتنافى مع حقيقة خلود رسالة القرآن وأحكامه مدى العصور إلى أن يرث الله الأرض و من عليها.

وأهم أهدافها التي خطها شيطان الاستشراق ضمن خطة مزورة مغطاة بحلل العلمية والموضوعية(؟!) محلاة بحلي التفكير الحر السليم (؟!) أهم أهدافها هو الإبانة - بعد زمن غير بعيد ريثما استقرت الفكرة في أوساط المسلمين- عن أن القرآن عتق مع الزمن وأبلاه كر الليالي وأخلقه مرّ العصور حيث كان كتابا تاريخانيا خاطب كتلة محدودة من البشر في قطاع خاص من التاريخ والزمن وكان في مستطاعه في تلك الأزمنة الابتدائية المحددة تقديم حلول نافعة لتلك المجتمعات الابتدائية الخاصة في ذلك القطاع الخاص. وأما بعد ما حدث ما حدث من ثورات عظيمة في معظم جوانب حياة الإنسان الفردية والاجتماعية والإدارية والسياسية والاقتصادية والفكرية وبعد ما حدث من انقلابات عجيبة في الحريات والكرامات البشرية والحدود والحقوق الإنسانية وما إليها من الجوانب فلم يبق القرآن بدوره التاريخاني قادرا على الإيفاء بتقديم

---

١) المزؤومة: المذعورة، المخوفة.

حلول فاضلة صالحة لتلك المجتمعات الراقية المتطورة في جميع جوانب حياتها! فإذاً الهدف اللئيم الأثيم لهذه الخطة الغير الرشيدة هو ما يتوقعه جميع تلك الجهات من العلمانيين والليبراليين والماسونيين والصهيونيين وأذناب الغربيين الساهرين كلهم على التخطيط العالمي لإقصاء القرآن بدوره الفعال من جميع نواحي الحياة، الهدف هو أن يجعل رسالة الإسلام والقرآن عبارة عن أمور أخلاقية وجدانية، في دائرة ضيقة لا صلة لها بتوجيه الحياة بمعناها الشمولي وتسييرها أصلا إنما هي بين المرء وربه لا غير! ودورها إنما يبرز من خلال العبادات المؤداة في المعابد فقط فإذاً المعادلة الجديدة التي اكتشفها هؤلاء عن الإسلام: "إن المساجد والمعابد لله والأسواق والبرلمان لنا" وهي شبيهة بتلك المعادلة التي عبر بها النصارى عن دينهم: "أعطوا ما لقيصر لقيصر وأعطوا ما لله لله".

وهذه الصورة الشوهاء المختلقة عن رسالة القرآن هي التي يمليها الاستعمار الغربي والتنصير العالمي والصهيونية الحاقدة على عملائها الخونة وأذنابهم المرذولة في البلاد الإسلامية كي يذيعوها عن الإسلام وتعاليمه السمحة وهي نفس كيان النصرانية التي بائت بالفشل والبوار لا في الإصلاح الجماعي فقط بل حتى في الحفاظ على وجودها الذاتي أيضا في صميم بلادها وكفى ذلا وهوانا لها ولأبنائها!

وخلال تناولنا لموضوع عالمية القرآن نقدم الاتجاه الاستدلالي على العرض المضموني فإن الناحية الاستدلالية أولى وأهم من ناحية علاقتها الوثيقة بصلب الموضوع.

٢- عالمية القرآن من الناحية الاستدلالية

تعلمنا نحن المسلمين من القرآن منهجية الاستدلال الفذة التي تفرد القرآن بتعليمها بتلك الصورة المتكاملة المنطقية. إن القرآن بدأ في أولى آياته المنزلة بغار حراء والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يعاني من برحاء الوحي حيث لم يتعود على طبيعته بعدُ بدأ يعلم الناس الاحتجاج ويرشدهم إلى الاستدلال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] ولم ينقطع القرآن عن تلك المنهجية ولم يهملها أبدا عبر جميع آياته المنزلة سواء عبر ما نزل بمكة وهو يحارب الشرك ويهدم أباطيله جمعاء ويفتح للإنسانية باب التفكير على مصراعيه ويروض العقل على التفكير والمحاكمة العقلية السديدة بحكمة رائعة وحذق فائق، ويدعو الناس إليه بإلحاح وإصرار ويصوغ للإنسان عقلية منطقية واعية من جديد، وسواء عبر ما نزل بالمدينة وهو ينشئ الحكومة الإسلامية الفتية الجديدة ويضع اللبنات الأساسية لها ويزرع مع ما سلف نزوله في القرآن المكي في أرض الإنسانية بذور تلك الحضارة الرشيدة. فالتزام القرآن الشديد بمنهجية الاستدلال يحتم علينا نحن المسلمين أن نستدل نحن أيضا على ما نطرحه من القضايا والأفكار. وهو السبيل الأقوم لحفظ العقل عن التخبط والوقوع في المهاوي والمهالك فإن العقل إذا صاحبه هدي الوحي عبر مسيرته أمن من الردى والهلاك وأما إذاما

---

١) العلق، ٩٦/١-٥.

استغنى بنفسه وانتهج طريقه وحيدا بلا دليل من الوحي وتعاليم السماء فمغبة جل أعماله التفكيرية وغيرها تكون خطيرة مهلكة لحد أكبر ولا تؤمن عواقبها السيئة كما تجد ذلك في الفلاسفة ومن انتهج نهجهم.

فالحديث عن عالمية القرآن من أهم القضايا اللاصقة بالقرآن لاسيما في عصرنا هذا فطرح القضية على عواهنها من غير استدلال واحتجاج لا يأتي بشيء يؤنس له سوى أن يكون من باب الأمنيات أو الوديات فالاهتمام بالأمر يوجب الاستدلال له من ناحيتي العقل والنقل فلنذكر القضية مستدلين عليها من كلتا الناحيتين، بينما لا ننسى أن نذكر القارئ مرة أخرى أن تناولنا لموضوع عالمية القرآن عبر هذا البحث الموجز ليس من باب استقصاء الشيء والإتيان على جميع جوانبه بل إنما هو من باب الإلمام وتزويد القارئ ببعض المعلومات التمهيدية للموضوع تنبيها وتذكيرا وتركيزا وتبكيرا. والله ولي كل خير ونعمة وهو المولي لكل توفيق وحكمة:

أ- عالمية القرآن من الناحية العقلية

الاستدلال العقلي تحرك العقل الهادف لمعرفة شيء ما وسيره في المعقولات كي يأتي ببعض الوسائل الفكرية التي يصل بها إلى ما يستهدفه من ذلك التحرك والسير أو بكلمة أخرى أكثر وضوحا هو أن يستدل العقل ببعض الأمور على معرفة شيء ما. وليس كل شيء يكون وسيلة لمعرفة كل شيء بل لكلٍ ما يقاربه ويكون له صلة به فلو

استدللت على المسائل الطبية مثلا ببعض من العلوم الاجتماعية لم تنجح وذهب سعيك سدى أو احتججت على الأمور الفقهية ببعض من المسائل البيولوجية ما حصلت على أية نتيجة طيبة شهية وذهب احتجاجك أدراج الرياح. فانطلاقا من هذا حينما نحاول أن نستدل استدلالا عقليا على عالمية القرآن نستدل ألبتة بتلك الأمور التي تدخل في عالم القرآن ولها صلة به وملابسة قوية له أما لو ذهبنا نستدل على ذلك بالأمور الفلسفية فذاك وإن رضي به بعض من المتفلسفين لكنه ليس بالأمر الذي يرضى به الكل ويطمئن إليه الجميع . فلذا آثرنا أن نستدل على القضية بما هو من عالم القرآن ونابع من ثقافته الغراء.

إن عالمية رسالة القرآن كانت معروفة منذ الفترة المكية عبر آيات كثيرة تنوف على ثلاث مائة وخمسين آية منها : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[1] فكانت مبادئه وتوجيهاته موجهة للجميع[2] : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾[3] وكانت تعاليمه وأحكامه متجهة إلى الكل : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[4] ودام بكثافة قرآنية أكثر إصرار القرآن على عالميته

---

١) الفرقان، ١/٢٥.

٢) أحمد محمد علي الإمام، **هيمنة القرآن وعالميته وخلوده**، **مجلة نهج الإسلام** –سوريا، العدد ٦٧-٦٨، ذو الحجة ١٤١٧، نيسان ١٩٩٧، ص ٥٤.

٣) النساء، ٤/٥٨.

٤) النساء، ٤/١٠٥.

عبر كلا قسميه المكي (مخاطبا غالبا ب"يا أيها الناس") والمدني (مخاطبا غالبا ب"يا أيها الذين آمنوا" كما سنذكر). أعلن القرآن ذلك ببيان مؤكد له إيقاع بالغ وإيحاآت كثيرة في شتى السياقات وبشتى المناسبات والملابسات (وسيأتي ذكر البعض منها) فلا لبس ولا غموض ولا خفاء ولا غطاء على عالمية القرآن ولكن رغما من ذلك ترى بعض الناس ينكر عالمية القرآن من خلال أحكامه فلنضبط موقف هذا المنكر حتى نكون منه على بينة من الأمر:

فالذي ينكر عالمية القرآن إما أن يكون منكرا للقرآن أو مؤمنا به. أما المنكر فللكلام معه مجال آخر وأما المؤمن به فنقول له كن صريحا جريئا لا تخادع ولا توارب[1]. فإن كنت تؤمن بالقرآن عن صدق قلب وإخلاص نية ففتش عن نفسك هل ترى أنك تكون من المؤمنين بالقرآن مع إنكارك لنصوص كثيرة منه تنوف على خمسين آية تدل على عالمية القرآن بصراحة ووضوح، وبلا لبس ولا غموض؟ ولا مسوغ لإنكارك إياها أو تأويلها تأويلا باطلا لا يرضاه الله ولا رسوله سوى أنك تحاول أن تُرضِي بذاك بعضا من سادتك في التفكير أو ترضي نفسك بقبول فكرها الذي ترى أنه الأقوم الأصوب لموافقته مع آراء العصريين. وثانيا إنك إذا أنكرت عالمية أحكام القرآن بليّ أعناق جميع تلك النصوص هل تعلم أنك تكون واحدا من اثنين إما أن تقول إن القرآن لا يتدخل في الأحكام أبدا وهو إنما بيّن العقائد وشرح شيئا من الأخلاقيات فقط فهذا

---

١) التوارب: بمعنى المواربة وهي المخاتلة والمخادعة.

أيضا فرية بلا مرية ومن بداهة البطلان بمكان لكثرة النصوص التي تبين الأحكام في القرآن حيث إن آيات الأحكام في القرآن تقارب عشرين بالمائة.

وإما أن تقول حيث رأيت أن لا مهرب من النصوص لكثرتها ووضوحها في الدلالة على عالمية القرآن، وعدم إمكان تأويلها ولي كلها، نعم إن القرآن عالمي لكن بعقائده وأخلاقياته لا بأحكامه وفقهه.

فنقول هذا الزعم أيضا لا يقل عن الأول ضعفا وسخافة وعدم استناد إلى منطق سديد وفهم رشيد لأن ما يدل على عالمية القرآن مطلق متجه إلى جميع القرآن لا إلى بعضه حتى يتيسر هذا الفرق والتمييز.

وإما أن تقبل أن في القرآن أحكاما متجهة إلى توجيه الحياة ولكن تقول غالب تلك الأحكام مضت فترتها التي كانت تعمل بها ورثى عليها الزمن وأبلاها الدهر بعد وقوع تلك التحولات العظيمة في مسيرة الحياة الإنسانية.

فنقول فحينئذ أيضا تكون واحدا من اثنين إما أن تقول: إن الله لم يعلم ما سيقع في المستقبل من تلك التحولات الجذرية في السياسة الإنسانية وما إليها, فلم يستطع أن يضع له أحكاما تسايره وتوائم مجتمعاته بل إنما وضع أحكاما لعصر النزول الذي كان يعلمه فقط.

فنقول هذا أولا جهل عظيم أسندته إلى الله تعالى يتنافى مع ألوهيته على الإطلاق تعالى الله عما تقول علوا كبيرا وثانيا مكابرة وتعام

عن جميع ما يمتلكه القرآن من معايير وقيم تصلح حكما وموجهة للجميع[1] أما ترى أن القرآن حافل بالمبادئ السامية والمثل العليا والقيم الأخلاقية التي تصلح لكل زمان ومكان[2] كما يشير إلى ذلك هذا الإعلان الرباني : **"قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا"** .

وإما أن تسند البخل وقلة الرحمة إليه سبحانه حيث إن عدم إنزاله لما هو مفيد ونافع مع علمه به يستلزم البخل وعدم الرحمة بعباده لا غير مما يتنافى مع رحمته ورأفته بعباده المؤمنين تعالى الله عما تقول علوا كبيرا.

وإما أن تقول إن عدم إنزال الله سبحانه لأحكام تكون خالدة على وجه العصر كله لا يتنافى لا مع رحمته ولا مع علمه، لأنه غير ممكن أن يكون هناك نصوص تستوعب حركة البشرية كلها بما فيها من تلك الأدوار المتضاربة المتعارضة والمستويات المتخالفة المتناقضة وعدم إنزال غير الممكن لا يكون لا جهلا ولا بخلا كما أن عدم القدرة على غير الممكن المطلق -لا النسبي- لا يعد عجزا.

فنقول هذا تفلسف عقلي محض ليس هناك أي دليل على ما قلت فضلا من أننا نرى أن كثيرا من الأمور لا يعفي عليها الزمن أبدا كحسن العدل والرحمة وقبح الظلم والفتنة. فكيف لا يكون ما أنزله الله من الأحكام من هذا القبيل؟ علما منا أن في إنكار استمرارية بعض أحكام

---

١) أحمد الإمام، المصدر السابق.

٢) عبد الحكيم سرور، إنسانية الإسلام، مجلة الجديد- مصر، العدد ٢٦، فبراير ١٩٧٣، ص ٥٢.

القرآن تغافلا وتعاميا عن أمور كثيرة فصلناها بتوفيق الله تعالى في كتابنا **عالمية القرآن حضارة ورسالة** فليراجع. ونرى أن أعظم الأسباب لهذا الإنكار الأرعن هو التغاضي عن هذه الأمور أو الجهل بها.

إذا لاحظنا موقع القرآن ككونه آخر رسالات الله إلى الناس وخاتم الكتب الإلهية ونهاية الوحي الرباني النازل من سماء الربوبية إلى أرض البشرية وككونه آخر التعاليم الإلهية الملقاة عن طريق الوحي إلى خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم وككونه وحيا أوحي إلى النبي المبعوث للناس كافة إذا لاحظنا هذه الأمور كلها علمنا لتوّنا أن هذا القرآن نزل من يوم أن نزل يخاطب جميع البشر على جميع المستويات في جميع الأزمنة المتتالية إلي يوم القيمة وفي جميع الأمكنة على وجه البسيطة من غير فرق بين زمان وزمان أو مكان ومكان أو جنس وجنس أو مجتمع ومجتمع أو مستوى ومستوى - كما أسلفنا ذلك- بل الكل متساو في كونه مخاطبا لخطابات القرآن المقدسة ومسؤولا أمام تكاليفه النيرة سواء منها العقائدية أو الاجتماعية: السياسية والاقتصادية والقضائية والجنائية، وسواء منها ما يتعلق بتنظيم العبادات أو تنظيم المعاملات أو تنظيم الأخلاق أو تنظيم الحقوق أو تنظيم سائر شؤون المجتمع فهو المهيمن على الزمان والمكان والمتغيرات بما يمنحه من وعي كامل للوجود الكوني وحركته وعلاقاته إنه وعي الكون كله بما فيه مدركا بكلمات الله فلا يمكن للماضي أو الحاضر أو المستقبل أن يحيط بوحي الكتاب مطلقا وإنما يأخذ منه ما يستدعيه عصره بنسبية

الظرف التاريخي ومتعلقاته الاجتماعية والحضارية وعبر طرائق فكره[1] ولقد جاء هذا القرآن حينما بلغت البشرية سن الرشد العقلي فجاء كتابا مفتوحا لجميع العقول لا في عصر النزول فقط بل مستمرا في جميع الأزمان لمقبل الأجيال، شاملا لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل بتغير الأزمان والمجتمعات، مستعدا لتلبية الحاجات المتجددة أيضا التي يعلمها خالق البشر وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير[2] ومن هنا تأتّى لبعض العلماء أن يشبه القرآن بالكون الكبير الذي نعيش فيه- لفسحة جوانبه ووفرة معلوماته وكثرة معارفه وغزارة مواده وكمال مداركه ونصوع براهينه وسعة خطاباته وثراء مسائله وتنوع مضامينه وتكثر مفاهيمه وتوفر معانيه وشمول نظرته وتناوله لقضايا الدنيا والأخرى جميعا فهو الكون الكبير المعنوي يضارع الكون المادي الذي يفوت تعداد جوانبه الحصر والعد.[3]

نعم إنه كما قلنا في كتابنا **ثراء المعنى في القرآن الكريم**: "كتاب حكيم يحتوي على عجائب لا تنقضي مدى الدهر ويشتمل على غرائب لا تنفد عبر العصر، كنوزه محشوة من الكرائم وخزائنه مفعمة من النفائس...فوائده غير محدودة، وزوائده غير معدودة، ومدلولاته ومعانيه

---

١) طه جابر العلواني، مدخل كيف نتعامل مع القرآن لمحمد الغزالي، الطبعة الأولى، فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩١، ص ٥.

٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، الطبعة الثانية عشرة، بيروت ١٩٨٦، ج ٤، ص٢٤٠١.

٣) انظر محمد الغزالي، **كيف نتعامل مع القرآن**، ص ١٠١.

غير محصورة، وجوه دلالاته متكثرة، وأنواع إشاراته متوفرة، وعباراته خميصة من الألفاظ، بطينة من المعاني، حوى على جميع وجوه المحاسن، ونظف أذياله المقدسة عن جميع الأدناس، لم يتعارف يوما ما مع المساوئ والنقائص، ولم يتنكر دهرا ما شيئا من الفضائل والمناقب، لم يذكر في مجلس ما إلا وفاح منه جميع نفحات الهدى، ولم يمر بريقه في محفل ما إلا وعلا عليه جميع أنوار الخير والتقى، فإن شئت الهدى أتيته، وإن أردت العلم مضيت إليه، وإن عزمت على تحقيق العدل لازمته وإن قصدت الرشد والرشاد لازبته، كيف لا وهو كلام ربنا القدير المتعالي وخطاب مولانا العزيز الخلاق."[1]

ب- من الناحية النقلية

ثم إن الأدلة النقلية التي تدل على عالمية القرآن يمكن أن نقسمها إلى قسمين أدلة الكتاب وأدلة السنة فلنذكر الكل مستقلا:

١- الكتاب

الآيات الدالة على عالمية القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾[2] كثيرة، ولو حاولنا أن نستقصي جميع تلك الآيات لبعدت

---

١) محمد خليل جيجك، **ثراء المعنى في القرآن الكريم**، دار السلام، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٩/١٩٩٩، ص ١٥.

٢) يونس، ١٠/٥٧.

بنا الشقة. فلنكتف الآن بذكر أرقام بعض تلك الآيات في الهامش[1] وسنذكر جملة أخرى فيما بعد إن شاء الله تعالى وقد ذكرنا أن عدد الآيات الدالة على عالمية القرآن تزيد على ثلاث مائة وخمسين آية.

إن تلك النصوص القرآنية تصرح وتعلن بعالمية القرآن معنى وخطابا و رسالة وحضارة وتشريعا بلا لبس ولا غموض ولا خفاء ولا غطاء. فإذا لم نعوِّد أنفسنا على ليّ أعناق النصوص وفق هوانا وإذا ما تعاهدنا مع أنفسنا ألا نفارق عن الحق مهما كان وفي يد من كان فإننا سنجد قضية عالمية القرآن قضية مفروغة عنها، قضية بدهية لا تحتاج إلى تفصيل و بيان اللهم إلا للذين ينكرون ضوء الشمس لما على أبصارهم من الغشاوة أو ران على قلوبهم من الصدأ والغباوة:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ❖ وينكر الفم طعم الماء من سقم

فهناك عديد من الآيات يعلن أن هذا القرآن ذكر لجميع العالمين: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[2] فإذا ما حاولنا أن نستنبط - وحق لنا ذاك - من خلال التعابير القرآنية وألفاظها مدعانا حول عالمية القرآن وجدنا ذلك سهل المساغ، لين المقاد، طوع القلم فإن تلك الآي الأربع التي

---

١) انظر: البقرة، ١٨٥/٢، النساء، ١/٤، ٧٩، ١٧٠، ١٧٤، الأعراف، ١٥٨/٧، يونس، ٥٧/١٠، ١٠٨، ٩٩، ١٠٤، ١٠٨، يوسف ١٠٤/١٢، الإسراء، ٨٩/١٧، ٩٤، ١٠٥، ١٠٦، الأنبياء ١٠٧/٢١، الحج، ١/٢٢، ٥، ٢٧، ٤٩، ٧٣، الفرقان ١/٢٥، ٥٠، ٥١، ٥٦، الأحزاب، ٤٥/٣٣، ٤٦، سبإ، ٢٨/٣٤، فاطر، ٢٤/٣٥، ص ٨٧/٣٨، القلم ٥٢/٦٨، التكوير ٢٧/٨١،

٢) يوسف، ١٠٤/١٢، ص، ٨٧/٣٨، القلم، ٥٢/٦٨، التكوير، ٢٧/٨١.

تصرح بأن القرآن ذكر للعالم أجمع إنما أتت: أولا - في صورة الحصر [1] والجملة بهذه الصورة الحصرية تنفي في هذا الصدد عن القرآن كل صفة تنافي عالميته وتجعل عالميته منصوصة عليها بلا امتراء ولا ارتياب.

ثانيا- إن تذكيره ومن ثم عالميته إنما هي باعتبار الرسالة التي تؤديها إلى الإنس والجن فتصلح من خللهم وتزيل من دغلهم [2] كما تنبئ عن ذلك مادة الذكر أيضا فإن اللفظة تعنى أن القرآن ذكر يذكر الناس والجان ما يحتاجون إليه فردا وأسرة ومجتمعا ودولة في تنظيماتهم واتجاهاتهم و في مادتهم ومعناهم وفي أولاهم وعقباهم لا أنه ذكر بمجرد كونه ألفاظا تتلى في بعض المناسبات الإسلامية ويترنم بها في بعض الأيام الدينية أو تذكر في المواسم والطقوس الدينية فحسب لا صلة لها بالحياة وتوجيهها وترشيدها وإنارة سبيلها فإن هذا الكيان الجاف المنكمش - مهما توافق مع الأديان الأخرى- لا يتوائم [3] مع طبيعة القرآن وهديه أبدا.

ثالثاً- إن صيغة العالمين بجمعيتها وتعريفها باللام المعرفة تدل في العربية على معنى الاستغراق [4] كما ذكروا أن من صيغ العموم الجمع المعرف باللام مع أنه أيضا مما لا ريب فيه على كل من لديه أدنى إلمام

---

١) محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية، تونس ١٩٨٤، ج١٧، ص ٣١٠.

٢) الدغل بفتح الغين: تدخل في الأمر مفسد.

٣) يتوائم: يتوافق.

٤) المصدر السابق، محمد حسين الطباطبائى، **الميزان في تفسير القرآن**، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤، ج ١٤، ص ٣٣١.

بالعربية أن للفظة "عالم" مفرد العالمين أيضا دلالة صريحة واضحة بلا تكلف أو تعسف على العموم فإن معناه كل ما يعلم به وجود الصانع من كل ما في الكون فإذا جمع بالواو والنون - كما هنا- يكون خاصا بالعقلاء من الإنس والجن أجمعين . فإذًا تدل هذه اللفظة "للعالمين" أيضا على أن القرآن ذكر لجميع العقلاء من الإنس والجن جميعا بلا تقييد بزمان أو مكان أو طبقة أو جنس. فادعاء أن القرآن خاطب قطاعا خاصا من التاريخ أو أتى بأحكام خوطب بها قطاع خاص من الناس - حتى ولو ادعوا ذلك على بعض الأحكام - فرية بلا مرية طالما لم يأت أربابه بالدليل من الكتاب والسنة على مدعاهم. وأنى لهم ذلك؟؟

ذكر لهم: يذكرهم بوجهة الصواب في دينهم ودنياهم، يذكرهم بما يصلح حالهم فرادى وجماعات ؛

ذكر لهم: يذكرهم الحكمة ويزكيهم ويرشدهم في جميع اتجاهاتهم الفردية والاجتماعية: العلاقات الثنائية والملابسات الأخلاقية والصلات السياسية ؛

ذكر لهم جميعا: بلا تفريق ولا تمييز بين غنى أو فقير، بين شريف أو وضيع، بين عالم أو جاهل، بين فاضل أو خامل، بين أسود أو أبيض، بين عربي أو عجمي ؛ بين باد أو حاضر. بين متطور أو متخلف. بين ابتدائي أو متحضر ؛

ذكر للكل في كل زمان ومكان وعلى كل حال وفي كل مستوى وتجاه كل حكمة وهداية وبر واستقامة مادية أو معنوية يهتدي إليه

المهتدون ويضل عنها الغافلون الضالون! فدلالة على كون القرآن ذكرا في جميع تلك النواحي أطلق الذكر في الآيات ولم يقيد بأي مقيد كما هو سياسة القرآن في الدلالة على العموم وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

وإلى جانب تلك الآيات هناك آيات أخرى أيضا تصرح بعالمية القرآن من غير التباس ولا اشتباه من مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[1]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾[2]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[4]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[5]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾[6]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا﴾[7]، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلا

---

١) البقرة، ٢/٢١، ١٨٥.

٢) يونس، ١٠/١٠٨.

٣) الفرقان، ٢٥/١.

٤) الأنبياء، ٢١/١٠٧.

٥) النساء، ٤/١٠٥.

٦) الإسراء، ١٧/٨٩.

٧) الكهف، ١٨/٥٤.

مُبْطِلُونَ﴾[1]، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[3].

كل هذه الآيات تجعل الناس على عمومهم من غير تقييد بزمان دون زمان أو مكان دون مكان أو مجتمع دون مجتمع أو مستوى دون مستوى تجعلهم جميعا محلا ومناطا لنزول القرآن والإنذار به ومخاطبا مكلفا بجميع ما ورد فيه من الأوامر والنواهي ومسؤولا عما ورد فيه من التكاليف والأحكام من غير تقييد بأي أمر ما وكذا ذكرت الأمثال وصرفت ؛ وقصت القصص وضربت لأن يعتبر الكل بها ؛ كما تنص تلك النصوص أن الرحمة المهداة إلى البشرية من قناة النبوة بوساطة القرآن رحمة عامة لجميع البشرية كافة مؤمنيها وكافريها : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4] فانطلاقا من هذا رجح الطبري (ت. ٣١٠هـ) رحمه الله حينما فسر آية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أن الناس (المدلول عليه بكلمة العالمين) تشمل المؤمن والكافر[5]. فلولا التنصيص على عالمية القرآن و جعل خطابه فوق الزمان والمكان لما كان

---

١) الروم، ٣٠/٥٨.

٢) الزمر، ٣٩/٢٧.

٣) الزمر، ٣٩/٤١.

٤) سبأ، ٣٤/٢٨.

٥) محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آى القرآن**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨، ج ١٠، ص ١٠٦.

للإتيان بتلك اللفظة الدالة على العموم بهيئتها وجوهرها معنى طيلة ما كانت الألفاظ المفيدة للخصوص التي تكون بديلة عنها موجودة في العربية بوفرة وكثرة.

ثم إن هناك كلمات وتراكيب وصيغا أخرى من الألفاظ والتراكيب والصيغ القرآنية تخاطب الناس عامة بلا تقييد بزمن أو صنف أو طبقة أو جنس أو مستوى.[1] كما يسترعى أنظارنا من هذه الناحية خصيصا أن القرآن يتوخى في جمل خطاباته وجميع تعابيره وكل تراكيبه العموم دون الخصوص والإطلاق دون التقييد ما وسع لذلك المقام والمرام. فإذا ما فرض أن القرآن خير بين أسلوبين أحدهما خاص أو مقيد و الآخر عام أو مطلق اختار المطلق أو العام مطلقا، فانطلاقا من هذا المغزى الهام قلما ترى في القرآن المخصصات والمحددات كأمثال الأمكنة المحددة أو الأزمنة الخاصة أو الأشخاص المعينة أو الأعراف والتقاليد المختصة أو الأحوال الخصوصية التي لا يكون فيها درس أو عبرة أو حكمة للجميع وإذا ما وقعت حاجة أثناء البيان القرآني للتخصيص

---

١) إن القرآن يتجنب ما أمكن عن تلك الدوال الخصوصية التي تخص معنى اللفظة بأمر خاص أو فرد خاص أو مكان خاص أو مجتمع خاص أو طبقة خاصة أو نحوها من الخصوصيات. وهذا من أدل الدليل على عالميته ومن هنا تجد الألفاظ العامة مستعملة في القرآن بكثرة كالموصول العام ولفظة قوم النكرة والجمع المعرف باللام والنكرة في سياق النفي وأمثالها من ألفاظ العموم حتى إن بعضا من العلماء أفرد الألفاظ العامة في القرآن بالذكر فصار كتابا حافلا قيما في بابه منها **تلقيح الفهوم في صيغ العموم** لخليل بن الكيكلدا العلائي.

بصفة أو نحوها فإنما ينتقى القرآن منها أيضا تلك الصفات العامة التي خصوصيتها أقل كالمؤمنين والمتقين والصالحين والكافرين والمنافقين والغافلين والضالين وأمثالها مما لا يخص بجنس أو طبقة دون أن يقيد بالحجازيين أو المكيين مثلا مما يضيق دائرة دلالة اللفظ ودون أن يخصص اللفظُ فالحكمُ بأبي بكر أو علي رضي الله عنهما مثلا مما يخص الأمر مقتصرا على واحد لا يتعداه. ومن هنا ترى أن ألفاظ وتراكيب الآي النازلة لسبب خاص وحول قضية خاصة وفي شأن شخص خاص جردت من عناصر التخصيص والتقييد ما أمكن ذلك ولم يلتبس الأمر التباسا فمثلا انظر إلي آيات الإفك فرغما من أنها نزلت في أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها بإجماع[1] مفسري أهل السنة[2] لا ترى في تلك

---

١) محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٩٦٤، ج ٤، ص ١٢، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٨، ص ١٨٣.

٢) انظر تفسير الطبري، ج ١٨، ص ٨٦-٩٥، محمد القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥، ج ١٢، ص ١٩٧-٢٠٧، إسماعيل بن كثير أبي الفداء، **تفسير القرآن العظيم**، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٩، ج٣، ص ٢٦٨-٢٧٦، علي بن محمد بن إبراهيم الخازن، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٩٦٤، ج ٤، ص ١٢، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور في التفسير المأثور**، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٣، ج ٦، ص ١٤٠-١٦٢، محمود شهاب الدين الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨٥، ج ١٨، ص ١١١-١١٨. حتى إن بعضا من محققي علماء الشيعة أنفسهم كالطبرسي لم

الآي تحديدا بالاسم والنسب للمفترى عليها وكذا لا ترى تخصيص أسماء الذين وقعوا في فتنة الإفك من الأفاكين سوى التعريض بهم بذكر فعلتهم الشنيعة تلك بأن قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ... وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾[1] من غير تخصيص لأي واحد من الجماعة أو الفرد المتولي لكبر الإفك بالذكر.

وكذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾[2] فمع أن جمهور المفسرين ذكروا أنها نزلت في شخص خاص وهو الوليد ابن عقبة[3] لكن لا ترى في ألفاظ الآية أي مخصص أو محدد من اسم الشخص أو مكانه أو الحادثة التي كان هو البطل فيها والتي هي أيضا تحدده بعض التحديد. فلا ترى في القرآن التخصيص بإحدى

يذكر في قصة الإفك سوى اسم أمنا عائشة رضي الله عنها (راجع الفضل بن الحسن الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦، ج ٧، ص ٢٠٤-٢٠٦) كما نجد الطباطبائي لم يذكر حول من نزلت فيها آيات الإفك سوى قول ضعيف لبعض الشيعة مرضه هو نفسه ولم يعول عليه. (راجع محمد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، مؤسسة إسماعليان، الطبعة الثانية، ١٩٧٢، ج ١٥، ص ٨٩-١٠٣.)

١) النور، ١١/٢٤.

٢) الحجرات، ٦/٤٩.

٣) انظر عبد الله أبي ناصر القاضي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، مكتبة الحقيقة، إستانبول ١٩٩١، ج ٤، ٢٧٢، ابن كثير، ج ٤، ص ٣٠٨، الشوكاني، ج ٥، ص ٦٢، محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، دار الفكر الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨، ج ١٥، ص ١١٥.

المخصصات المذكورة طالما لم يلاحظ في تخصيصها أي درس أو أية عبرة أو أية فائدة ترجع إلى المخاطبين وتأتي لهم بأحكام مستجدة كما في قصة طلاق زيد لزينب رضي الله عنهما وزواج رسول الله منها.

وهكذا تكثر الأمثلة من الآي التي نزلت لسبب خاص أو في شخص خاص ولم يقع التحديد في ألفاظها من أي وجه ومن هنا اتخذ علماء الفقه وأصول الفقه قاعدة هامة لهم وهي: **أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.**

وأما شبهة أن يكون التعميم بالنسبة للعرب فقط فأوهن من نسج العنكبوت بعد ما ذكرنا من تلك الأدلة القاطعة والنصوص الصريحة من مثل كلمة **إن هو إلا ذكر للعالمين** الناصة في أن التعميم بالنسبة إلى الإنس والجن جميعا لا بالنسبة للعرب فقط.

فهذا الإطلاق عن التقييد في آي الكتاب الجليل أيضا من أهم الدلائل على عالميته وأنه لا يخص بزمان أو مكان أو بقعة أو طبقة وبهذا يفسح المجال لخطاب القرآن ومن ثمه لعموم معانيه وشمول أحكامه إلى حد كبير فتجعله فوق الزمان و المكان والمجتمع وسائر المحددات. وكل تلك الآراء الكثيرة والتوجيهات الواسعة والاجتهادات البالغة والاستنباطات الجزيلة من القرآن في شتى المجالات العلمية من المجالات الفقهية والكلامية والأخلاقية والفلسفية والاقتصادية والتربوية والمذهبية والنفسية والسياسية والاجتماعية لم تكن إلا من عموم ألفاظه وأساليبه وعالمية بيانه ومغازيه وجامعية مضامينه ومعانيه.

فإذا ما لاحظنا جميع النصوص القرآنية بترابط بعضها مع بعض وجعلنا تلك الكلمات والتراكيب والصيغ التي تفيد العموم في محل الاعتبار- وهي أصدق شاهد وأنصع دليل على ما تعرب عنه الألفاظ وتدل عليه من المعاني والمقاصد والمفاهيم- وعلمنا جيدا أن أصدق التفاسير لكتاب الله هو نفس كتاب الله فهمنا قطعا وأدركنا يقينا أن عالمية القرآن مما لا ينبغي أن يماري فيها اثنان أو ينتطح فيها عنزان. ولا يرتاب فيها عاقل ناصح لكتابه ولا يمتري فيها حازم صادق مع ربه ما لم يعرقله عن التفكير الحر السليم الصحيح تلك الأغراض اللئيمة الدميمة والنوايا السيئة الذميمة.

٢-السنة

نرى أن قضية عالمية القرآن حيث كانت من البداهة بمكان بحشود تلك الآيات الكثيرة الموجودة في القرآن ما ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة كما ذكر بعض الأمور الأخرى التي تجدها في الجوامع الصحاح بكثرة ووفرة. واكتفي في هذا الموضوع ببيان عالمية رسالة النبي صلى الله عليه وسلم فإن عالمية الرسالة وعالمية القرآن مستلزم كل واحد منهما للأخرى لأنه لا يتصور عالمية رسالة بدون عالمية كتابها كما لا يعقل عالمية الكتاب بغير أن يكون النبي مرسلا إلى كافة الناس. وكل هذه من البداهة بمكان. أما الأحاديث التي تدل على عالمية الرسالة فكثيرة شهيرة فلذا قال ابن عطية الأندلسي وابن حيان إنها ثابتة

بالأحاديث المتواترة[1] وندع الحكم بالتواتر عليها إلى أربابها ونكتفي بذكر جملة من الأحاديث:

روى البخاري: "**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**"[2] ورواية مسلم: "**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود...**"[3]

قال القاسمي في شرح الحديث: قال مجاهد: أي يعني الجن والإنس وقال غيره يعني العرب والعجم والتحقيق في معنى عموم إرساله وشمول بعثته هو مجيئه بشرع ينطبق على مصالح الناس وحاجاتهم أينما كانوا وأي زمان وجدوا مما لم يتفق في شرع قبله قط ولهذا ختمت النبوات بنبوته عليه الصلاة والسلام.[4] وفي رواية أخرى لمسلم: "**فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت الأرض لي مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**"[5]، وروى مسلم أيضا: "**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي**

---

١) انظر ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٤، ص ١٩٩، وابن حيان، البحر المحيط، ج ٦، ص ٤٨٠.

٢) البخاري، التيمم/١.

٣) مسلم، المساجد ومواضع الصلاة/١.

٤) محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ، دار إحياء الكتب العربية، ج ٧، ص ٤٩٥٨.

٥) نفس المصدر.

أرسلت به إلا كان من أصحاب النار"[1] يقول النووي (ت ٦٧٦/١٢٧٧) في شرحه: ففيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ... وقوله لا يسمع بي أحد من هذه الأمة أي ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيمة فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته. وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيها على من سواهما وذلك لأن اليهودي والنصراني لهم كتاب فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا فغيرهم ممن لا كتاب له أولى.[2]

وإلى جنب تلك الأحاديث التي تدل صراحة أو رمزا على عالمية الرسالة المصطفوية ترى بعضا آخر من الأحاديث أيضا يدل على مكانة القرآن العالمية بصراحة منها:

يقول علي رضي الله عنه فيما رواه عنه الترمذي: **سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم يقول: "ألا إنها ستكون فتنة" فقلت ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ**

---

١) مسلم، الإيمان/٦٩.

٢) محي الدين أبو زكريا يحيى النووي، **شرح صحيح مسلم**، دار الفكر، بلا تاريخ، ج ١، ص ١٨٨.

سمعته حتى قالوا: "إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به)، من قال بـــه صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صـــراط مستقيم."[1]

لكن هذا الحديث تعقب عليه الترمذي وقال إنه حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات وإسناده مجهول وفي حديث الحارث (هو وحمزة الزيات راويا الحديث) مقال. لكن ليس جميع مستندنا في قضية عالمية القرآن هو ما في هذا الحديث والتي سيأتي بعدها فقط حتى يفرح المنكرون ويقولوا لنا قطعتم الغصن من تحت أرجلكم. حيث لا يمكنكم أن تأتوا بحديث واحد من الجوامع الصحاح تثبتون به مدعاكم. فإننا قدمنا جملة من الأحاديث الصحاح ثم إن في كتاب الله لنا غنية من الأدلة وإنما نأتي بما من هذا القبيل من الأحاديث من باب المتابعة والاستئناس والإحاطة بما له صلة بالموضوع وإلا فقد أسلفنا أن البعض قد ذكر أن الأحاديث الصحاح في الموضوع تصل إلى درجة التواتر ثم إن الأحاديث مهما كثرت في موضوع ما هل تراها تحوز من قوة الاستدلال ما تحوزه آية واحدة فقط؟

روى الحاكم في مستدركه بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القـــرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد اتلوه فإن**

---

١) الترمذي، فضائل القرآن/١٤.

الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول الم حرف ولكن ألف ولام وميم."[1]

روى الحاكم أيضا بسنده عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " نزل الكتاب الأول من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف زاجرا وآمرا وحلالا وحراما ومحكما ومتشابها وأمثالا فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا"[2]

روى ابن حبان بسنده عن أبي شريح الخزاعي قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " أبشروا وأبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: "فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدا" [3]

ويروى ابن حبان أيضا بسند آخر عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "القرآن مشفع وماحل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار".[4]

---

١) محمد بن عبد الله الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٠، ج١، ص ٧٤١-٧٤٢.

٢) نفس المصدر، ج١، ص ٧٣٩.

٣) محمد بن حبان البستي، **الصحيح**، تحقيق شعيب الأرناوط وحسين أسد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٤، ج ١، ص ٢٨٥.

٤) نفس المصدر، ج ١، ص ٢٨٦.

"ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه مـــن البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيمة"[1]

فبعد ما ذكرنا من كل هذه الأدلة القاطعة والحجج الدامغة نعود إلى التاريخانيين فنقول:

إن زاعمي تاريخانية القرآن لا تجد لهم من الأدلة شيئا يعتد به سوى أمرين اثنين أحدهما أسباب النزول وهو من أقوى أدلتهم وثانيهما نزعة ذات اتجاهين أحدهما التأثر بالغير و ثانيهما التفلسف العقلي فقط حول بعض ما نزل من الأحكام في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يحاولون أن يجدوا لبعض تلك الأحكام بعض الملابسات التاريخية التي تحدد واقعيتها - حسب مزاعمهم - بذلك العصر أو ما بعده من العصور القريبة منه. فكدليل على الأول مثلا ترى السائق الأكبر لهم على التاريخانية في بعض الأحكام مثل القطع في السرقة هو ما تأثروا به من النزعة الإنسانية ( ) ومن حقوق الإنسان المصطنعة فحينما ينكرونها إنما ينكرونها بما يرون أنها تتنافى مع النزعة الإنسانية وأنها مخالفة لحقوق الإنسان فيجعلون من تلك الحقوق المصطنعة بأيدي الذين هم أشد الناس ظلما وعدوانا وتعديا على حقوق الغير يجعلون منها حاكما مهيمنا على آيات الله وسنة رسوله وذلك هو الخزي المبين. (ولسنا كمسلمين معارضين لحقوق الإنسان مهما كانت وفي يد من كانت

---

١) مسلم، الإيمان/٦٩.

ولكنا نريد بهذا عدم نصح الغرب وعدم التزامه هو بما أسسه من المبادئ إذا لم تتوائم مع مصالحه الشعبية وهذا من اكبر أمارات النفاق ومخادعة الغير.)

وكدليل على الثاني مثلا من أهم أساطين هذه الفكرة **فضل الرحمن الباكستاني** الذي لا يزال العصرانيون يهتدون بسيره في كثير من اتجاهاتهم الحديثة. فهو حينما يحاول أن يبين الملابسات التاريخية لبعض من تلك الأحكام الذي يراه هو محددا بزمن النزول - كتعدد الزوجات وقطع السرقة- قاصدا من تلك الملابسات التاريخية بيان الأسباب المخصصة للحكم بتلك الفترة المحددة فتراه حينما يسرد وجهة نظره في القضية في بعض من كتبه لا يأتي بنقير ولا قطمير من الأدلة النقلية الملزمة أو الحجج المقنعة، بل يكتفي بتوجيهاته العقلية فحسب. ولا شأن لنا بالتوجيهات العقلية فقط في تفسير النصوص بعد وجود ما يعارضها ويفندها من النصوص وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم وعمل الأمة وإجماعها وبعد ما لم يوجد ما يؤيدها أيضا من تفسير أو عمل من القرون الأولى والذين اتبعوهم بإحسان.

علما منا أن التفلسف العقلي بدون النص إن كان مبررا كافيا لتحديد النصوص أو تقييد أحكامها ببعض الفترات التاريخية ورفع أحكامها فيما بعد من العصور التالية صار الإسلام نهبا لعقول المتفلسفين. فكل من جاء ورأى أن الصواب فيما ارتآه بفلسفته الموهة رفع شيئا من الأحكام إلى أن لا يبقى من الدين بقية، وهذا نفس ما يبتغيه ويرتضيه

الجهات العلمانية من التفسير الجديد للدين حسبما أوحت إليهم شياطينهم. ثم إن الأدهى الأمرّ من كل ذلك أن الذين ينصبون أنفسهم للدفاع والنفاح عن التاريخانية ليسوا أناسا آمنين موثوقين في دينهم وعقيدتهم حتى يؤتمنوا على ما يأتون به من التفسير الجديد لبعض النصوص بل جلهم على قلوبهم رين وفيها زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. ترى سيرة البعض الغالب منهم سيرة دنسة ملوثة وترى عقائدهم عقائد متحطمة بالية كما تراهم أذنابا غير أعزاء في أفكارهم واتجاهاتهم وميولهم للغرب الذي لا تزال تكن في صدرها أعظم الأحقاد على الإسلام وأهله. فكيف يوثق بمن هذه سيرته وسريرته في تفسيره وتأويله أهم النصوص حيوية وتأثيرا في حياة المسلمين في تفسيره حسبما أهدته إليه أهوائه وميوله لا دينه وخوفه من ربه.

نعم إننا لا ننكر أن في القرآن آيات نزلت لسبب خاص فيها ذكر لبعض الحوادث التاريخية التي لها صلة بزمان وقوعها أو الأشخاص التي كانت لهم علاقة وثيقة بها كما في آيات نكاح النبي صلى الله عليه وسلم لزوجة زيد بن الحارثة رضى الله عنه[1] أو آيات تحريم النبي صلى الله عليه وسلم بعض ما أحل الله له بسبب بعض أزواجه[2] ولكن إن تلك الحوادث وإن تقولبت في قالب من الخصوصية التي ترى أنها تخص زمنا معينا أو أشخاصا محددة أو حالة محددة- ربما تقتضي تلك الأسباب

---

١) انظر الآيات ٣٧، ٣٨ من سورة الأحزاب.

٢) انظر الآيات ١-٦ من سورة التحريم

تاريخانيتها على زعم زاعميها!- إلا أن كل واحد منها يدل على معاني ويشير إلى أحكام ويرمز إلى عبر ويومئ بدروس لا تخلق مدى الدهور ولا تبلى بكر العصور ولا غناء للإنسانية عنها أصلا وكفى كل هذا شاهدا عدلا في عالمية نصوص القرآن!

ونكتفي بهذا القدر في هذه الرسالة القصيرة ففيها كفاية لمن اعتبر.

ج - عالمية القرآن من الناحية المضمونية

أما عالمية القرآن من الناحية المضمونية: فان تاك أيضا باهرة وبارزة حيث إن ما قدمه القرآن للناس من تلك النظرة الشمولية إلى الكون والطبيعة التي تفتح على العقل و التفكير الإنساني آفاقا فسيحة إلى أقصى الحدود في النظر إلى الكون والطبيعة نظر فاحص متأمل في أسرارهما ومتطلب لوجه الاستفادة منهما وما قدمه من تلك المعاني الإنسانية النبيلة و الفضائل الأخلاقية الجزيلة والكمالات البشرية الجميلة الموجودة في الكتاب المجيد بكثرة وغزارة حيث أتى بها مجتمعة مصفوفا بعضها فوق بعض إبان نزوله من غير أن ينتظر فيما ابتكره من المعاني العالية وابتدعه من الفضائل السامية جهودا إنسانية ستبذل، أو تجارب بشرية ستتجمّع، أو قاعدة حضارية ستتأصل ومن غير أن يسبق له سابق حضاري أو رصيد ثقافي، مع أننا نعلم جميعا أن الكمالات التي وصل إليها الإنسان بمحض جهده وسعيه إنما وصل إليها نتيجة تجارب سابقة وجهود سالفة وخبرات غابرة ولكن القرآن المبين تراه قد أتى دفعة وفجأة ببذل وسخاء بهذه المجموعة من المعاني الإنسانية الشريفة التي هي أهم

مقومات عالميته والتي قلما تجد في جميع الأوساط البشرية فردا مستغنيا عنها أو جماعة غير محتاجة إليها، وقدم القرآن من خلال آياته وسوره إلى المحافل العالمية محاسن خلقية و فضائل بشرية وقواعد سياسية وضوابط اقتصادية وأسسا حضارية وآفاقا معرفية ونظرات شمولية إلى الكون والطبيعة ومقاربات فلسفية لم تحلم الإنسانية بجلها فردا فردا من قبل وأما مجتمعة فلم يكن لها نبأ و خبر بكلها.

من هنا نرى أن القرآن أحدث بمجموع تلك المفاهيم الجديدة التي تشكل صلب عالميته وتقوّم هوية بنيانه الإنساني القشيب أحدث في الآفاق البشرية ثورات عجيبة وأتى في الأوساط الإنسانية بانقلابات عظيمة ويمكن أن نستخلص بعض تلك المعاني السامية والمفاهيم الرامية إلى الكمالات والفضائل التي لا غنى لأي من أبناء البشر عنها مهما تطور وتقدم والتي أنزلها القرآن إلى أرض البشرية أن نستخلصه في هذه العناوين التالية:

١- الحفاظ على الكرامة الإنسانية إلى أقصى الحدود طالما لم تنقلب إلى مظاهر سيئة مذمومة العواقب للفرد والمجتمع فقد أذاق القرآن بتلك التعاليم السمحة الإنسان المستهان المستضعف المغصوب منه كرامته وعزته طعم الكرامة النفسية ولذيذ العزة البشرية: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[1].

---

١) الإسراء، ١٧/ ٧٠.

ونرى هذه الحقيقة تتبلور- منعكسة إلى واقعيات الحياة- على لسان **الفاروق** رضي الله عنه حينما امتنع ابن **عمرو بن العاص** رضى الله عنه وهو والي مصر وفاتحها وفي قمة مجده وعزة سلطانه عن توفية القصاص من نفسه لأجل صفعة صفعها أحد القبطيين حيث قال الفاروق رضي الله عنه: **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.**

٢- استخلاص العبودية لله وحده والإنقاذ من عبودية البشر فقد أهدى القرآن لذلك الإنسان الذي ضل عن سبل الهدى وتاه في متاهات الشرك والعبودية لغير الله واستذل بأبشع طرق الاستذلال والاستعباد لغير الله، أهدى له أفضل وسائل النجاة والخلاص عن عبودية البشر وهو عقيدة التوحيد التي لا تعرف للبشر ربا غير الله ولا تعطى أية فرصة لأن يتخذ بعض الناس بعضهم أربابا من دون الله: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[1] ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾[2].

وقد رأينا هذه الحقيقة العظيمة الناصعة التي يهديها الإسلام للبشرية جمعاء تتجسد في الحياة الواقعية على لسان **ربعي بن عامر** رسول

---

١) آل عمران، ٣/٦٤.

٢) آل عمران، ٣/٧٩-٨٠.

سعد بن الوقاص رضي الله عنهما قائد الجيش الإسلامي إلى الفرس حينما التقى مع القائد الفارسي رستم وهو بين حشمه وجشمه[1] وفي ذروة زهوه[2] وكبريائه قال له: **إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.**[3]

٣- إغاثة المظلوم ونصرة المستضعف وحمايتهما والنصفة لهما من الظالم والقوي: فقد أتاح القرآن ملجأ شرعيا هاما لجميع المستضعفين والمظلومين في أنحاء المعمورة وجعل الدفاع عن المظلوم والمستضعف من وظائف المسلمين فردا وجماعة. وانطلاقا من هذا أخذ الدفاع عن المظلوم -لا عن دمه فقط بل عن دمه وعرضه وكرامته- محلا رئيسيا له في الفقه الإسلامي تحت عنوان **باب الصيال** ويرى الفقه الإسلامي انطلاقا من النصوص حول إغاثة المظلوم الثابتة في الكتاب والسنة التي سنذكر بعضا منها أن المسلم إذا لم يدافع عن المظلوم يعصى ويأثم ويستحق العذاب.

فمن تلك النصوص:

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن

---

١) الحشم: خاصة المرء الذين يغضبون له وعياله وقرابته؛ والجشم: الثقل.

٢) الزهوّ: الكبر والتيه والفخر.

٣) إسماعيل أبي الفداء ابن عمر بن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله التركي، الطبعة الأولى، دار هجر، إمبابة، ١٤١٨/١٩٩٨، ج ٩، ص ٦٢٢.

لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[1]، ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾[2]، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[3]، ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾[4]

كما نجد تلك الحقيقة الناصعة والسمة الحضارية القرآنية التي هي من أكثر الأمور تحريكا للعجلة الحضارية تتجلى كواقعة حياتية -لا مثالية تبقى بين الخياليات المرغوبة والأحلام الحلوة- على لسان الصديق رضى الله عنه في أول خطبته التي ألقاها حينما انتخب خليفة للمسلمين وهو كأول خطوة إجرائية في خلافته حيث قال: **أما بعد فإني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.**[5]

٤- النظرة الشمولية الاستدلالية إلى الكون الحاضة على كثير من جوانب التفكير والمعرفة التي كان فيما مضى ولا يزال وسيكون فيما

---

١) النساء، ٤/٧٥.

٢) إبراهيم، ١٤/٤٢.

٣) هود، ١١/١٠٢.

٤) هود، ١١/١١٣.

٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٤١٥.

يأتي لها تأثير إيجابي أيما تأثير في اتساع الأفق التفكيري لبني الإنسان وانتهاجه سبل العلم والتطور والتقدم لا في الميادين المادية فحسب بل في الميادين المادية والمعنوية كليهما فلقد أحدث القرآن- كما أسلفنا الإشارة إليه- في المجالات التفكيرية إلى جانب الميادين الاعتقادية والاجتماعية والأخلاقية انقلابات عجيبة أحدثت أصداء عالمية عظيمة تطن في أذن التاريخ عبر سيره الطويل بما قدم لعالم العلم والمعرفة من عقلية ناضجة واعية سببت توليد اتساعات شاملة وانفتاحات هائلة وفتح آفاق واسعة في العلم والمعرفة. وأهم عناصر تلك العقلية:

أ) الحض على السعي في طريق العلم والمعرفة: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1]، ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2]، ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[3]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[4].

ب) والجد والجهد لعمارة الأرض وتسخير الطبيعة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[5] ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

---

١) طه، ١١٤/٢٠.

٢) النحل، ٤٣/١٦؛ الأنبياء، ٧/٢١.

٣) المجادلة، ١١/٥٨.

٤) الروم، ٢٢/٣٠.

٥) الملك، ١٥/٦٧.

بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[1]

جـ) ومن الحض على النظر والتفكير فيما ينوف على ثلاثمائة آية في القرآن فقط، عدا السنة، النظر الذي قوامه وعماده الحرية الفكرية التي يتمتع بها المرء المؤمن تمتعا كاملا: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[2] ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

٥- **المعاني النبيلة و الفضائل السامية المملوءة** حيوية ونشاطا ونبلا إنسانيا لا تختص بأمة دون أمة والتي هي في أية حضارة كانت فهي كالروح للجسد فلم تخلو أية حضارة منها إلا وأذن بالرحيل ركبها وانهار بعد غير كثير بنيانها و حان في زمن غير طويل حينها ودمارها. لعمر الحق! إن القرآن أتى في باب الفضائل والمكارم وترسيخهما في المجتمع الإنساني وتشييد ذلك البنيان الإنساني وتحكيمه بروابط وأواصر خلقية اجتماعية لا مثيل لها ولا عديل ولا نظير لها ولا بديل فلقد أتى في هذا الباب بما لم يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق: حيث بث روح الإخاء والتعاون والتساند والتكافل بين جميع أبناء الأمة: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى

---

١) الحديد، ٢٥/٥٧.

٢) الروم، ٨/٣٠.

٣) الرعد، ٣/١٣.

الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1] كما أمر بالإحسان ونشر الفضيلة والعدل بين جميع طبقات الناس ونهى عن جميع المنكرات والفحشاء: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2] وكفي بهذين النصين في هذا الباب شاهدا عدلا.

٦- **عناية الإسلام البالغة بحماية الحقوق ورعاية الكرامات** حيث حرم الإسلام- بصورة حاسمة- لاهتمامه البالغ بحماية كرامة الإنسان- حتى ولو في غيبته- حرم التطاول على عرضه وكرامته وانتهاك حقوقه ومن هذه الجملة حرم اغتيابه وحسده وحقده وشتمه وذمه وقذفه وإهانته وضربه وكل ما يؤذيه -بدون استحقاقه لذلك- حرم جميع ذلك شهودا وغيابا: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾... [3] فاهتماما بذلك ترى الإسلام جعل للقذف - الافتراء بالزنا على عفيف محصن - حدا أكبر من حد الخمر ثمانين جلدة لأن في القذف تلويثا لعرض الغير وانتهاكا لكرامته واعتداء زائدا على مكانته وخصيصا في تلك المجتمعات المتحفظة من الزنا.

٧- **الأمن والأمان العام و السلام الكامل**: من أهم مظاهره حقن الدماء وحفظ الأموال إن على المستوى الفردي أو على المستوى

---

١) المائدة، ٢/٥.

٢) النحل، ٩٠/١٦.

٣) الحجرات، ١٢/٤٩.

الجماعي فتأكيدا على ضرورة الحفاظ عليهما أتى في باب التشريع في كلا المجالين بما لا مزيد عليه من الأوامر الناهرة والقوانين الزاجرة ومن هنا حرم الربا والرشا وأكل أموال الناس بالباطل والغش وأوعد القاتل بالنار المخلد إلى جنب القصاص: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1]، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2]، وأتى بأثقل الجزاء لمن يسعى في الأرض بالفساد: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3]

٨- **الأخلاقيات** التي أمر القرآن بها مما لا غنى للبشرية جمعاء عنها مهما كانت الظروف والشؤون تلك الأخلاقيات التي تغطى جميع صفحات الحياة ونواحيها من الصلات الأسرية إلى العلاقات الاجتماعية والدولية والدبلوماسية، إلى ملابسات المرء وسلوكياته فيما بين بني جنسه ككونه واحدا منهم، إلى معاملته تجاه متملكاته الحيوانية والجمادية. فالصورة الأخلاقية التي يقدمها القرآن للناس هي صورة إنسانية شمولية عالمية تحيط بجميع أفعال المرء ونزعاته وملابساته ومبادئه وقيمه وحبه ونفوره وأهوائه وأغراضه وعاداته وتقاليده. انظر إلى هذه الكلمة الربانية الفذة الجامعة: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي

---

١) النساء، ٤/٩٣.

٢) البقرة، ٢/١٧٩.

٣) المائدة، ٥/٣٣.

هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[1] ، وما أروع وأشمل هذه النصيحة الربانية والموعظة الإلهية : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[2] ، وهل ترى كلمة أجمع في باب الفضائل ومحاسن الأخلاق من هذا النداء الإلهي الحكيم : ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ❖ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ❖ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[3] .

ترى معي أن جميع هؤلاء المعاني والأمور والأخلاقيات التي ذكرتها كدلائل تدل على عالمية القرآن إنما هي مما لها علاقة وثيقة بالكيان الإنساني المطلق من غير تقييد بجنس أو تحديد ببقعة ولها صلة محكمة بالهوية الإنسانية العامة المطلقة إن في هذا القالب أو ذاك أو في هذه الصورة أو تاك أو من هذا الجنس أو من ذاك أو في هذه الهوية أو تيك أو في هذا المكان أو ذاك أو في الحال كان أو في المستقبل بلا تفريق وتمييز وبذاك يتجلى معنى هذه الكلمة الإلهية الحكيمة المدوية عبر العصور والقرون التي تطن في أذن التاريخ دوما : **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.**

---

١) فصلت، ٤١/٣٤.

٢) الأعراف، ٧/١٩٩.

٣) لقمان، ٣١/ ١٧-١٩.

فإذاً لا ضير علينا من مزاعم أولئك المغرضين على الإسلام وأهله وأذنابهم المتملصين[1] إليهم المتملقين لهم بتاريخانية القرآن فإن الحقيقة أظهر من أن تخفى والشمس أبهر من أن تختفي فكيف تختفي الشمس عن العيون بإغماض الخفاش عينيها منها أو بإنكار الأعمش لها كما قال القائل قديما:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ❖ وينكر الفم طعم الماء من سقم

وبعد أن أسهبنا وأطنبنا - بالإضافة إلى حجم الرسالة - في الكلام عن عالمية القرآن رغم أننا وعدنا أن نوجز الكلام فيها فالآن نعود إلى صدد ما كنا فيه.

استكمالا لجوانب البحث نرى أن نذكر- قبل البدء بما نحن فيه- بعض تلك الأمور المتعلقة بكلمة "السورة" ووضعها الاصطلاحي ومن الله التوفيق والسداد.

---

١) المتملصين: المتخلصين.

المبحث الثالث السورة

نظرة عامة إلى مفهومها وبعض الأمور الملابسة لها

إن الناس أحسنوا القول كلهم فمن
وافق فعله قوله فذلك الذي أصاب حظه
ومن خالف فعله قوله فإنما يوبخ نفسه.
ابن مسعود

١- السورة لغة واصطلاحا

إن كلمة السورة- وجمعها سور- في إطلاقها القرآني إما مأخوذة من سورة البناء وهي القطعة منه[١] أو من سور المدينة: حائطها المشتمل عليها وسورة القرآن تشبهها لكونه محاطا بها إحاطة السور بالمدينة،[٢] غير أنه يوهن هذا الاحتمال أن جمع سورة البناء على سور بضم السين وسكون الواو كالصوف وجمع سورة القرآن على سور بضم السين وفتح الواو،[٣] أو من السورة بمعنى المنزلة الرفيعة كما قال **النابغة**:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ❖ ترى كل ملك دونها يتذبذب[٤]

---

١) السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الرابعة، مصر ١٩٧٨، ج ١، ص ٦٩.

٢) الإصفهاني، الحسين بن محمد راغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٢، ص ٤٣٤.

٣) الجزائري طاهر، **التبيان لبعض المسائل المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان**، دار البشائر، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤١٢، ص ١٦٠.

٤) الراغب، السابق، ص ٤٣٤، السيوطي، السابق، ج ١، ص ٦٩، الجزائري، السابق، ص ١٦٠.

وقيل وقيل ...[1]

والسورة بمعناها الاصطلاحي كما قال الجعبري وذكره السيوطي (م. ٩١١هـ.):

قرآن يشتمل على آي ذات فاتحة وخاتمة. وقيل السورة: الطائفة المترجمة توقيفا أي المسماة باسم خاص بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم.[2]

بينما لا ننسى أن هذا المعنى الاصطلاحي الجديد لكلمة السورة من مستجدات القرآن ولم يسبق له استعمال في هذا المعنى قبل القرآن كما نجد ذلك في كثير من تلك الألفاظ التي استعملها القرآن في عالم مصطلحه الخاص الذي أحدثه هو كالصلاة والزكاة والتقوى وغيرها.

٢- حكمة تسوير القرآن إلى سور

إن القرآن قسم إلى مائة وأربع عشرة سورة كما سيأتي. فمنهن قصار مركبة من سطر أو سطرين أو ثلاث أو أربع أو..وهكذا، ومنهن متوسطة مركبة من صفحة أو صفحتين إلى أكثر من ذلك و منهن طوال مركبة من عشرات الصفحات ولله سبحانه في تقسيم كتابه إلى سور مختلفة في القصر والطول حكم كثيرة وهامة:

---

١) انظر المصادر السابقة نفسها.

٢) السيوطي، السابق، ج ١، ص ٦٩.

منها تيسير مدارسة القرآن وحفظه فإن حفظ الأجزاء القليلة أيسر مع أن النفس أنشط في التدرج من اليسير إلى الكثير. كما قال سبحانه **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر**[1]

ومنها تيسير تناول الموضوعات من خلال السور فإنه إذا أمعن النظر في معاني السور يرى أن الغالب منها يتركز على المواضيع المحددة.

ومنها أن غالب السور يشتمل على تلك المقاصد الأربع للقرآن وهي التوحيد والرسالة والحشر والعدل وبذلك تكون السورة كخلاصة للقرآن فإذا ما قرأ القارئ سورة ورأى من خلالها تلك المقاصد الأربعة فيكون كأنه قرأ القرآن كله.

ومنها الإشارة إلى أن طول السورة ليس شرطا في إعجازها بل هي معجزة وإن بلغت الغاية في القصر كسورة الكوثر.[2]

ومنها أن في هذا التقطيع والترتيب الذي نتج منه حجة تامة على أن القرآن ليس من عند الرسول وإلا فكان المفروض أن يكون ترتيب السور على ترتيب غير هذا الترتيب لأن الترتيب البشري يكون له أسباب ومرجحات تعلم بالنظرة الأولي البسيطة لأن الإنسان إذا رتب كتابا من تلقاء نفسه فلا يتصور أن يكون ترتيبه بلا مرجح وخصوصا في كتاب يكون على مستوى عال من الأناقة والجودة والحكمة بل يكون

---

١) القمر، ١٧/٥٤، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

٢) الزرقاني محمد عبد العظيم، **مناهل العرفان في علوم القرآن**، دار إحياء الكتب العربية، بلاتاريخ، ج١، ص ٣٤٤.

ترتيبه حسب أحد من المرجحات الآتية إما على حسب الوضع كما هو الدائم في تآليف البشر تراهم يجعلون من الأبواب أولا فأولا ما وضعوه أولا إلا نادرا من غير ذلك فحينئذ كان المفروض أن يرتب ابتداء من القرآن المكي ومن أول سورة ألقيت على الناس ولا نجد في القرآن ذلك الترتيب الزمني الذي يكون على حسب الإلقاء،

وإما أن يكون حسب القصر والطول بأن يرتب من القصير إلى الطويل أو بالعكس ونرى أن ذلك - وإن روعي في الجملة- لم يراع في كل سور القرآن تماما،

وإما أن يكون الترتيب حسب المواضيع وهذا أيضا ما لا نجده في القرآن فكما يتبين أن هذا التقطيع والترتيب ليس من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذلك يتبين أن هذا الكتاب العزيز أيضا ليس من صنعه.

وقال **الزمخشري** (ت ٥٣٨): في تقطيع القرآن إلى سور فوائد جمة:

منها أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون بابا واحدا،

ومنها أن القارئ إذا أتم سورة من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأبعث على التحصيل منه لو استمر الكتاب بطوله (كما يجد كل أحد منا ذلك النشاط أوفر إذا كان الكتاب مقطعا على أبواب و فصول)

ومنها أن الحافظ إذا حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها، فيعظم عنده ما حفظه ومنه حديث أنس: **كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا.**[1]

٣- عدد سور القرآن

إن النص القرآني يتكون من ١١٤ سورة كما ذكرنا ومن ٦٢٣٦ آية* ومن ٧٧٩٣٤ كلمة ومن ٣٢٣٦٧١ حرفا.

إن الذين يعتد بإجماعهم أجمعوا على هذا العدد لسور القرآن الكريم. وهناك أقوال أخر لم تلق من الأمة قبولا. وننقل حول عدد سور القرآن هذه الكلمة الجامعة **للزركشي** (ت. ٧٩٤ هـ) إذ يقول:

---

١) الزمخشري أبي القاسم جار الله محمود، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، مصر ١٣٩٢-١٩٦٢، ج ١، ص ٢٤١-٢٤٢.

*) هذا العدد حسبما أحصيته في المصاحف المطبوعة بالمملكة العربية السعودية المرسومة على الرسم العثماني برواية حفص عن عاصم. وهو يوافق سادس الأقوال التي ذكرها السيوطي في إتقانه و هاك تلك الأقوال الأخر في عدد الآيات فقيل ٦٢٠٤ وقيل ٦٢١٤ وقيل ٦٢١٩ وقيل ٦٢٢٥ وقيل ٦٢٣٦ وقيل ٦٢١٦ وقيل ٦٠٠٠ آية (السيوطي، الإتقان، ج ١، ص ٦٩) و رأيت بعض المعاصرين وهو إسماعيل راجي الفاروقي ذكر في كتابه أطلس الحضارة الإسلامية (ترجمة عبد الواحد لؤلؤة إلى العربية، الطبعة الأولى، الرياض ١٤١٩/١٩٩٨، ص ١٦٣) أن عدد الآيات ٦٦١٦ ولكن ما وجدنا لذلك مسندا من أقوال المتقدمين. جميع هذه الاختلافات إنما نشئت من اختلاف القراء في طول وقصر بعض الآيات.

واعلم أن عدد سور القرآن العظيم باتفاق أهل الحل والعقد مائة وأربع عشرة سورة كما هي في المصحف العثماني أولها الفاتحة وآخرها الناس. وقال **مجاهد** (ت١٠٤) وثلاث عشرة بجعل الأنفال والتوبة سورة واحدة لاشتباه الطرفين وعدم البسملة ويرده تسمية النبي صلى الله عليه وسلم كلا منهما باسم مستقل. وكان في مصحف **ابن مسعود** اثنتا عشرة لم يكن فيها المعوذتان لشبهة الرقية وجوابه رجوعه إليهم وما كتب الكل. وفي مصحف **أبيّ** ست عشرة وكان دعاء الاستفتاح والقنوت في آخره كالسورتين ولا دليل فيه لموافقتهم وهو دعاء كتب بعد الختمة.[١]

بعض هذه السور طوال وبعضها أوساط وبعضها قصار وقال ابن الحصار ترتيب السور ووضع الآية موضعها إنما كان بالوحي وهناك روايات أخرى تفيد أيضا أن ترتيب السور كان توقيفيا[٢]

نزل من القرآن بمكة ست وثمانون سورة وبالمدينة ثمانية وعشرون سورة على إحدى الروايات عن ابن عباس.[٣]

ويذكر السيوطي عن أبي الحسن بن الحصار أن عشرين سورة اتفق على أنها نزلت بالمدينة واختلف في اثنتي عشر سورة والباقي مكي باتفاق.[٤]

---

١) الزركشي محمد بدر الدين بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، عيسى البابي الحلبي الطبعة الرابعة ، ج ١ ص ٢٥١.

٢) انظر السيوطي، الاتقان، ج ١، ص ٦٤-٦٥.

٣) المصدر السابق، ج ١، ص ١١.

٤) نفس المصدر.

٤- تسمية السور توقيفية أم اجتهادية

إن تسميات السور وقع فيها خلاف لكن ليس كبيرا فنجد من العلماء المعاصرين من أمثال **محمد أبي شهبة** المصري يذكر هذا الخلاف حيث يقول: قيل (كان على **أبي شهبة** أن يعزو هذا القول إلى قائله توثيقا واطمئنانا) إنها توقيفية وعليه فنقف عند حد الوارد منها وقيل إنها اجتهادية وعلى هذا فلا يعدم الناظر أن يستنتج للسورة الواحدة أسماء أخرى غير الواردة والظاهر الأول.[١] ونجد السيوطي يذكر قولا واحدا حيث يقول: وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك،[٢] ويعلق أبو شهبة على هذا المقال انطلاقا من قول السيوطي: "من الأحاديث والآثار" بقوله: "وعلى هذا يكون التوقيف أعم من أن يكون عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة الذين شهدوا الوحي والتنزيل"[٣]، ولكن رأينا ما رأينا أن العلماء سلفا وخلفا يطلقون التوقيف على ما وقف على الله أو على النبي صلى الله عليه وسلم ولم نرهم يطلقون التوقيف - انطلاقا مما سبق من المغزى - على اجتهادات الصحابة أنفسهم[٤]، فهذا الاتجاه الجديد من أبي شهبة في معنى التوقيف شيء مبتدع لا يوافق عليه.

---

١) محمد بن محمد أبو شهبة، **المدخل لدراسة القرآن الكريم**، مكتبة السنة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٢، ص ٢٨٩.

٢) السيوطي، السابق، ج ١، ص ٦٩.

٣) أبو شهبة، السابق،

٤) راجع من السلف الزركشي، البرهان، ج ١، ص ٣٥٤، ٣٥٣، ٤٥٧، ٣٦٤،

لا ضير علينا في ذلك مهما كانت التسمية توقيفية أم اجتهادية فإن وجه الحكمة بادية فيها. ولو قبلنا أنها باجتهاد من الصحابة أو تبعهم فهو أيضا اجتهاد موفق غير خارج عن صوب الحكمة القرآنية، يتناسب مع حكمة القرآن وعظمته كما يتناسب مع نظرته الشمولية العالمية و سترى ذلك واضحا بإذن الله تعالى.

٥- حكمة تسمية السور بأسمائها

إن تسمية سور القرآن بأسمائها لا يمكن أن يتصور أنها عشوائي خال من الفائدة والحكمة وخصيصا إذا ما لاحظنا أنها توقيفية- كما أسلفنا- أي بإرشاد من صاحب الوحي صلوات الله وسلامه عليه كما قرره **السيوطي**[1]. فاستشعار وجه الحكمة فيها يكون متحتما واستكشاف وجه الدقة فيها عندئذ يكون متأكدا ووجودها يكون محققا لا غبش عليه ولا شك فيه لكن يعلمها من يعلمها ويجهلها من يجهلها.

ومع أن بعضا من السور له اسم واحد لكن البعض الغالب منها له أسماء متعددة غير أننا أعرضنا في دراستنا هذه عن التعرض لتلك الاختلافات الطويلة و التعددات الكثيرة[2] فإنها تبعد بنا

السيوطي، **تناسق الدرر في تناسب السور**، **تحقيق عبد الله محمد الدويش**، عالم الكتب، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٧، ص ٢٧-٣٠، ومن الخلف عدنان محمد زرزور، **علوم القرآن**، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٩١، ص ١٠٦-١٠٧.

١) السيوطي، السابق، ج ١، ص ٦٩.

٢) راجع الزركشي، البرهان، ج ١، ص ٣٦٦-٣٦٧، السيوطي، السابق، ج ١، ص ٧٠-٧١، أبو شهبة، السابق، ص ٢٩٠-٢٩١.

الشقة[1] واعتمدنا على ما اشتهر في بلادنا من أسماء السور في النسخ القرآنية والمصاحف المكتوبة على الرسم العثماني. ولكننا لم نهمل بعض تلك التعددات المشتهرة أيضا كما سيأتي.

رأينا ما رأينا أن قدامى العلماء المشتغلين بدراسات القرآن لم يعطوا وجه تسمية السور حقها ولم يقفوا عندها وقفة المتأني كي يستنبطوا منها معاني سامية متوائمة مع رسالة القرآن العالمية وهدايته الحكيمة وسياسته الرشيدة و أما تلك النظرة الكلية الشمولية المصفاة من جميع أسماء السور التي تنعكس منها كوحدة قرآنية على شاشة العقل صورة حضارية ورؤية عالمية نابعة من الكيان القرآني فهذا ما لا تجد إليه سبيلا في بحوث القدامى بل كل ما فيها- حسبما رأيناه- تدور حول وجه تسمية كل سورة منها بما سميت به مثلا يقول **الزركشي**- وينقله عنه **السيوطي**- : ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سميت به ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصه أو تكون معه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها[2]. ترى معي أن ما ذكره هذان العلامتان

---

١) الشقة بالضم والكسر : البعد والناحية يقصدها المسافر والسفر البعيد.

٢) الزركشي، البرهان، ج ١ ، ص ٢٧٠ ، السيوطي، السابق، ج ١ ، ص ٧٣-٧٤.

جزاهما الله عن كتابه خير الجزاء، حول حكمة تسمية السور لا يعدو ما نقلناه فوق من وجه التسمية الانفرادية أي تسمية كل سورة على حدة. أما تلك النظرة الاستيعابية بحيث تنعكس من الجميع- المكون من أربعة عشر جزأ- صورة متوحدة في المعنى ومتحدة في المغزى مشيرة إلى نظرة شمولية متوائمة مع رسالة القرآن العالمية فهذا ما لم نجد له عينا ولا أثرا.

أما العلماء والباحثون المعاصرون الذين تدور بحوثهم في فلك القرآن فلم نجد فيهم أيضا- حسبما ما فحصنا وتتبعنا- من يحوم حول هذا الحمى سوى أفراد قليلة منهم: **محمود عايد الرشدان** عميد كلية العلوم التربوية في جامعة الزرقاء الأهلية بالأردن حيث مس الموضوع مسا خفيفا في مقال له جيد حول النظام المعرفي في القرآن الكريم نشر في مجلة إسلامية المعرفة السنة الثالثة العدد العاشر فلننقل نص كلمته هناك حول أسماء السور ثم نيمم وجهنا نحو ما رأينا:

"ومما يدل على تنوع النظام المعرفي القرآني وشموله أسماء سور القرآن الكريم حيث نلاحظ أن هذه الأسماء أكثر ما تشتمل على أصناف أربعة:

١ـ الظواهر الإنسانية والاجتماعية: وهناك أكثر من ست و عشرين سورة تدل أسماؤها على هذه الظواهر مثل **التوبة، الحج، الأحزاب، الشورى، المجادلة، الصف، المنافقون، الطلاق، الهمزة، التكاثر، المطففين**...وغيرها.

٢ـ الظواهر والآيات الكونية: وهناك أكثر من اثنتين وعشرين

سورة تدل أسماؤها على هذه الظواهر مثل: **الرعد، النور، الدخان، النجم، القمر، التكوير، الانفطار، البروج، الزلزال**... وغيرها.

٣ـ **الأقوام والأمم**: وهناك أكثر من أربع عشرة سورة تدل أسماؤها على هذه الموضوعات مثل: **يونس، هود، يوسف، إبراهيم، مريم، سبأ، الروم، قريش**... وغيرها.

٤ – **أسماء الحيوانات وما يتعلق بها: مثل البقرة، الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت، الفيل**... وغيرها[1]

إن هذه المقاربة جيدة حسنة متوائمة مع روح القرآن ورسالته العالمية وفي الوقت نفسه تدل على أن مسلمي عصرنا يمشون- وإن كان وئيدا- إلى آفاق قرآنية جديدة متطلعين منها إلى شهود حضاري عالمي بديل مما يبث روح الأمل فينا جميعا نحو مستقبل إسلامي مشرق فإن تقدمنا إلى الأمام ولحوقنا بركب الحضارة الإنسانية وخصيصا في يومنا هذا مما لا سبيل إليه إلا بأن نقدم للإنسانية صورة حضارية مشرقة مستوعبة تجد الإنسانية فيها بغيتها من الغناء المادي والطمأنينة الروحية إلى العدل الاجتماعي إلى حماية حقوق جميع من كان في حمايتنا وتحت سلطتنا إلى التنمية الاقتصادية والاجتماعية- كما أسلفنا- فإذًا لا بد للإنسان المسلم من أن يتحرك تحركا إيجابيا سليما للقيام بهذا الدور الهام المتحتم فإن التخطيط لتحشيد القوى المعنوية والمادية والإنسانية والمعرفية

---

١) محمود عايد الرشدان، **حول النظام المعرفي في القرآن الكريم**، مجلة إسلامية المعرفة، السنة الثالثة، العدد العاشر، خريف، Maryland USA ١٩٩٧ ء ٣١.

في سبيل بناء بنياننا الذاتي والاجتماعي والحضاري أصبح من الضروريات الملحة.[1]

ولكن نرى أن الأستاذ **محمود عايد الرشدان** طوى المسئلة طيا وأجملها إجمالا فلو فصلها بعض التفصيل لكان أوفق بمقاله القيم حول النظام المعرفي في القرآن الكريم.

وكنت قبل الاطلاع على مقال **الرشدان** ببرهة من الزمن يشغل فكري بين حين وآخر وجه دلالة أسماء سور القرآن على الرؤية الحضارية القرآنية وكنت أتحدث مع زملائي عن ذلك مرة بعد أخرى فلما رأيت مقال **الرشدان** قوي عزمي في ذلك لأن **الرشدان**- مع أنه شكر الله سعيه فتح لي شيئا من الأفق في ذاك الموضوع الذي طالما انشغل به فكري- طوى- كما أسلفنا- كثيرا من الجوانب وأجمل وأوجز وترك ما لا بد منه من التفصيلات التي هي روح الموضوع بحيث يصعب معه بعض الصعوبة أن يستفاد منه الرؤية الحضارية القرآنية فحاولت أن أقيد ما سنح لي في ذلك متوكلا على الوهاب المنان ومستمدا منه التوفيق والإحسان.

وبعد أن انتهيت من عملي هذا اطلعت على ترجمة تركية لرسالة لعالم العلوم الاجتماعية **علي شريعتي** الإيراني باسم **نظرة في القرآن** فرأيت أن أشار قبلي بما يناهز أربعين عاما إلى استنباط نظرة

---

١) محسن عبد الحميد، **الإسلام والتنمية الاجتماعية**، دار المنارة، الطبعة الأولى، جدة، بلا تاريخ، ص ١٥.

حضارية من أسماء السور تقارب ما ارتأيناه هنا لكن مع إجمال بلا تفصيل وإبهام بلا تبيين فرأيت أن أدخله هنا بواسطة جهاز الحاسوب الآلي استيفاء للموضوع حيث إني التزمت أن أذكر هنا جميع ما اطلعت عليه حول تسميات السور مما ذكره من قبلي والمعاصرون.

هذا نص ما ذكره **علي شريعتي** في تلك الرسالة (اقتبسناه من الترجمة التركية):

"فلنبحث الآن في القرآن كي نظفر بالنزعة/النظرة القرآنية المأخوذة من أسماء السور وتقسيم مواضيعها وعن تثبيت أن أيا من المواضيع توجد في السورة بكثرة وأيا منها توجد بقلة، وفي نتيجة البحث نرى أن القرآن اهتم حسب الترتيب بهذه المواضيع التالية:

المواضيع الاعتقادية والفلسفية والفكرية في سبع وعشرين سورة،

مواضيع العلوم الطبيعية في أربع وعشرين سورة

" **الإنسانية** في اثنتين وعشرين "

" **السياسية** في إحدى وعشرين "

" **الاجتماعية** في تسع عشرة "

" **الأخلاقية** في ثلاث عشرة "

" **التاريخية** في تسع "

" **الرموزية** في أربع "

" **العبادات والأحكام** في أربع "

" الاقتصادية في سورتين[1]

إن شريعتي مس الموضوع مسا لطيفا وإن فصل شيئا من التفصيل الموضوعات القرآنية من خلال سورها. ولكن هو أيضا لم يفصل النظرة القرآنية المستنبطة من أسماء السور تفصيلا وافيا كما أسلفنا بل أجمل الأمر إجمالا فإنه لم يبين أن اسم أي سورة يشير إلى أي موضوع أو داخل تحت أي قسم أو أي محور.

1) Ali Şariati Kur ana Bak 3. Bas. Çev. Ali Seyyidoğlu Fecir yay. Ankara 1992 s 122.

المبحث الرابع نظرة القرآن الحضارية من خلال أسماء سوره

وفيه ثلاث محاور

إن لكل شيء إقبالا وإدبارا؛ وإن لهذا الدين إقبالا وإدبارا

حديث نبوي

تمهيد

إن أسماء سور القرآن الكريم تدل مع إمعان النظر دلالة واضحة على الهيكل الحضاري للإسلام فإن عناصر الحضارة (الثانوية)* حسبما ارتآه ويل درانت (Will Durant) أربع هي: الشؤون الاقتصادية و النظام السياسي و التقاليد الأخلاقية والفنون الجميلة.[1]

إذا لاحظنا المسئلة من هذه الناحية وجدنا أن أسماء السور القرآنية تعكس هيكل الحضارة القرآنية بصورة ملموسة واضحة لأن أسماء السور لم تترك جانبا من جوانب الحياة المادية والروحية، الفردية والاجتماعية وغيرها إلا وألم بها فأسماء السور فهرست صغير أو قل بكلمة أخرى صورة فطوغرافية جامعة لعناوين ورموز رسالات القرآن الخالدة العالمية التي قدمها للبشرية.

إن أسماء السور كوحدة قرآنية تتمحور بما تنم عنه من المعاني في محاور رئيسية ثلاث تدل تلك المحاور من ناحية على نظرة القرآن

---

* لعل القارئ الكريم يتذكر أن تسمية هذه العناصر بالعناصر الثانوية إنما هي وجهة نظرنا.

1) Will Durant Medeniyetin Temelleri Türkç. Nejat Muallimoğlu Birleik yay. İst. 1996 s. 13

الحضارية وتضم من ناحية أخرى بين جنباتها منضما بعضها مع البعض الدلالة على أكثر جوانب الحياة الفردية والاجتماعية والاقتصادية والتنظيمية و العسكرية والأخلاقية من الاتجاه القرآني كما تتضمن الكثير من ملابسات الكون والطبيعة والبيئة والحياة و غيرها وكما تنم تلك التسميات عن مقاصد القرآن الأربع- التوحيد والرسالة والحشر والعدالة المنبثة في جميع جوانب القرآن[1] التي يهدف القرآن تثبيتها في العقول والقلوب فينسجم بذلك الأسماء مع المسميات انسجاما تاما يدل على أن هذا القرآن من لدن حكيم خبير حيث إن الإيتاء في جوّ مقتم بغبار الجهل ودخان الجحد ووسط مظلم بدياجير الأساطير وغياهب الأباطيل مثل ذلك الوسط الذي نزل فيه القرآن إن الإيتاء في ذاك الوسط بمجموعة من التسميات التي تضم بين جوانحها غالب صفحات الحياة مع تلك النظرة الدقيقة عن الكون والطبيعة لا يمكن إلا بتوقيف من طرف القدير الخبير الذي لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء أو بإلهام منه سبحانه وسترى ذلك واضحا إن شاء الله.

وقبل العوم في غمار ما نحن بصدده لا بد من أن نبين أموراً لا بد منها:

١- إن القرآن من حيث إنه كتاب الله الوحيد الذي جاء لهداية البشر إلى سعادتي الدنيا والآخرة فهو ينبئ عن الربوبية والعبودية والأولى والأخرى والحياة و الممات والطاعة والمعصية وعن الأدلة التي

---

١) النورسي سعيد بديع الزمان، **رجتة العلماء**، مطبعة النور أنقره ١٩٥٨ ص ٩.

تدل على ربوبية الصانع من مشاهد الكون وتقلبات الحياة الطبيعية والإنسانية ويذكر تنظيم الحياة ويتركز على الأخلاق الحسنة وصلات العبد مع ربه وأسرته وذويه وسائر بنى جلدته، وبكلمة عابرة إن القرآن الكريم يذكر الوجود وموجده ويذكر خاصة هذا الكوكب الذي نعيش على ظهره ومن هو أعقل من فيه - وهو الإنس والجن - ووظائف الإنس الاستخلافية في تعميره ومسؤولياته تجاه ربه وأبناء جنسه وبيئته التي يعيش فيها.

القرآن في هذا الصدد يتناول جميع ما ذكر بأسلوب سهل مرن صالح لفهم كل طبقة وجماعة ومجتمع - كل حسب مستطاعه - ولا يخوض في مواضيعه تلك بأسلوب علمي متركب من الأصول والقواعد المعقدة، متكون من التحديدات والتعريفات العلمية المعضلة، مؤلف من العبارات العلمية المنغلقة التي لا يفهمها إلا الخاصة، ولا يصوغ القرآن مسائله في قالب المصطلحات العلمية والفنية المشكلة النابية، ولا يبوبها على الأبواب والفصول النائية، على حد تخصيص كل باب أو فصل بموضوع واحد كما نشاهد ذلك سائدا على طراز التأليف العلمي البشري قديما وحديثا، ولا يذكر ما يعتني به من الأمور المعرفية والأحوال الطبيعية والشؤون البيئوية والأوضاع الاجتماعية في صورة المسائل المقسمة إلى الأقسام والأنواع والفصول والأبواب، بل إنما يعرض المسائل عرضا ويتناول المسائل تناولا من غير تخصيص كل مقطع على حدة بمسائل محددة. فترى السورة القرآنية في تناولها لشتى المواضيع

المتداخلة والمسائل المتشابكة والمشاهد المتراكبة والمناظر المتآلفة تشبه الحديقة التي تشتمل على مختلف الأزهار ومتنوع الورود في مختلف الصور والهيآت. ويهتم القرآن أثناء ذلك بالعرض السهل المفهم الذي ينسجم مع الواقع والذي يهدف الوصول إلى ملا يين البشر من شتى المستويات في مآت العصور وشتى بقاع الأرض من شرقها إلى غربها من دون تفرقة بين الأقوام والشعوب. وفي سبيل هذا العرض لا يبالي القرآن بذكر النظرات العلمية أو الفلسفية أو الاجتماعية أوالفنية، بل يهملها إهمالا فان عرض تلك النظرات العلمية في صورتها الأكاديمية أو الاصطلاحية المعقدة التي تخاطب قطاعا خاصا من الإنسانية والتي يقتضي فهمها أن يكون لمخاطبيها مستوى علمي وثقافي وفكري بحيث لا يفهمها إلا ذلك القطاع الخاص إن ذاك العرض يتنافى مع رسالته العالمية الهادفة للوصول إلى جميع بني البشر عوامهم وخواصهم، علماءهم وجهالهم، متطوريهم ومتأخريهم، وحتى قل أذكيائهم وأغبيائهم. فمن هنا لا ترى في البيان القرآني المعجز محلا لتلك الأبواب والفصول والقواعد والأصول ولا ترى مناسبا مع هدفه تلك التحديدات والتعريفات والمصطلحات في ضمن ما اعتاده الأوساط العلمية من التبويبات والتنويعات والتقسيمات فعرضه كأسلوبه من خصائصه القرآنية الفريدة التي تختص به وحده ألا يعلم من أنزل وهو اللطيف الخبير.

٢- ثم إن السور القرآنية المنقولة إلينا بتواتر قطعي التي لا يجاريها ولا يدانيها في قطعيتها أي نص أو كتاب آخر تأخذ أسمائها إما من أول كلمتها[١] كما في: **ق وص**، أو كلمة ذكرت في أول جملها كما في: **الملك وفصلت**، وإما من بطل قصة غريبة ذكر فيها كما في: **النمل والبقرة ومريم ولقمان والروم**، وإما من اسم نبي ذكر فيها مجادلته مع قومه **كيونس ويوسف وهود ونوح**...، وإما من اسم يتبوأ موقعا هاما باعتبار ما مر فيه ذكره **كالنحل والعنكبوت والكهف والأعراف والفرقان والإسراء والشعراء والقصص والأحقاف**، وإما من ذكر مجموعة متجانسة فيها كما في: **الأنبياء**، و إما لملابسة أن ذكر فيها أحكام جنس أو أجناس **كالنساء والأنعام**.[٢] ومع

---

١) أجد هنا ضرورة للإعراب عن فكرة تناوبني بين حين وآخر حول تسميات بعض السور بأول كلمة وقعت في صدرها من نحو **تبارك وسبحان وحم وتبت وسبح** وهي أن أسماء تلك السور التي لم يرد لها اسم غير اسمها المأخوذ من أول كلمتها كما في **ق وص** توقيفية وأما تلك السور التي لها أسماء غير تلك الأسماء التي أخذت من أول كلمة في صدرها **كمسد** فغالب الظن عندي أن تلك التسميات بأول كلمها نشأت في الاستعمال ومن طرف القائلين. والله أعلم بحقيقة الحال مع أننا نرى الزركشي يبين عن شكه في هذا الموضوع بقوله: وينبغي البحث عن تعدد الأسامى هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثاني فلن يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها وهو بعيد (الزركشي، ج ١ ص ٣٦٧) فنقول تجاه هذا إن التسمية بأول كلمة لها معنى ومناسبة قوية أكثر من غيرها حيث إن وقوعها في الصدر يجعل الانتقال إليها سهلا فيقع بها التسمية بغلبة الاستعمال كما في ابن عباس وابن مسعود والله أعلم.

٢) انظر الزركشي، ج ١، ص ٢٧٠-٢٧١، السيوطي، ج ١، ص ٧٤.

هذا قد يرد ذكر اسم أكثر من نبي في أكثر من سورة ولكن إنما يأخذ السورة الواحدة منها اسمها من اسم نبي واحد منهم فقط. وحول هذا الموضوع يذكر السيوطي ما يلي: فإن قيل قد ورد في سورة هود ذكر نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى فلم خصت باسم هود وحده مع أن قصة نوح فيها أوعب وأطول؟ قيل تكررت هذه القصص في سورة **الأعراف** و سورة **هود والشعراء** بأوعب مما وردت في غيرها ولم يتكرر في سورة واحدة من هذه السور الثلاث اسم **هود** كتكرره في سورته فانه تكرر فيها في أربعة مواضع والتكرار من أقوى الأسباب التي ذكرنا. قال فإن قيل فقد تكرر اسم نوح فيها في ستة مواضع قيل: لما أفردت لذكر نوح وقصته مع قومه سورة برأسها فلم يقع فيها غير ذلك كانت أولى بأن تسمى باسمه من سورة تضمنت قصته وقصة غيره.[1]

٣- وأخيرا كما يوجد لبعض السور أسماء متعددة كذلك يوجد للفرقان الحكيم أيضا أسماء متعددة فمثلا نجد **الزركشي** يذكر للقرآن خمسا وخمسين اسما[2] ولكن حيث إن لنا وجهة أخرى لا نتناول بالذكر موضوع أسماء الفرقان الحكيم ووجه تعددها والحكمة في كل تسمية منها. ولكن لا يغيبنّ عن بالنا أن جميع تلك الأسماء الفرقانية ذكرت في الفرقان الحكيم والغالب منها أوصاف أضفاها الله على كتابه المجيد.

---

١) السيوطي، ج ١، ص ٧٤، الزركشي، ج ١، ص ٢٧١.

٢) الزركشي، ج ١، ص ٣٧٠-٣٧٣.

١ - إن الكلمات التي استعملها القرآن ثنايا بينات آياته مقيدة بالدلالة على ما ورد في القرآن كما في مدلول كلمة "الظلم" المفسر في القرآن بالشرك وبينه الرسول صلى الله عليه وسلم أيضا أو مقيدة بما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم كالوارد عنه في تفسير "الخيط الأبيض والأسود" أو مقيدة بما حدده السياق كما في الكلمات الداخلة في الوجوه والنظائر من مثل "الذكر" و"الرحمة" و"النور" و"الهدى" وغيرها، فإن اختلاف مدلولات تلك الكلمات في شتى المواضيع القرآنية - مع أن معانيها اللغوية معروفة محدودة - إنما هو بحسب السياقات القرآنية المختلفة، أو مقيدة بما حدده اللغة كما في جل ما يفسره القوم في القرآن من الكلمات إذا لم يحدده أحد من الأمور السابقة.

إن تلك الكلمات التي جعلت أسماء للسور القرآنية مأخوذة من السور التي جعلت أسماء لها فالأولى بها معانيها القرآنية المارة في السور المسماة ولكنها حينما تكون أسماء للسور تكون كلمات مفردة غير مفيدة الفائدة الكلامية المعروفة عند النحاة فلا محل لها للإعراب، لأنها حينئذاك تكون مقطوعة الصلة عن سياقها وموقعها الذي كان لها في الجملة كما ترى النحاة يذكرون في عناوين الأبواب أنها مفردة لا محل لها من الإعراب.

فانطلاقا مما أسلفنا ليس هناك لا من ناحية النصوص ولا من ناحية الفلسفة اللغوية مجبر لنا أو ملجأ إلى أن نتقيد في منطلقنا في بيان

معاني الكلمات التي جعلت أسماء للسور بهذا المعنى أو ذاك عدا اللغة. نعم إن كونها في القرآن قرينة قوية على معناها السياقي ولكن ما تكتسبه في مجموع التسميات السورية من تلائم وتوافق مع أخواتها أيضا قرينة على اتجاهنا فإن من البداهة بمكان أن جميع ما في القرآن هدى ورحمة للناس والمؤمنين. فإذاً ليس من المعقول وليس من المنطق في شيء أن يكون هناك أربع عشرة كلمة متعلقة بالقرآن وعناوين على جميع ما في ضمن ذاك الكتاب العزيز ثم لا يكون لها سواء في نفسها أو مع غيرها وجه حكمة وهداية.

٢- جعلنا خطتنا في استنباط نظرة القرآن الحضارية من أسماء السور كما يلي: نظرا إلى أن الأنسب أن يكون القرآن هو المنطلق الأول لنا في أخذ المعاني من التسميات نرجح أولا السياق القرآني لتلك الكلم التي جعلت اسما للسور ما أمكن ذلك. فإن لم يتيسر ذلك انطلقنا من المعنى اللغوي الأعم من الإطلاق القرآني والأقرب له، إيفاء باستكمال نظرة القرآن الحضارية الشمولية المنعكسة من أسماء سوره، كما سترى ذلك إن شاء الله تعالى.

٣- إننا في تناولنا لوجه تسمية كل سورة بما سميت به من الأسماء اعتمدنا- كما أسلفنا- على ما اشتهر من الأسماء في مصاحف بلادنا -المكتوبة بالرسم العثماني على رواية حفص عن عاصم- حتى لو اشتهر في بلادنا اسمان لسورة بينا وجه كل منهما على التفصيل كما في سورتي القتال والمؤمن حيث اشتهرتا باسمين اثنين في بلادنا: الأولى

ب : **محمد والقتال** والثانية ب : **المؤمن وغـــافر** فذكرنا لكل من الاسمين وجهه وحكمته حسب طاقتنا والله هو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

٤- إن كثيرا من الأسماء له اتجاهات عديدة يحمل أكثر من وجه دلالة في نظرة القرآن الحضارية الشمولية كالنحل له صلة قوية بالبيئة، وله صلة بالاقتصاد، وله صلة بالطبيعة وكالشمس لها صلة قوية بالطبيعة والبيئة. ففي مثل هذه الأسماء رغما من أننا تركزنا على جانب مما وجدنا صلته أقوى بمدلول الكلمة، ولكن غب ذلك ما تركنا الإشارة إلى الجوانب الأخر أيضا. وفي أثناء البحث سنشير إلى ذلك إن شاء الله تعالى.

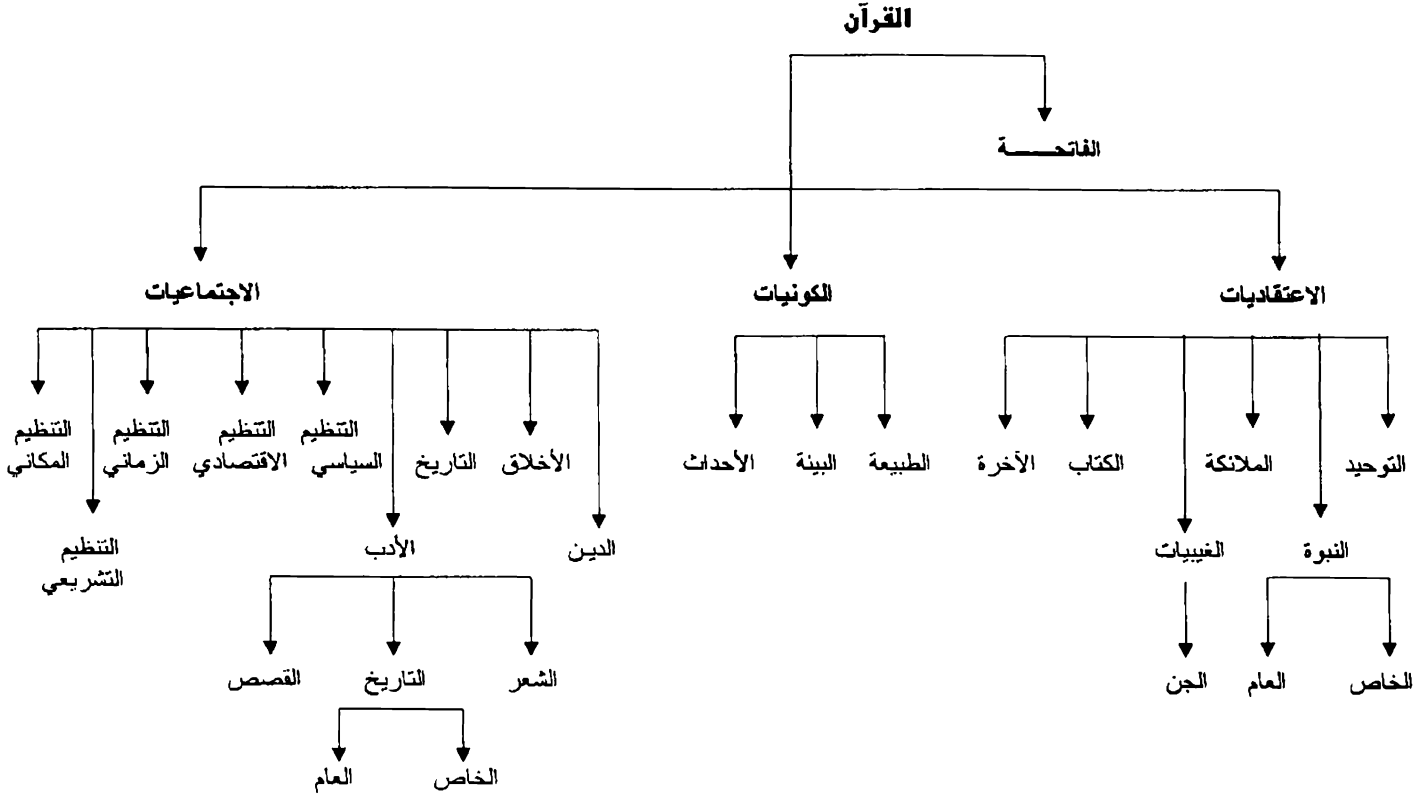

 # جدول: المواضيع التي تشير إليها أسماء سور القرآن الكريم

إن الفاتحة وهي اسم لأول سورة في القرآن في الترتيب الوضعي لا الزمني ولا النزولي تدل بمغزاها على الافتتاح والابتداء فهي فاتحة الكتاب المجيد ومفتتح السور العزيزة فيتوائم تسميتها لموقعها وموقعها لاسمها. لكل شيء فاتحة وفاتحة الكتاب المجيد هي سورة الفاتحة. كما أننا نفهم من تلك التسمية من أول نظرة نلقيها على المجموعة السورية أننا أمام أمر هام وكتاب عزيز عظيم يحق أن يكون له فاتحة فائحة فإن الفاتحة إنما تكون للأمور الهامة وللكتب القيمة والأسفار المجيدة. أما تلك الأمور السفاسف والكتب التوافه فلا يكون ولا يجدر أن يكون لها فاتحة.

ونجد للتسمية بالفاتحة معنى حضاريا أيضا حيث ان تسمية أولى سور القرآن بالفاتحة تجعلنا مواجهين لمبدأ التنظيم والتنسيق لأن جعل الفاتحة لأمر هام حدث نابع من الاهتمام بالنظام والتنظيم وجعل كل شيء في محله المناسب والأخذ بالأمر المناسب في زمنه المناسب ومحله المناسب. وهذا لعمري من أهم مواصفات العقلية الحضارية والوعي الحضاري. والأخذ بمبدأ التنظيم يأتي للفرد والجماعة بالخير والبر والبركة الكثيرة في كثير من الأمور. وسنتناول ذلك في محور آخر بإذنه تعالى.

إن التسمية السورية القرآنية عدا تسمية الفاتحة تتمحور- كما أسلفنا- في ثلاث محاور رئيسية :

١- المحورالأول الاعتقاديات

تمهيد

الاعتقاد أوالعقيدة - سواء كانت حقة أم باطلة- من أهم الدوافع الإنسانية التي تدفع الإنسان إلى الكثير من الأحداث والأعمال والنشاطات والمغامرات والتضحيات وتدفعه إلى الكثير من فعل الخيرات وارتكاب المنكرات وتحضه على فعل الكثير من الحسنات وتزجره عن كثير من السيآت. العقيدة بكلتا صورتيها من أعظم محركات الإنسان إلى الحركة الدؤوب والنشاط المستمر والعمل المضني والتضحية الدهشة وخصيصا إذا كانت العقيدة حقة ذات بنيان قوي من العقل والحكمة والمنطق الرشيد بما يصاحبها من الثقة العميقة في النفوس والطمأنينة الراسخة في القلوب فعقيدة كهذه قلما يقاومها في صلابتها وقوتها شيء آخر وقلما يوجد شيء لا يستطيع المؤمن بها أن يفعله.

ثم إن من أهم الأمور التي تستطيع أن تجمع شتات الناس ومختلفيهم على صعيد واحد العقيدة فهي تستطيع أن تجعل منهم يدا واحدة يرمون عن قوس واحد يجمعون على جلب مصالحهم و يتفقون على درء مفاسدهم ومنها يجعلون لهم أحسن المناهج وأفضل القواعد التي يسلك الناس على ضوئها. ويتخذون منها أهم الأسس التي بها يتفاهمون ومنها يتفاعلون وعليها يتناصحون. فالعقيدة من أكبر الحوافز

البشرية التي تحفزه إلى الأمام وتصنع منه نموذجا إنسانيا رائعا وكذا أخصب الأرضيات التي تزرع عليها بذور الحضارات هو أرضية العقيدة. فلذا ترى أن اثنتين من بين تلك الحضارات الخمس التي لا تزال على قيد الحياة تنتميان إلى العقيدة وتستقي عروقهما منها الحضارة الإسلامية والحضارة الأورثوذكسية . فالعقيدة لها دور كبير وإن لم يكن كل الدور في بناء الحضارات ورقيها وتطورها.

إن القرآن الكريم يهدف عبر جميع آياته وسوره ترسيخ مقاصد أربع في قلوب المؤمنين أهمها التوحيد والثلاث الأخرى إنما تبتنى عليها وهي الرسالة والعدالة والحشر[1] فمن هنا نرى القرآن يهتم ببيان وإثبات عقيدة التوحيد اهتماما زائدا فيجول في شتى صفحات هذا الكون المترامي الأطراف ملتقطا من هنا وهناك دلائل الربوبية وآتيا من هنا وهناك بالبراهين الساطعة والأدلة القاطعة والحجج الدامغة التي تبين عظمة الصانع وتدل بصريحة وصراحة على توحيده وبطلان الكفر والشرك من أساسه: قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]

---

١) النورسي، السابق، ص ٩.

٢) البقرة، ١٦٤/٢.

القرآن الكريم ككونه كتاب هداية يهدف إنقاذ الإنسانية من أوحال الكفر وتطهيرها من أوساخ الشرك وتنظيفها من أدران الجحود من أخص خصائصه الطبيعية أن يصرف أكثر مساعيه ويكثف جل جهوده لتقديم العقيدة الحقة إلى الناس في صورة إقناعية يقتنع بها ذووالعقول الكاملة و أسلوب مبرهن يتقبله أولو الألباب الفاضلة جاعلا في خلال ذلك البيان القاهر والعرض الباهر نظامه المعرفي ونظرته العالمية التي تلقى الضوء على المناهج التي لا بد لنا منها ونحن نتحمل تلك الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا. وحينما يقدم العقيدة الحقة لعالم البشرية لا يهمل أمر مسيرة الحياة الإنسانية بلا تنظيم ولا ترتيب فيقدم الأسس اللازمة لتسيير الحياة الاجتماعية وتنظيمها جاعلة في ضمن ذلك التقديم منهجية سليمة يتخذها معتنقو تلك العقيد ة التوحيدية منهجا لهم في مقاربتهم للكون والحياة والإنسان وكل ما له صلة وملابسة بها من الظروف والأحداث، وكل هذا نجده بشكل زائد في العرض القرآني المعجز إن في عرض الدلائل التوحيدية أو غيرها:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ۞ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۞

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

وبعد ما أسلفنا عن صلة العقيدة المتينة بالحضارة ودورها العظيم في بنائها لا حاجة بنا إلى أن نبين ما لكل واحد من جزئيات وعناصر العقيدة من صلة بالحضارة فإن ما ينسب للكل ككل منسوب إلى جزئه أيضا ثم إن الكل لا وجود له مستقلا من سوى وجوده في ضمن أجزائه، فما له كان لها. فالبنيان العقدي إنما يلعب ذلك الدور الهام في بناء الحضارة بما تحتويه في ضمنها من الأركان والعناصر والجزئيات لأن بها قوامه ومنها قيامه.

إن الاعتقاديات التي قدمها القرآن للبشرية ذات فروع كثيرة وفنون وفيرة لا تنحصر في أصل واحد فإن تلك العقيدة الحقة التي أتى بها القرآن جامعة شاملة لعالم الغيب والشهادة متضمنة لأمور الدنيا والأخرى تحتوية على جل الغيبيات التي يتطلب الله سبحانه من عباده أن يؤمنوا بها لحكم كثيرة يعلمها هو.

ومن طريف الحكمة القرآنية المنعكسة من خلال تسميات السور بأسمائها أن محور الاعتقاديات من محاور أسماء السور تشتمل على أركان الإيمان الواردة في الكتاب من مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

---

١) الروم، ٣٠/٢٠-٢٤.

٢) البقرة، ٢/١٧٧.

لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾[2] والواردة في السنة من مثل ما رواه مسلم: **كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس فأتاه رجل فقال ما الإيمان؟ قال: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر"**[3] فناسب ذلك أشد المناسبة كون محور الاعتقاديات في التسمية السورية القرآنية أيضا منقسما في حد ذاته إلى فروع خمس:

الفرع الأول التوحيد

إن الحضارة الإسلامية حضارة أسست من أول يوم على التوحيد والتقوى فالصبغة التوحيدية ترى بارزة واضحة على جميع تلكم الأمور التي لها مساس بالحضارة كما سبق أن ذكرنا ومفعول تلك العقيدة التوحيدية يحوز دورا كبير في بناء صرح الحضارة الإسلامية كما هو ظاهر من نسبة الحضارة الإسلامية إلى الإسلام الذي إنما صار إسلاما مقبولا عند الله بالتوحيد ومعالم التوحيد الصافية المصوغة في شكل الأوامر والنواهي الإلهية. فلا إسلام بلا توحيد كما لا توحيد بلا إسلام. وتلك

---

١) البقرة، ٢/٢٨٥.

٢) النساء، ٤/١٣٦.

٣) مسلم، الإيمان/٢. روى البخاري أيضا الحديث المذكور لكنه لم يذكر في روايته لفظة "وكتابه" (انظر البخاري، الإيمان/٣٧) فلذا آثرنا رواية مسلم.

الصبغة التوحيدية تلمس آثارها لمسا قويا في كثير من تلك المؤسسات والعناصر والأحداث والنشاطات والفنون والآداب والعلوم والمعارف التي يشكل مجموعها البنيان الحضاري الإسلامي.

إذا عمقنا النظر وأمعنا الفكر في أسماء السور كي نظفر بنظرة القرآن التوحيدية من خلال أسماء سوره وجدنا ذلك ظاهرا فإننا نجد أنفسنا في التسمية أمام جوانب أساسية من التوحيد لا بد للعباد الموحدين منها ف: **الإخلاص**. يشير إلى روح التوحيد وأهم مقوماته، حيث يدل على إخلاص العقيدة و العبودية والطاعة لله الواحد الأحد لأن العقيدة إذا خلت من الإخلاص ولم تتصف للواحد الأحد بأن شابها شيء من معاني الشرك لا يعدل عند الله شيئا كالذي يقوله المشركون: ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾[1] كذلك العبودية والطاعة إنما تقبلان بالإخلاص فحسب: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾[2] فعندئذ يفهم بصورة ملموسة ما للإخلاص من الأهمية سواء في قبول العقيدة التوحيدية أو في قبول الطاعات والعبادات لدى الله كما تتناسب تلك التسمية الجامعة مع سر جعل هذه السورة تعدل ثلث القرآن كما روى عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن**"، وعنه أيضا قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم

---

١) الزمر، ٣/٣٩.

٢) الكهف، ١١٠/١٨.

لأصحابه: أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم و قالوا أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال الله الواحد الصمد ثلث القرآن.[1]

كما أن هناك أسماء لسور أخرى تدل على جوانب أخرى هامة للتوحيد: حيث ان من أهم سمات توحيد الله هو تقدسه عن النظير والشريك والمثيل وترفعه عن جميع النقائص والريوب والعيوب وتنزهه عن كل الأمثال والأنداد والأضداد فيدل على جميع معاني التقدس الإلهي تلك اسم: **الأعلى** بمعنى علوه عن جميع النظائر والأنداد والنقائص والعيوب والأوهام التي لا تليق بالربوبية.

كما أن من أهم مستلزمات الألوهية أولا والتوحيد ثانيا هو أن يكون ذاك الإله الموحَّد خالقا مبدعا لهذا الكون فاطرا له بكل ما تحمله لفظة "فطر" من المعنى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2] ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾[3] ﴿وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾[4] يشير إلى ذلك المعنى اللازم المتحتم للألوهية والربوبية التسمية ب: **فاطر**.

ثم إن من شأن الخالق أن يكون رحيما بعباده غافرا لذنوبهم كما يفصح القرآن عن ذلك في كثير من آيه المجيدة وكما يعرب عن ذلك أيضا

---

١) كلا الحديثين من البخاري، فضائل القرآن/١٣.

٢) الأنعام، ٧٩/٦.

٣) الأنبياء، ٥٦/٢١.

٤) يس، ٢٢/٣٦-٢٣.

الاعتناء القرآني بالرحمة بذكرها بكثرة في كثير من المواضع حيث يبلغ عدد مواقع ذكر الرحمة في القرآن ككونها وصفا مسندا لله- إن في قالب مصدر كرحمة أو قالب صفة كأرحم والرحمن والرحيم- يبلغ عدده ثلاثمائة وعشرين مرة. وهذا من حفاوة القرآن البالغة بالرحمة.وفيه بشرى كريمة لعباده المذنبين كي يكونوا على أمل ورجاء من رحمة ربهم فلا ييئسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون. ونجد من الجانب الآخر أن القرآن يذكر فيما يقرب مأتى مرة الغفران مسندا إلى الله في صورته الإيجابية فيظهر من هذين الرقمين لذكر كلتا الصفتين في القرآن مسندتين إلى الله جل وعلا مكانة الرحمة والغفران في النظرة القرآنية الإسلامية التوحيدية. ودلالة على شيء من ذاك الاهتمام أخذ كلا الوصفين الرحمة والغفران محلهما في التسمية السورية ضمن اسمي : الرحمن و غافر.

واهتمام القرآن البالغ بالرحمة يجعل المؤمنين أيضا يهتمون بها في مشوارهم الحضاري وبذلك يظهر كيانها الجماعي وأثرها الاجتماعي فيما بين الناس بصورة أكثر في المعاملات اليومية و التصرفات الاقتصادية والملابسات الأخلاقية والعلاقات الثنائية والتخطيطات الجماعية وكل تلك المجالات من الساحات التي يظهر فيها الدور الذي تلعبه الرحمة أكثر كما أن ظهور صبغ الرحمة في جميعها يجعل مساهمة أبناء البلاد في تطوير بلادهم في المجالات المدنية وترقيتها في الساحات العلمية والمعرفية أضعافا مضاعفة فإن الرحمة إذا عمت بين أفراد مجتمع ما وصارت

شعارا جماعيا لهم وإذا وثقوا بالتراحم التام بينهم ازداد عطائهم ونمى إنتاجهم وعم خيرهم وتم برهم وشمل بركتهم وأدى ذلك إلى رفع مستوى الحياة الاجتماعية في البلاد أكثر فأكثر. فإن من موجبات تلك الرحمة المتغلغلة[1] في كيان المجتمع وآثاره الإيجابية البنّائة أن يتعاون الناس في جميع الأمور الخيرية من التعاون في رفع الأحمال التي تعاني منها الأمة، إلى التكافل الرشيد والتساند السديد في التخطيط والتنظيم لا لصالح المسلمين فقط بل لصالح جميع الإنسانية، وإلى التفاهم والتكاتف والتضامن ضد جميع ما يضر الناس أو يهدد مصير الإنسانية. فيا ترى! هل تظن أن فكرة صنع القنابل الذرية أو الأسلحة البيولوجية أو..أو..أو..خرجت من قلب أو قلوب تبض[2] بأية رحمة وشفقة على الناس الآخرين أو حتى على البهائم وسائر الحيوانات؟ وهل ترى أية أثر رحمة في حضارة تحض على جميع هؤلاء وأكثر إرواأ لأوامه[3] الاستغلالي وإشباعا لنهمه الاستعماري البهيمي؟

ومن أهم صفات الألوهية المطلقة أن يكون الإله مؤمنا لعباده جاعلا إياهم في كنف[4] أمنه وأمانه ورحمته، ليس شديدا عليهم، ولا يكون دوما على إرادة الانتقام منهم -بدون استحقاقهم بالمعصية والذنوب- فنرى موجودا في تسميات السور ذلك المعنى الهام الذي هو

---

١) المتغلغلة: الداخلة.

٢) من بض الماء: إذا سال قليلا.

٣) الأوام كغراب: العطش أو حره.

٤) الكنف بفتح الوسط: الجانب والظل والناحية معنى في كنف الله: في حرزه وستره.

كبشرى للناس عامة والمؤمنين خاصة -وخصوصا في ذلك الجو الإشراكي الذي كان يعتقد فيها الآلهة بصورة مفزعة لا يؤمن جانبها أصلا ويكون العباد على هلع[1] وفزع وقلق دائم من جهتها. حيث إن تلك الآلهة المزعومة على عزم الانتقام من العباد دائما حسب معتقداتهم الباطلة الزائفة- فالناس في جو هذا الدين الجديد والمعتقد الجديد الذي يأتي به هذا الكتاب الجديد محتاجون إلى بشائر الخير والهدى ومعاني الاطمئنان والسلوى كي يكونوا آمنين واثقين برحمة ربهم، منشرحين بغفرانه، مطمئنين إلى إحسانه. فدلالة على كل هذه المعاني جاء في التسمية كلمة: المؤمن المباركة اسما للسورة -على إحدى الروايات الواردة في التسمية[2]- وأفاد الجماعة المؤمنة كثيرا من معاني الخير والرحمة.

إذا لاحظنا الجو الإشراكي السائد على قطاعات البشر الذي نزل فيه القرآن ولاحظنا ما يسندونه حينئذاك إلى الألوهية من معاني القسوة والشدة ببني الإنسان وعداوة الآلهة للناس وكونها دوما على عزم الانتقام من بني البشر إذا لاحظنا كل هؤلاء الأمور المسندة إلى الألوهية في ذلك الجو القاتم[3] بأنواع الشرك و صنوف الوثنية... أدركنا عندئذ أهمية التسمية بهذه الأسماء الحكيمة وما تحمله من معاني البشرى

---

١) الهلع: الجزع وقلة الصبر.

٢) راجع طاهر الجزائري، التبيان، ص ١٦٣.

٣) القاتم: الأسود.

بالرحمة والأمان والسلوة بالعفو والغفران.

فترى معي أن التسمية في هذا الفرع الأول من المحور الأول محور الاعتقاديات رغم مسافتها القصيرة احتوت على أهم معالم التوحيد ومقوماته و أهم مستلزمات الألوهية وهي: ١- إخلاص العبودية لله، ٢- و الخالقية، ٣- و التنزيه، ٤-والرحمة، ٥- و الغفران، ٦- والأمان.

الفرع الثاني الرسالة

ثاني أهم المقاصد القرآنية التي يكثف البيان القرآني جهوده لإثباتها هو الرسالة فإن التوحيد إنما تقوم قائمته في الأرض وتتحقق العبودية على هديه بالرسالة لا غير. لأن العقل البشري مهما حار وسار ومهما صال وجال لا يمكن أن يطلع على التوحيد الكامل اللائق بكبرياء الله وقداسته. القسم الكبير من تلك المحاولات والجهود الفلسفية التي صرفت من طرف الفلاسفة والمتفكرين قديما وحديثا لم يكن إلا بحثا عن خالق هذا الكون وحقيقة وجوده المطلق ولكن القسم الغالب من تلك المساعي المبذولة للوصول إلى الحق ذهبت أدراج الرياح ولم يصل و لم يدان - ولو قسم قليل منها- الحق لا في قليل ولا في كثير. ألم يكن إرجاع البعض منهم كطاليس أصل الكون إلى الماء وإرجاع الآخر كانكسيمنس إلى الهواء أو البعض كانكسيمندر إلى مادة لا شكل لها ولا نهاية ولا حدود أو البعض كفيثاغور إلى العدد أو البعض الآخر إلى أمور

أخرى ألم يكن كل تلك الجهود بحثا عن الخالق العظيم[1]؟ ولكن هؤلاء حيث لم يتصلوا - في ظاهر الأمر على ما يتراآ لنا- بأي طرف من نور النبوة لم يستحصلوا من جهودهم تلك إلا على ما هو أقرب إلى الخرافة من الحقيقة وأوسم بالضلال من الهداية. كما نجد في الجانب الآخر من الفلاسفة المتأخرين من أمثال سبينوزا ولوك ولايبنز وكانط* وديكارت وغيرهم نجد هؤلاء أقرب إلى الظفر بالوصول إلى الحقيقة المطلقة فتكاد تجد أنهم كلهم يعترفون بوجود خالق لهذا الكون يدبره ويتصرف فيه كما يشاء[2] ولم يكن هذا الفرق البعيد والبون الشاسع بين قدامى الفلاسفة ومتأخريهم إلا باتصال متأخريهم بشعاع من نور النبوة واقتباسهم قبسا منه-ولو كان تحت اللاوعي- وعدم اتصال القدامى منهم بأي شيء منه.

ثم إن هؤلاء المتأخرين هم أنفسهم أيضا حيث لم يسيروا في جل أعمالهم التفكيرية على ضوء الوحي وقعوا أيضا في مهالك فكرية وضلالات عقلية غير قليلة إلى درجة أن كفر الغزالي فيلسوفا كبيرا كابن

---

١) نديم الجسر: **قصة القرآن بين العلم والفلسفة والقرآن**، بلا تاريخ ولامحل طباعة، ص ٢٨-٣٠. وإن أردت أن ترى عن كثب تفصيل ما أجملناه في الأعلى فراجع هذا الكتاب القيم واقرئه من أوله إلى آخره.

*) ومما يدل على قرب بعض هؤلاء الفلاسفة من نور النبوة ما ذكره مراد هوفمان: "أما أن البسملة مكتوبة بخط اليد عام ١٧٥٥ على شهادة دكتوراه الفيلسوف كانط فإن هذا لغز حير الباحثين. (مراد هوفمان، الإسلام كبديل، ص ٤٩.)

٢) المصدر السابق، ص. ١٤٣-١٥٢.

سيناء في ثلاث مسائل وفسقه في سبع عشرة مسألة و لكون دليلهم الوحيد كان عقلهم البشري البائس فقط لم يستطيعوا أن يصلوا إلى حظيرة حقيقة كبرياء الحق المقدس فتاهوا فيما تاهوا فيه ولم يصل إلى الحق منهم سوى قلة قليلة في جزئيات ضئيلة. فإذاً لا غناء للعقل البشري مهما زادت معرفته واتسعت آفاق تفكيره عن نور النبوة وضيائها أبدا. فلا غرو صرف القرآن العظيم كما كبيرا من مساعيه الحميدة لإثبات الرسالة إن في محورها العام وهو رسالات الأنبياء الذين أرسلوا من قبل وإن في محورها الخاص وهو الرسالة المحمدية:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۞ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۞ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1]

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[2]

من هنا كان لزاما أن يتبوء النبوة والرسالة بمحوريها الخاص والعام مكانتها في التسمية السورية القرآنية أما في محورها الخاص وهي رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فنجد التصريح أولا باسمه

---

١) النساء، ٤/١٦٣-١٦٥.

٢) الأحقاف، ٤٦/٩.

الخاص العلم له ضمن تسمية سورة **محمد** (على إحدى الروايات الواردة في اسم السورة)[1]

كما نجد إلى جانب ذلك في التسمية بعضا من الملابسات التي لزمته صلى الله عليه وسلم إبان رسالته وهي تزمله وتدثره ضمن اسمي **المزمل والمدثر** تذكيرا لبعض ملابسات الوحي التي لاحت على صاحبه في مبتدأ أمر الوحي بحيث كلما ذكر هذان الاسمان عند أحد من المؤمنين الذين لهم صلة بالسيرة النبوية ذكر مبتدأ وحيه صلى الله عليه وسلم.

ثم إن التفصيلات الواقعة حول شؤون الرسالة الخاصة لا تقف عند هذا الحد بل نرى التسمية تقطع شوطا أوسع حيث تشير إلى بعض من تلك الأمور الهامة التي لم تنفصم عن صاحب الوحي عبر رسالته ومن أهمها:

١- كونه صلى الله عليه وسلم منشرح الصدر لأسرار النبوة وحكمها وعلومها التي لا يسع لها إلا صدر شرحه الله لها فمن ذا امتن الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بشرح صدره: **ألم نشرح لك صدرك**. يدل على ذلك الوصف اللازم للنبوة الغير الجائز انفكاكه عنها دوم حياتها التسمية **بالانشراح**.

٢- كونه صلى الله عليه وسلم بينة من الله على خلقه يثبت به أولا أن جميع ما أخبر به الوحي - سواء كان الوحي المنزل عليه صلى الله عليه وسلم أو الوحي المنزل على غيره مما في الكتابين السابقين- حق

---

١) انظر الزركشي، ج ١، ص ٣٦٦.

وواقع لا محالة كما يثبت القضايا الحقوقية عند القاضي بالبينة العادلة وثانيا عند الله يوم القيمة أن لا معذرة لأحد في ترك العبودية الحقة لله الواحد الأحد. يدل على ذلك اسم: البينة.

بينما نرى من ناحية أخرى أن تلك التسمية الحكيمة لا تهمل أهم مستلزمات النبوة وهو جانبان كأنهما على طرفي نقيض أحدهما الجانب الإعجازي الذي لم يفارق النبوة عبر عمرها الطويل وهو ههنا يتمثل في: الإسراء الذي لا يمكن أن يتحقق بمضمونه القرآني ككونه مقدورا بشريا- وهو ذهابه صلى الله عليه وسلم وإيابه في ليلة واحدة إلى بيت المقدس الذي يبعد عن المسجد الحرام قرابة مسافة شهرين: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾[1].

وثانيهما الجانب البشري الذي لا يخلو رسول منه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2]، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[3] وهذا الجانب البشري الذي يلزم النبوة ولا ينفصم منها أبدا يشير التسمية السورية منه إلى أهم ملابساته الإنسانية وهي الخطأ ولكن إن الخطأ الطارئ على صاحب النبوة ليس كأخطاء سائر الناس التي يجوز أن يبقى صاحبها عليها بأن

---

١) الإسراء، ١٧/١.

٢) الأنبياء، ٢١/٧.

٣) الأنعام، ٦/٩.

يدوم عليها بل يتحتم أن ينبه صاحب النبوة على ما صدر منه فورما وقع منه وغير جائز تقريره عليه ولو كان ذلك الخطأ ارتكب من أجل إبلاغ النبوة. يشير إلى كل ذلك هذه التسمية الحكيمة الرشيدة: عبس. إلى جانب ما تومئ إليه هذه التسمية الحكيمة من ملابسات وقوع الحدث التاريخي الذي وقع مدلول كلمة اسم السورة (العبوس) بسببه وهو إعراض الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عابسا وجهه عن نداء رجل أعمى له يبتغي منه الإرشاد إلى طريق الإسلام (قائلا يا محمد علمني مما علمك الله) بينما كان الرسول مشغولا حينئذاك بدعوة بعض من صناديد[1] قريش إلى الإسلام. فتجهم[2] الرسول لظن أنه لو أقبل على الأعمى معرضا عن هؤلاء لفاتوه وتركوا إجابته. فتومئ التسمية إلى عناية الإسلام البالغة بكرامة الإنسان أيا كان وفي أي موقع اجتماعي كان. ومن هذه الناحية تكون هذه التسمية ذات صلة وثيقة بالاجتماعيات من آداب المعاشرة و المرحمة مع الضعفاء والفقراء وعدم كسر خاطرهم ثم بالسياسيات أيضا من سلوكيات الرئيس مع الضعفاء من أتباعه كما لها علاقة قوية بالأخلاقيات أيضا من التواضع وخفض الجناح للمؤمنين، كما تدل التسمية إلى جانب المقطع الأول من السورة دلالة قوية على أن هذا القرآن ما كان من صنع محمد صلى الله عليه وسلم واختلاقه وإلا فما كان محمد صلى الله عليه وسلم لأن يلوم نفسه

---

١) الصناديد جمع صنديد: السيد الشجاع أو الحليم أو الجواد أو الشريف.

٢) تجهمه: استقبله بوجه كريه.

في كتابه في أمر كان من عاديات الأمور في ذلك الحين السائد فيه على جميع القطاعات البشرية الاستبداد الغاشم والديكتاتورية الجائرة، بل كان الرؤساء المستبدون والديكتاتوريون الظالمون يومئذ يفعلون مع رعيتهم أكبر وأعظم من ذلك بكثير من زجر وشتم وذم وضرب ونهب وقتل في أتفه الأمور وما كانوا يلامون على ذلك.

وأما النبوة ضمن محورها العام المدلول عليها بأسماء السور فاسم **الأنبياء** يشير إلى النبوة بمفهومها العام متمثلة في جميع الأنبياء سواء منهم من ذكر في القرآن أسماؤهم أومن لم تذكر.

وأما هذه التسميات السورية: **يونس، هود، يوسف، إبراهيم، نوح** فتشير إلى جانب مهم خاص من النبوة لحكمة اقتضاها تقدير العزيز العليم.

الفرع الثالث القرآن

نجد في هذا المحور إشارة إلى دعامة أخرى من دعائم الإيمان والاعتقاد الحق الذي يطالب الله سبحانه به عباده وهو الإشارة إلى الإيمان بالكتب. فإن الله سبحانه بعث إلى بعض من أنبيائه في مختلف الأزمنة كتبا تحتوي على شرائعه من أوامر ونواهي وسائر أحكامه ورسالاته إلى خلقه. وحيث كان القرآن العظيم آخر كتبه المتضمنة لأكمل وأفضل وآخر شرائعه وحيث كان القرآن الحكيم مهيمنا على سائر كتبه ومصدقا لها: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**

مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1] اكتفى في هذا المقام الذي يكفي فيه الإشارة والتلميح بذكر القرآن مع بعض محدداته وسماته.

إن الإيمان بالقرآن يتبوأ نقطة مركزية في هيكل العقيدة الإسلامية، حيث ينبني عليه الاعتقاد بسائر المعتقدات التي أخبر عنها وحيث إن المرء إذا آمن بالقرآن يكون مؤمنا ولا بد بجميع ما أخبر به القرآن من سائر المعتقدات الغيبية وغيرها فكلما تشير التسمية إلى القرآن كلما تشير إلى أهم مميزاته وخصائصه الذاتية: أولا إن القرآن نزل إلى العالمين كي يفرق بين الحق والباطل والخير والشر والرشد والغي كي يهتدي الناس بهذا التفريق وبنور ذلك الفرقان لوجه الصواب في معاشهم ومعادهم: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[2] ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[3] يشير إلى هذه الخاصة القرآنية التسمية بالفرقان.

وهناك ميزة أخرى هامة لهذا الكتاب المجيد وهي التي صار القرآن بسببها مصدرا فياضا ونبعا ثرا لأفضل الحضارات الإنسانية عبر التاريخ وهي كونه فصل جميع تلك الأمور التي تحتاج إليها البشرية في سلوكها الاعتقادي والأخلاقي والاجتماعي وغيرها من نواحي الحياة وكذا فصل ذاك السفر المجيد كثيرا من دقائق شؤون الدنيا والأخرى وكذا

---

١) المائدة، ٤٨/٥.

٢) البقرة، ١٨٥/٢.

٣) الفرقان، ١/٢٥.

فصل مواد غزيرة من مسائل العلم والمعرفة النافعة والسياسة الرشيدة والتوجيه الحكيم. فدلالة على ما تحمل هذه الميزة القرآنية من بين ميزاتها الأخرى من أهمية بالغة وعلى تفصيله لشؤون الكون والحياة وتفصيله لدقائق الدين وتفصيله لأمور الآخرة وتفصيله للخط الذي يسير عليه حياة الإنسان وغيرها، فلكثير من هذه التفاصيل الواردة في القرآن المجيد جعل التفصيل اسما للسورة في ذلك القالب الفعلي الدال على المعنى المتقدم من غير تغيير ولا تبديل: **فصلت**.

وهنا جانب هام آخر من الخصائص القرآنية التي تقتضي أهمية قصوى هو جانب الإعجاز القرآني فإن ذاك الإعجاز يتشعب باعتبار ما يدل عليه ويثبت حقيته إلى شعب: فمن جانب يدل على حقية القرآن حيث يتحدى على الصعيد العالمي بذكر أسماء هذه الحروف- التي جعل البعض منها أسماء للسور- كل من له نصيب في الأدب العربي والبلاغة العربية: أن هذا القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم قد ركب من جنس الحروف التي تركبون كلامكم منها فما بالكم- إن كنتم صادقين في مزاعمكم أنه من صنع محمد صلى الله عليه وسلم- لا تأتون بمثله؟[1] وأنتم أنتم! في تذوق أسرار اللسان والإتيان بأقسامه وأنواعه وأفنانه والوقوف على دقائقه ولطائفه والعلم بأحواله وأحكامه وأصنافه.

---

١) راجع ابن عاشور، ج ١، ص ٢١٢، الشوكاني، ج ١، ص ٢٩-٣٠.

ثم إن الإعجاز القرآني كما أنه شاهد صدق على حقية القرآن كذلك هو من جهة ثانية أصدق شاهد وأعدله على صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاصة وعلى صدق النبوة وحقانيتها عامة ومن جهة ثالثة يدل على حقانية الإسلام أجمع فإن القرآن إذا ثبت ثبت معه جميع ما ينبني عليه من مضامين الإسلام جمعاء كما ذكرنا.

يدل على ذلك الجانب الإعجازي بجميع مناحيه هذه التسميات المتشكلة من الحروف المقطعة التي تحدى بها القرآن: طه، يس، ص، ق.

ووجه دلالة هذه الحروف المقطعة التي وقعت في صدر السور تحديا لمصاقع بلغاء العرب، إثباتا لإعجاز القرآن - وقد قرر ذلك البعض من المفسرين-[1] على إثبات نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو: أن صدور مثل أسماء هذه الحروف -التي تقتضي أن يكون في المتهجى بها ثقافة الكتابة والقراءة- من محمد الأمي صلى الله عليه وسلم يدل على صدقه في دعوى أن هذا القرآن منزل من الله لأن الذين هم بمعزل عن القراءة والكتابة ولا يوجد لديهم بضاعة- ولو مزجاة- من ثقافتهما لا يمكن أن يعرفوا هذه الأسماء ولا أن ينطقوا بها صحيحا. فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ككونه أميا يعرف أميته كل من حوله ومن معه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[2]

---

١) انظر القاضي عبد الله البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، هامش حاشية شيخزاده، إستانبول ١٩٨١، ج ١، ص ٥٨، ابن عاشور، ج ١، ص ٢١٢-٢١٣.

٢) العنكبوت، ٤٨/٢٩.

وككونه أميا نشأ في وسط أمي منعزل إلى درجة كبيرة عن معالم الكتابة والقراءة وثقافتهما، ولم يعرف قبل نبوته صلة له لا قوية ولا ضعيفة بالأدب العربي لا في منثوره ولا في منظومه ولا في كتابياته فرجل يكون منعزلا عن الأدب بهذا المستوى لا يمكن أن ينطق بأسماء هذه الحروف ما لم يرافقه تعليم الهي ونصر رباني. فنطق محمد عليه الصلاة والسلام بهذه الأسماء أيضا من دلالات نبوته صلى الله عليه وسلم.

فمن هذه الناحية يكون لهذه الأسماء صلة قوية مع إثبات الرسالة المحمدية أيضا.

الفرع الرابع الآخرة

إن إثبات الآخرة أيضا من أهم المقاصد القرآنية- كما أسلفنا- لأن الإيمان بالآخرة أحد أركان الإيمان المذكورة في الكتاب والسنة في العقيدة الإسلامية، والمرء لا يكون مؤمنا في المنظور الإسلامي طالما لم يؤمن بالآخرة. القرآن الحكيم يسعى بكل جده وجهده لإحضار الجماعة المسلمة للمعيشة الرغيدة والحياة السعيدة فيها وفيها يتجلى لمرأى كل أحد و مسمعه مائة بالمائة تلك الحقائق الغيبية التي يصر عليها القرآن كجزء لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية. فتجليات الربوبية إنما تظهر في ذلك اليوم - بحيث يرفع من البين ستار الأسباب وحجب العلل- فلذا نكرر كل يوم مرات عديدة في الصلاة ما يذكرنا بحقيقة ذلك اليوم: ﴿مالك يوم الدين﴾ كما أن ذلك اليوم هو اليوم الذي يظهر فيه بلا غبش

ولا لبس جميع مراحل الحشر والحساب الأخروي وجميع مشاهد النعيم المقيم والعذاب الأليم، وفيه يجد كلٌ جزاءَ ما عمل في الدنيا إن خيرا فخير وإن شرا فشر. وبكلمة موجزة جميع حقائق العقيدة الإسلامية وأحكامها مربوطة من جهة ما بعقيدة الآخرة.

فحق للقرآن الحكيم أن يحشد كثيرا من طاقاتها لذكر الآخرة - وعلى الخصوص يوم القيامة الذي هو أول ميقات من مواقيت الآخرة- إما إنذارا بجحيمها أو تبشيرا بنعيمها وإما إثباتا للحشر الجسماني فيها بأسلوب إقناعي ينشرح به الصدور وبيان معجز ملزم للعقول على القبول:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[1] ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۞ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾[3].

---

١) الروم، ١٩/٣٠.

٢) الروم، ٣٠/ ٤٨-٥٠.

٣) فاطر، ٩/٣٥.

ففي التسمية السورية نجد الآخرة- بما فيها يوم القيامة- أخذت مكانتها اللائقة بها حيث صرح باسم يوم القيامة الذي هو أول أوانها وأعظم أيامها هولا وفزعا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1] ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[2] ففي التسمية نجد نفس اسم القيامة منصوصا عليه في تسمية سورة: القيامة. فان لفظة القيامة كالساعة* منصرفة في المصطلح القرآني إلى يوم القيامة لا غير لأنها لم تستعمل في القرآن مع التاء إلا مقيدة باليوم وعبارة عن اليوم الآخر فحسب.

كما نجد أهم خصائص يوم القيامة مذكورا في التسمية السورية بدأ من أول أحواله وهو حشر الناس من القبور ضمن التسمية ب: الحشر. فإن هذه الكلمة معناها المتبادر في المصطلح القرآني هو حشر وجمع جميع الناس من القبور إلى ربهم وإلى موقف حسابه وميقات عقابه وثوابه- وإن وجد استعمالها في الآية لغير هذا المعنى المتبادر أيضا- نجد ذلك في كثير من آي الذكر الحكيم: فقد استعمل في ثلاث وثلاثين موضعا قرآنيا بمعنى الجمع الذي لا يتحقق إلا في الآخرة.

---

١) الحج، ٢٢/١-٢.

٢) المزمل، ٧٣/١٧.

*) إن كلمة الساعة معرفة باللام لم ترد في القرآن إلا ليوم القيمة.وأما منكرة فتأتي بمعناها اللغوي أيضا كما في قوله تعالى ما لبثوا غير ساعة.

هذا إلى جانب ما ذكر للقيامة من بعض صفاتها التي تلازمها وتدل على ثبوتها من وقوعها كما في: **الواقعة** لأنها صفة للقيامة باعتبار وقوعها.

ومن حقية ثبوتها كما في: **الحاقة** حيث ان الكلمة تدل على حقية يوم القيامة في نفسه من غير شك أو على أنه يقع فيها حواق الأمور من الحساب والجزاء[1]. أو على أنه يتحقق فيها الوعد والوعيد[2] فعلى كل الاحتمالات هي من صفة القيامة وكفى.

ومن الصفات التي تدل على شدة هولها و قرعها للقلوب والنفوس بمخاوفها ومخاطرها كما في: **القارعة**، نعم انه وصف تقشعر منه الجلود وتنزعج منه النفوس، وصف أبدع القرآن به يدل على فظاعة أمر الرعب الذي يغشى النفوس في ذلك اليوم ومن جرائه.

ومن غشيانها بمخاوفها وأهوالها للنفوس والقلوب كما في: **الغاشية** فان القيامة اتصفت بهذه الصفة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها كأنها تغطيهم كما يغشى الستار ويغطي ما يجعل عليه.[3] فأعظم به من يوم يجعل الولدان شيبا بمخاوفه وأهواله التي تغشى النفوس وتملأ الصدور والقلوب خوفا ورعبا! تغشى بمفازعها جميع نفوس المجموعين إلى الحشر غشيانا بالغا كما تنبئ عنه صيغة فاعلة "غاشية" بتاء المبالغة فان

---

١) القاضي، ج٤، ص ٤٣٨-٤٣٩، الشوكاني، ج ٥، ص ٢٧٩.

٢) ابن كثير، ج ٤، ص ٤١٢.

٣) الشوكاني، ج ٥، ص ٤٢٨.

التاء فيها وفي القارعة والحاقة والواقعة ليس للتأنيث لأنها صفات لليوم وهو مذكر يجب أن يكون صفاته الجارية عليه مذكرة أيضا حسب قواعد العربية، بل التاء للمبالغة في معنى الوصف كما في: العلامة والداعية والنابغة والكافية.

إلى جانب تلك الأحداث الكبار المفزعة المتقدمة على القيامة بقليل التي تدل على أن نظام هذا الكون المقدر بقائه من طرف باريه إلى أجل مسمى سيختل بأحداث تندهش منها القلوب وتتحير فيها العقول وتنزعج منها النفوس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

وأهم تلك الأحداث المذكور في القرآن وقوعها قبيل يوم القيامة الأحداث التي تدل على أن هذا النظام الموجود في الكون اليوم سيتبدل قبيل الساعة ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[2]:

الزلزلة الفاقرة فحق لها أن تتبوأ مكانتها في التسمية: الزلزال.

الدخان الذي سيأتي إبان ذلك اليوم وانفطار السماء وانشقاقها وتكوير الشمس فيه. تفصح التسمية السورية عن كل هؤلاء المعاني التي تقشعر منها الجلود وتملأ منها الصدور خوفا وفزعا: الدخان، التكوير،

---

١) الحج، ٢٢/١-٢.

٢) إبراهيم، ١٥/٤٨.

الانشقاق، الانفطار.وإنما يتبدل هذا النظام لأن هذا النظام مؤقت تابع للزمن له أجل مسمى، يشيب مع الزمن ويهرم، غير قابل للخلود والأبدية. خلقه الله يوم خلقه معروضا للزوال والفناء، غير صالح للخلود والبقاء فيحوله الله إلى نظام آخر مهيأ للخلود والدوام لا الفناء والزوال غير تابع للزمن كما في الذي من قبل. أعني أنه لا وجود ولا محل في ذلك النظام الجديد في يوم الآخرة للزمن الذي يحدد آجال الأشياء وآمادها*. وهذه الظاهرة تفسر لنا سر تكوير الشمس وانفطار السماء وانتشار الكواكب وطي السماء يعني أن بتغيير تلك الأجسام العظيمة التي هي أهم أقطاب هذه المنظومة في هذه الدنيا وتحولها إلى ما شاء الله يرفع هذا النظام المؤقت التابع للزمن ويوضع مكانه نظام آخر غير تابع للزمن فلا فناء فيه ولا زوال.

هذا إلى جانب أنه يجوز أن يستنبط لتلك الكلمات- انصرافا عن معانيها القرآنية - معاني أخر تتناسب مع البيئة والطبيعة. كما في الانشقاق والانفطار أو الأحداث الكونية كما في الدخان والتكوير.

هذه الأحداث إلى جانب ما يرى في ذلك اليوم الرهيب من أحوال الأمم من جثوها على الركب مما تعاني في ذلك اليوم من المخاوف التي تجعل الولدان شيبا يبين ذلك اسم: **الجاثية**.

---

* قصدنا بالزمن هنا هو ما يتبع حركة الكوكب وينتج منها، وأما إذا فسر الزمن - كما عند البعض - بالفترة التي تقع فيها حركة المادة أو بنفس حركة المادة، فالزمن موجود في الآخرة أيضاً بلا ريب والله أعلم.

إن ما تعطيه التسمية من فكرة الآخرة لا تقف عند هذا الحد بل تعطي من تلك المشاهد الأخروية مشهدا آخر وهو **الأعراف** فإن **الأعراف** وإن كثر فيه القيل والقال لكن أكثر ما تحتشد عليه الآراء وتصححه هو كونه سورا بين الجنة والنار[1] نعم هذه الكلمة لم تذكر في القرآن في غير هذه السورة لكن جعلها اسما للسورة لما لها من الأهمية القصوى ولما تحمل في طياتها من المغزى باعتبار ما تدل عليه من المشهد الأخروي وإلا فليس لكونها ذكرت هناك فحسب فإننا نجد في القرآن كلمات أخرى أيضا لم تذكر إلا مرة واحدة ك "الزجاجة" و"الزهرة" و"زلقا" مع أن أي واحد منها لم يجعل اسما للسورة لأنها لا تحمل ما تحمله الأعراف من المعاني والدلالات.

استخلاصا مما ذكرنا نجد أن المرء إذا ألقى نظرة إلى فهرست أسماء السور القرآنية تحصل على فكرة مكتملة الجوانب حول الآخرة وشؤونها ومشاهدها إلى جانب ما نرى أن السمة الترهيبية هي الغالبة لأن الإنذار والترهيب أجدى لكثير من الناس وأعمق تأثيرا وأكثر اهتزازا للكيان الروحي الإنساني فالتكثير من الإنذار والترهيب أوفق بسياسة الدعوة وحكمتها.

---

١) الراغب، **المفردات**، ص ٥٦٢، القاضي، ج ٢، ص ٣٤١، محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**، دار الفكر الطبعة الثانية، ج ٨، ص ٤٣١.

إن الفرقان الحكيم واسطة اتصال بين الغيب والشهادة ومن طريقه وقناته جرى المعلومات الغيبية إلى عالم الشهادة كما اطلعنا من طريقه فحسب على معلومات جمة حول تلك الموجودات الغيبية كالجن وشؤون عالم الغيب والملائكة ووظائفهم الذين يخبرنا الله سبحانه عنهم بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول ولا يعصونه و يفعلون ما يؤمرون. فعالم الملائكة مثلا عالم غيبي واسع الأرجاء كثير الشعب كثافة النفوس فيه- أي كثرة عداد من فيه- بالغة إلى ما شاء الله يجرى فيه تصريفات وتوظيفات وتدبيرات[1] ربانية كثيرة لا تقل من هذا العالم المشاهد كما نعلم من القنوات القرآنية أن الكثرة الكاثرة من شؤون هذا العالم المشاهد إنما تجرى من طرفهم بما وكل إليهم من طرف الحكمة الربانية فعالم الملائكة ليس عالما بسيطا هينا له وزن خفيف يمكن أن يكتفي منه بالمعلومات الطفيفة بل هو العالم الذي جعل لحكمة الهية محضة واسطة في الخلق والإيجاد بين الخلق الرباني وبين بروز آثاره في ما نشاهده من شؤون عالم الشهادة فيستحق أن يكون لهذا العالم محله اللائق به في التسمية السورية فمن هنا نجد الحكمة القرآنية أعطتها في التسمية مكانتها اللائقة بها تسمية تصرح باسمها من ناحية كما في الملائكة على إحدى الروايات الواردة في تسمية سورة فاطر.[2]

---

١) انظر ابن عاشور، ج ١، ص ٣٩٨.

٢) طاهر الجزائري، التبيان، ص ١٦٣.

ومن تسمية تدل على ما تتصف به من النظام وعلى ما وكل إليها من الشؤون والتصاريف المتعلقة بتدبير هذا العالم المرئي: **الصافات، المرسلات، النازعات**.على إحدى الأوجه والاحتمالات الواردة في المراد بها من المعاني.

كما ذكر القرآن المجيد بين أسماء سوره البعض من تلك الأمور الغيبية المضافة إلى الله رأسا وله صلة متينة مع الملائكة الأمر الذي لا مجال للوقوف عليه من سوى طريق الوحي. فكما أن وجود الملائكة غيبي لا سبيل للاطلاع عليه من سوى طريق الوحي كذلك بعض تلك السلوكيات المختصة بالملائكة أيضا لا سبيل إليه من غير قناة الوحي ويتمثل بعض تلك الأمور الغيبية المتعلقة بتلك الأرواح القدسية في اسم: **المعارج**.

فإنه إذا عمقنا النظر في السياق القرآني لهذه الكلمة وجدنا أن هذه الكلمة توحي بصورة المصاعد الحديثة التي تشغل بالطاقة الكهربائية ولكن تلك المصاعد/ المعارج الربانية غيبية لا علم لنا بشكلها وصورتها وكيفية اشتغالها وحقيقتها مع أن كل تلك الأمور لا تعنينا في هذا المجال.

نجد في الجانب الآخر أنه يعطى التسمية القرآنية محلا لقسم آخر من تلك الموجودات الغيبية التي نبأنا القرآن بها وهو الجن فان عالم الجن عالم كعالم الإنس له نواميسه و شؤونه وسلوكياته: ﴿**وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ**﴾[1] وله مسؤولياته وتكاليفه، له

---

١) فصلت، ٤١/٢٥.

عقائده وأفكاره: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] وله مواليده ووفياته وذكوره وإناثه: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[2] له عقلائه وسفهائه: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾[3] فإذاً هو عالم مكتمل الجوانب، محدد المعالم، متميز الخصائص، كالعالم البشري في جميع أموره الاعتقادية والتكليفية وغالب شؤونه الاجتماعية، عالم يحتاج إلى شرائع وقوانين و ضوابط أخلاقية يضبط بها سلوكياته الفردية والجماعية: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۞ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾[4]

فنجد البيان القرآني قارن ذكر الجن مع الإنس في كثير من آياته وخصيصا في التحديات القرآنية ولم يفصل الجن من الإنس: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[5] ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلا بِسُلْطَانٍ﴾[6] كما ذكر الجن مع

---

١) الذاريات، ٥٦/٥٨.

٢) الجن، ٦/٧٢.

٣) الجن، ٤/٧٢.

٤) سبأ، ١٢/٣٤-١٣.

٥) الإسراء، ٨٨/١٧.

٦) الرحمن، ٣٣/٥٥.

الإنس في محل الوعيد بعذاب الآخرة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾[1]، ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾[2].

فبعد كل هؤلاء التحشيدات القرآنية لذكر الجن في مختلف المجالات وبشتى المناسبات العديدة وخصوصا في مجالات التكليف يتحتم عليك أن لا تغتر بما يورده حول وجود الجن من الشكوك والشبهات - وحتى الإنكار- بعض من العصرانيين/ الحداثانيين الذين يزعمون أنفسهم مسلمين ولكن الذي يشكل أفكارهم ويؤثر في عقائدهم ويتشرب منه وجدانهم ويأخذ ون عقلياتهم منه- وهم لا يفقهون- هو الوضعية الغربية والعلمنة والإلحادية المعاصرة فهؤلاء الشرذمة القليلة ربما يخرجون من دائرة الإيمان ولا يشعرون بذلك! كما في قضية إنكار وجود الجن أو تأويلها تأويلا سخيفا يخالف ظاهر النصوص وثابت الإجماع لا مسوغ له أبدا فيا لهف عليهم! يخدعون أنفسهم ويظنون أن تأويلاتهم تلك تبقيهم في دائرة الإيمان ولا تخرجهم مع أن تأويلاتهم تلك غير مقبولة ولا صحيحة أبدا لأنها: أولا تخالف النصوص والإجماع وكل تأويل خالفهما فغير صحيح أبدا وثانيا لم تكن عن حسن طوية أبدا بل لمجرد إرضاء شهوتهم الفكرية ولبحت ترفهم العقلي وثالثا للتخلص مما يعيبه أهل الكفر على المؤمنين من الإيمان بالجن الذي

---

١) الأعراف، ١٧٩/٧.

٢) الأعراف، ٣٨/٧.

لا يرى لهم وجود حسي يوافق عليه العقل وقواعد العلوم الحديثة. فهذه التأويلات الباطلة تشبه الخزعبلات والأساطير أكثر في بعدها عن الواقعية والصدق فلا تسمن ولا تغني من جوع.

فإذاً كان من الحقيق بالحكمة القرآنية أن تعطى بين أسماء سوره مكانا لذكر طائفة الجن- التي تشكل النصف الثاني من العالم المكلف بعبودية الله سبحانه والتي يرتبك في اعتقادها كثير من الناس وخصيصا أولئك الذين يغلب عليهم النزعة المادية- كما فعل القرآن نفس ذلك حيث أخذت السورة الثانية والسبعون التي فصلت فيها قصة موقف بعض الجن مع القرآن اسمها من اسم: الجن.

ختاما لهذا المحور نقول: ترى معي أن محور الاعتقاديات في أسماء السور قد تضمن تلك الدعائم الإيمانية التي تشكل صلب عقيدة المسلم التي لا يتكون الكيان الإيماني بلا اعتقاد بأي واحد منها و كذا تضمن بعضا من الأمور الغيبية التي لها مساس زائد بعقيدته ككونها أمورا غيبية نبأنا الله عنها في محكم تنزيله ويتحتم علينا اعتقادها والإيمان بها وبذاك كملت أسماء السور الهيكل الإيماني من جميع أعضائه وشيدت البنيان العقدي من جميع جوانبه.أعظم به من كتاب أنزله اللطيف الخبير!

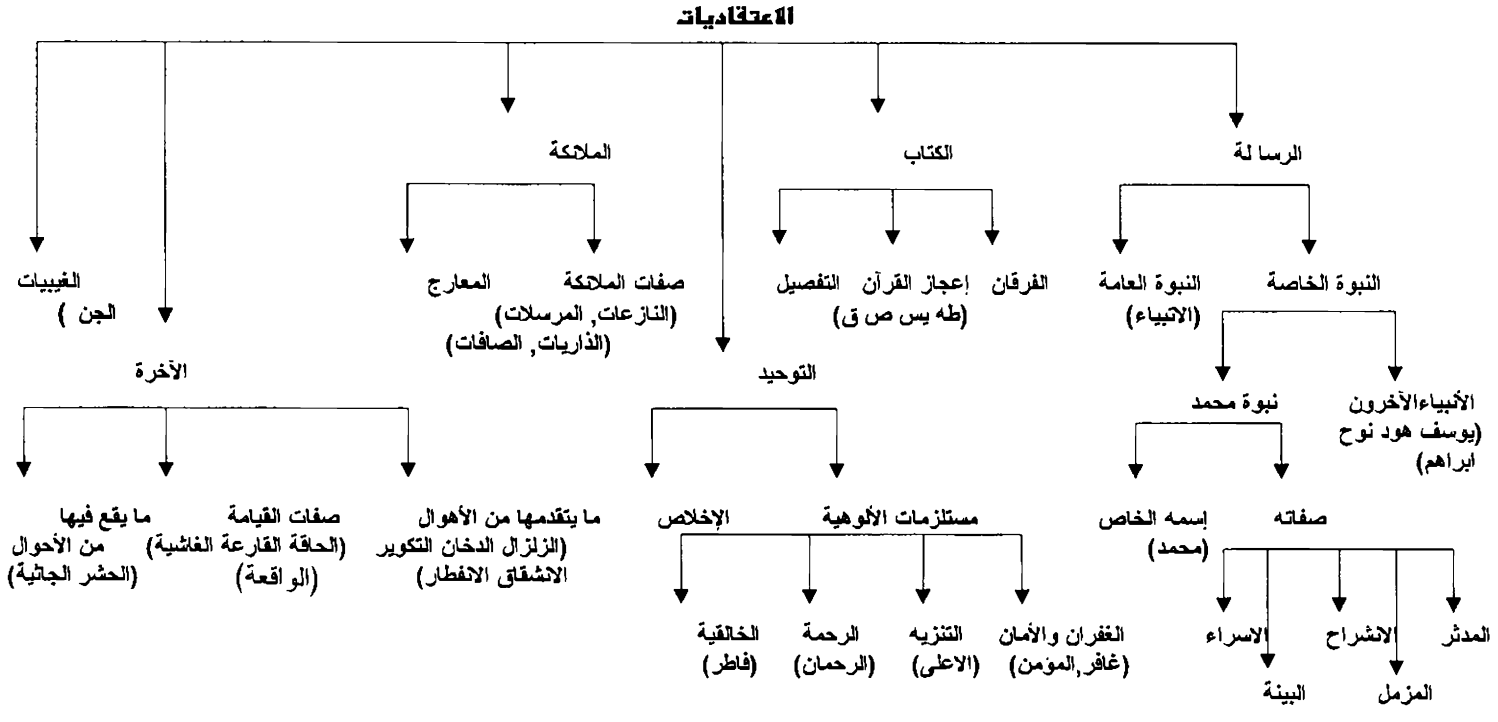

جدول: ٢ أسماء السور التي في محور الاعتقاديات

المحور الثاني الكونيات

تمهيد

إن الرؤية التوحيدية إلى الكون التي أهداها القرآن الحكيم إلى البشرية تشكل جزأً هاما من الرؤية المنهجية الإسلامية ودعامة أساسية من نظامها المعرفي فلا مجال لتجزئة نظرة المؤمن إلى الكون والحياة عن النظرة التوحيدية طيلة ما كان متمسكا بهذه الفلسفة التوحيدية التي تجعل من الكون والإنسان والحياة أمرا واحدا مسخرا لقدرة العلي القدير. الكون ليس كائنا مستقلا برأسه يفعل ما يشاء أو يسير كيف ما أراد، ولا يجري الأمور فيه بصدفة عمياء، أو بما هو موجود في ضمنه من تلك القوانين التلقائية، بل هو مسخر لأمر خالق، عليم، مدبر، مريد يسيّره كيف ما أراد ويفعل فيه ما يشاء ولا يخرج أي جزء من أجزاء هذا الكون العظيم الفسيح أو أي حدث من أحداثه من قبضة تصرفه أو من ساحة إرادته، الكل منه وإليه. صنع الله الذي أتقن كل شيء. ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ❖ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ❖ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[1]، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ❖ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي

---

١) ق، ٥٠/٦-٨.

ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[1] ، ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾[2] فالكون كله تحت تصرف ذلك المالك العظيم، الرب الرحيم لا ضياع ولا هيام ولا حيرة في الكون أبدا فلا يضيع الكون والحياة - خصيصا بني الإنسان- تحت معاول الكفر بعقليتيه القديمة والحديثة، الكفر الحائر الهائم، الكفر المتمزق البنيان الذي ينزل الألوهية التي تستحق أعلى مراتب التقديس والتنزيه إلى أدنى الدركات دركة الأحجار والأشجار. وكذا لا يتحطم بنو الإنسان تحت قاسي ضربات الوضعية المعاصرة التي تجعل من كل سبب إلها ومن كل قوة معبودا.

ومن الناحية الأخرى إن هذه النظرة التوحيدية تلهم الإنسان كثيرا من الآفاق المعرفية والفكرية وحتى قل التنظيمية أيضا. وهذه الآفاق التفكيرية والمعرفية تفتح أمام بني البشر تلك المجالات الفسيحة التي إنما يظفرون بالكيان الحضاري فيها ويشيدون البنيان الحضاري على أرضيتها. وبدونها لا يمكن أن يصل الإنسان إلى بنية حضارية تفيد الإنسان الفائدة المطلوبة أو تعطي العطاء المنشود. مع أن منطلق الحضارات هو التعامل الواعي المنتج مع الكون، والتعامل الواعي مع الكون إنما يتحقق بالبحث والفحص عن حقائق الكون وأسرار خلقته وقواعد سيره وبديع نظامه وبطريق البحث البصير يتحقق أهم الوظائف

---

١) لقمان، ٣١/١٠-١١.

٢) الأنبياء، ٢١/٣٠.

الإنسانية التي حملها القرآن الإنسان وهو عمارة الأرض، والبحث البصير أول الخطوات الناجحة المثمرة في المشوار الحضاري.

ومن نظرة عابرة على أسماء السور القرآنية يفهم مدى الاهتمام الذي ولاه الإسلام للكون وذلك الاهتمام يفتح أمام المتأمل البصير حقولا خصبة للبحث والفحص، ومن جانب آخر يحرض على البحث والسبر عن حقائق الأكوان. فإذا ضياع مسلمي القرن العشرين تجاه هذه النجاحات الواسعة التي قيدها الإنسان المعاصر إنما هو من غياب روح البحث وغياب الرؤية التوحيدية المنهجية الاستيعابية الملهَمَة من التنزيل المجيد الملهِمَةِ لعقلية حضارية عالمية منقطعة النظير والمثيل من غيابها من عقول المسلمين وتفكيرهم.

ومن جراء غياب هذه الرؤية الواعية والعقلية الناضجة عن مسلمي القرون المتأخرة صاروا إمعة للغير يكتفون بفتات مائدته فبعد ما كانوا سادة وقادة للعالم في غالب مجالات الحياة والعلم والمعرفة صاروا أذنابا لا يؤبه بهم في أي شيء من سوى تلك الأمور التي تسهل استغلالهم أكثر وتجعل نفاد ما لديهم من طاقة أيسر. وبعد ما كانوا مخترعين، مبدعين، كاشفين لأهم حقائق الكون وأسراره صاروا يلهثون خلف أباطيل الغير بلا فهم لمغزاها ولا إدراك لمرماها ولا رعاية لظروفها ولا تفكير في ما تأتي بها من التخريبات والمفاسد الاجتماعية وأهملوا مميزاتهم الذاتية ومقومات أمتهم وجعلوا يلوكون خصوصيات الغير بأحناكهم بلا هضم لها في كيانهم الاجتماعي. وبعد ما كانوا أسوة حسنة

للعالم في نشر الخير والبر وتحقيق العدل والفضائل الإنسانية وسائر الكمالات البشرية صاروا شر أتباع لأسوء متبوعين في التلوث بأرذل الفعال ومنكرات الخصال وسيء الخلال. وهذه هي الداهية الفاقرة والكارثة القاصمة[1] ! فإنا لله وإنا إليه راجعون!

إن القرآن الحكيم أعلن حربا داميا وشن هجوما ضاريا[2] على الكفر وفلسفته وأباطيله وضلالاته الفكرية والأخلاقية والسلوكية و غيرها من كل ما هو داخل تحت اجتماعياته، ففي الدرجة الأولى كان البيان القرآني وخصيصا في عهده المكي- مع أنه لم ينفصم من ذاك الاتجاه الاستدلالي عبر عهده المدني أيضا- يشن الغارة على الكفر من ناحيتين اثنتين: إحداهما إثبات مهالك الكفر ومخاطره وما يتركه من الآثار السيئة في ذويه:

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾[3]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[4]، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ❖ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[5]، ﴿مَثَلُ

---

١) الداهية: الأمر العظيم؛ الفاقرة: الأمر العظيم تأكيد للأول؛ والكارثة: من كرثه الغم إذا اشتد عليه؛ والقاصمة: الكاسرة.

٢) ضاريا: باديا وظاهرا منه الدم.

٣) يونس، ١٠/٦٩.

٤) يونس، ١٠/١٠٠.

٥) هود، ١١/٩-١٠.

الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2]، ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾[3].

هذه الآيات وأشباهها تبين بصراحة أن الكفر يترك في ذويه أسوء الآثار السلبية حيث يكون الكافر مختل النظر في نظرته إلى الكون فيفقد اتزانه الشخصي ولا يجد عقلية سليمة إيجابية فينعكس من تلك النظرة المختلة في نفسيته آثار سلبية لا يجد منها التوازن والثقة والطمأنينة ويكون تجاه الأحداث سريع الانفعال تراه ييئس من أقل حادثة مرت به إلى درجة التوتر والانخناق. كما تراه في الجانب الآخر بطرا أشرا من أجل أقل غناء وسعة صادفته وكلا هذين الأمرين من أدل دليل على فقدان التوازن عند المرء. وفي الجانب الآخر ترى الرسول الكريم صلى الله عيه وسلم يذكر بكلماته الحكيمة ما تتمتع به النفس المؤمنة من رضى وطمأنينة وصبر وشكر في السراء والضراء:

عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له (أو كما قال) رواه مسلم.

---

١) هود، ٢٤/١١.

٢) البقرة، ٢٥٧/٢.

٣) الحج، ١٥/٢٢.

ثانيهما بينما يشن القرآن الحكيم على الكفر هذا الهجوم الضاري لا يتركه بلا بديل بل يضمن إثبات بديله- وهو العقيدة الحقة- بجميع وجوه الاستدلال العقلي والبرهنة المواتية[1] للمنطق الرشيد والإدراك السليم من هنا يهتم الفرقان المجيد ثنايا آياته البينات بذكر الكون في شتى صفحاته ومختلف مشاهده ومتنوع معارضه ملتقطا من هنا وهناك غرائب وجوه الاستدلال وطرائف أنواع البراهين الملزمة للعقول على القبول وللنفوس على اليقين:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[2]، ﴿إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۞ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

---

١) من واتاه بمعنى طاوعه؛ م.و.

٢) آل عمران، ٣/١٩٠.

٣) الأنعام، ٦/٩٥-٩٩.

نعم إنه القرآن الذي تفحم فصاحته الفصحاء وتعجز براعته البلغاء ويتحير من معانيه وعلومه العلماء و صدق الله العظيم حيث يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1]

من هنا ولى القرآن شطرا كبيرا من اعتنائه ضمن سوره وآياته نحو سرد مختلف الأدلة الناصعة والحجج الدامغة من شتى مشاهد الكون على قدرة الله ووحدانيته وعظمته وصمدانيته. و كذا أخذ تسميات السور أيضا من هذا الاستدلال النصيب الأوفر والحظ الأكمل فأعطى اهتماما زائدا بالكون بشتى صفحاته في تسمياته السورية ولما أن التسمية القرآنية في المحور الكوني لم تبرز بصورة واحدة وفي وجهة واحدة بل تشعبت إلى الاتجاهات المختلفة شعبنا هذا المحور الكوني إلى شعب ثلاث:

الشعبة الأولى الطبيعة

الفرقان الحكيم ذكر في معرض الاستدلال على الوحدانية الربانية وإثبات الحشر وغيرها أدلة حاسمة وحججا دامغة وبراهين باهرة وجعل القرآن الطبيعة بجميع مناظرها ومشاهدها العلوية والسفلية مختبرا ربانيا يدعو العقول إلى التفكير في مختلف جنباتها[2] فذكر جما غفيرا[3] من شتى المشاهد الطبيعية كما ذكر كثيرا من العناصر التي بها قوام الطبيعة

---

١) الأنعام، ٣٨/٦.

٢) الجنبات جمع جنبة بحركة النون: شق الإنسان وغيره؛ والمراد هنا النواحي.

٣) جائوا جما غفيرا: أي بأجمعهم والمراد هنا جمعا كثيرا.

كالشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض وغيرها. هذا المسرد القرآني لهذه العناصر والمشاهد الطبيعية يعطينا آفاقا واسعة في كثير من الميادين: الاعتقادية و العلمية والتكوينية التي تشكل مجالا رحبا للتفكر والتذكر والتدبر. وبهذا نحصل على رؤية شمولية عالمية استيعابية تحيط بالكون كله كما نحصل بذاك على نظام معرفي منقطع النظير يمكننا أن نسبك من ذاك النظام المعرفي والرؤية الشمولية منهجية مكتملة الجوانب نسير وفق هداها في تعاملنا مع الكون والطبيعة. كما عقب نفس الطريق أسلافنا الكرام وحينئذ يتيسر لدينا أن نضع أسس حضارتنا بكل مميزاتها الإنسانية وخصوصياتها الإسلامية ولدئذ يتأتى لنا بذاك الروح القرآني أن نسخر الطبيعة انطلاقا من مغزى **وسخر لكم ما في الأرض جميعا** لا لاختراع أسلحة الإبادة الجماعية وتهديد مصير الإنسانية جمعاء وتكثير وسائل الخلاعة والدعارة وتوفير محرضات العربدة[1] والشراسة وتسخير طرق العثو والفساد في الأرض بل لخدمة بني الإنسان خدمة نافعة صالحة رشيدة بلا سرف ولا ترف ولا بطر ولا أشر.

فلما للطبيعة من أهمية غير يسيرة في منهجيتنا المنبعثة من رؤية القرآن الشمولية أعطت التسمية الفرقانية لها مقاما مرموقا فنرى أن أهم مقومات الطبيعة والأركان التي بها تقوم الطبيعة والعناصر التي هي أول ما يلاقيه من الكون نظر بني آدم- خليفة الله في الأرض الذي سخر الله

---

١) العربدة: سوء الخلق وكذا الشراسة.

له ما في الأرض جميعا- مسرودة في التسمية: الرعد، الفجر، الشمس، القمر، الليل، الضحى (النهار)، العصر، النجم، الطارق، الذاريات، المرسلات، النور، التين، الكهف، الطور. وكذا أسماء الحيوانات التي جعلت أسماء للسور.

كما نرى أن لذكر البروج درسا هاما إن باعتبار نظرتنا إلى الكون والطبيعة وإن باعتبار ما يفيده من مغزى حول الحض على علم ما في الأجرام العلوية.

هذه الأسماء المسرودة هنا ككونها أسماء للسور القرآنية تشكل أهم دعائم الطبيعة المواجهة للإنسان التي تتلاقى معه دوم حياته والتي تشكل الأسس اللازمة لتلك الطبيعة التي يقوم عليها معاشه. فالذي يلقى أدنى نظرة على أسماء السور يفهم بداهة أن الطبيعة تحتل مكانا كبيرا في نظرة القرآن العالمية حيث يصرح تارة و يرمز أخرى أن الطبيعة مصنع رباني ومختبر سبحاني يتحتم أن يعتمل فيها العاقلون استخراجا لوجوه النفع الكثير فيها:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

---

١) النحل، ١٦/١٢-١٤.

الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1] ، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[2]

كما أن الفرقان الحكيم يأمر بإلحاح بالغ بالتأمل والتفكر في أرجاء هذا الكون الواسع استكشافا لما أودع الله فيها من أسرار الخلقة وسرائر القدرة:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[3] ، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[4].

الشعبة الثانية الأحداث

إن القرآن بجانب ما يشير إليه من مقومات الطبيعة السالفة الذكر يشير إلى بعض الأحداث الكونية التي لها أهمية خاصة إن في مسيرة حياة الطبيعة وإن في الحياة البشرية وان في البيئة التي يتعايش بنو الإنسان معها. وأهم هذه الأحداث التي أخذت بعض السور القرآنية اسمها

---

١) لقمان، ٢٠/٤١.

٢) الملك، ١٥/٦٧.

٣) الروم، ٨/٣٠.

٤) الرعد، ٣/١٣-٤.

منها: **الفلق**، الفلق حادث كوني له أهمية خاصة حيث يرمز إلى ابتداء هام إما ابتداء النهار الذي له ما له من الأهمية والقيمة سواء في حياة الإنسان وسواء باعتبار ما تنم عنه من ذلك التصرف العظيم الذي يحدث في الكون بقلب الليل الذي جعله الله لباسا لعباده، والذي أظلم جميع آفاق الدنيا إلى النهار الذي جعله الله للناس معاشا، والذي أضاء كل أطرافها وإما ابتداء بروز حياة النبات التي تدل على قدرة باريها العظيم أيضا.[1]

ولكلا الوجهين صلة قوية بالعقلية الواعية التي ينبثق الكيان الحضاري منها.

ومنها: **العلق** وهو أيضا حادث كوني هام خاصة في حياة الإنسان حيث يرمز إلى تلك المرحلة الابتدائية في الحياة الجنينية لبني الإنسان في رحم الأم ذاك الإنسان الذي أعلنه الله خليفة لذاته في عمارة الأرض.

ومنها: الرياح التي سخرت من طرف قدرة الباري تعالى لكثير من الأحداث وشؤون الحياة الطبيعية من المطر، إلى التلقيح، إلى تنظيف الهواء، إلى تبريدها، إلى غيرها من تلك الأحداث العظام التي علقت بالرياح وجعلت ضمن آثارها. فلما للرياح من تلك الأهمية القصوى والمنافع العظيمة والآثار الجليلة كثر ما ردد في القرآن الاستدلال بها على

---

١) ذكر جل المفسرين لكلمة الفلق كلا المعنيين راجع تفسير القاضي، ج ٤، ص ٦١٧، ابن كثير، ج ٤، ص ٥٧٢، النسفي ابو البركات عبد الله بن أحمد، **مدارك التنزيل ومعالم التأويل**، دار قهرمان، إستانبول ١٩٨٤، ج ٤، ص ٣٨٦، الشوكاني، ج ٥، ص ٥١٩.

عظمة الخالق وقدرته وكرمز على تلك الأهمية أخذ بعض السور اسمها من بعض صفات الرياح: **الذاريات، المرسلات** على إحدى وجوه المعاني التي ذكرت لكلتا الكلمتين.[1]

ومنها: **الرعد** إذا لاحظناه اسما لصوت السحاب كما ذكره **الراغب الإصفهاني**[2] فهو حادث هام في الأحداث الطبيعية من ناحيتي وجوده وآثاره، حقيق بالذكر حيث كان من أمارات نزول الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي فناسب جعله اسما للسورة. وإن لاحظناه اسما لملك له وظيفة محددة في تكوين السحاب وتسييرها فهي داخلة في الغيبيات فيكون التسمية ذو ملحظين أحدهما ما ألمحنا إليه فوق وثانيهما كونه داخلا في جملة الغيبيات التي أسلفنا الذكر عنها.

ومنها: **النور** فهو كأخواته السالفة يحتل مكانة هامة من بين أحداث الكون حيث يقوم الجزء الكبير من شؤون الحياة وتدابيرها وتفاصيلها وإجراآتها ووقوعاتها على النور بما يحتوى من الأقسام. وجل الشؤون الإنسانية أيضا يدور في فلك النور والله سبحانه يخبر عن ذاته الأقدس بأنه **نور السموات والأرض** ويخبر أيضا أنه يخرج أوليائه من الظلمات إلى النور وأن أولياء الذين كفروا الطواغيت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. فجدير أن يجرى له ذكر في كثير من المناسبات القرآنية

---

١) انظر القاضي لكلمة الذاريات: ج ٤، ص ٢٩٢ ولكلمة المرسلات: ج ٤، ص ٥٠٠.
٢) الراغب، ص ٣٥٧.

وأن يجعل كرمز لموقعه الحيوي في الكون اسما لسورة من سور القرآن الكريم.

ومنها: **الزلزال** هو أيضا حادث كوني طبيعي هام حيث ينبأ عن قدرة عظيمة تحيط بهذه الكرة وغيرها من جميع دعائم الطبيعة، عن قدرة تهتز الكرة الأرضية ببعض بقاعها حيثما شائت، عن قدرة تدك الجبال دكا إذا ما شائت، عن قدرة تدمر بعض نواحي البسيطة إذا ما أرادت. فالزلزال حادث طبيعي يسترعي أنظار العقلاء إن بصورة وقوعه وإن بما يحدث منها من التأثيرات المهولة المفزعة فناسب أخذ سورة قرآنية اسمها من **الزلزال**.

ومنها: **الدخان** وهو أيضا حادث كوني هام له دلالته العظيمة على شؤون القدرة الربانية والتصرفات السبحانية حيث يعلو في مرأى العين على طبقات الجو وهو وضيع.الدخان حادث له أهميته من جانب ما يجري من وظائف كثيرة تنبيهية ودلالية فناسب ذكرها في التسمية.

هذا إلى جانب ما قدمنا من أن **الزلزال والدخان** نظرا إلى المنطلق القرآني حول كلمتي الدخان و الزلزال في نفس السورتين لهما صلة وثيقة مع القيامة حيث هما من الأهوال التي تتقدمها.

وصلة ذكر جميع هذه الأمور بالنظرة الحضارية باد لكل أحد له إلمام بما قدمنا من المضامين والمعاني في أول المحور. وأبرز جوانب هذه الصلة أن في ذكر الكل مما قدمنا ومما سيأتي في باقي المحور أمرا بالتأمل فيها والبحث والفحص عن ماهياتها وعلاقاتها وملابساتها وهذا التأمل

الجاد والبحث الحثيث والفحص الدقيق هو صلب النظرة الحضارية التي هي أول اللبنات في البنيان الحضاري.

الشعبة الثالثة البيئة

إن البيئة التي يعيش فيها بنو الإنسان و التي كانت جزأ لا يتجزأ ولا يمكن أن ينفصم - بأية صورة كانت- من جميع مراحل حياته والتي تآلف البشر معها بصورة لا غناء له عنها إن تلك البيئة مهددة اليوم بصورة رهيبة مفزعة من طرف الحضارة الغربية بما تتضمن من تلك الأحداث والتصريفات والإجراآت التكنولوجية التي تهدد لا البيئة فقط بل الحياة بجميع أنواعها ومضامينها فكلما تقدم الزمن مع الحضارة الغربية وتطورت التكنولوجيا الحديثة شيئا آتت بشيء أرعب وأرهب من ذي قبل في تهديد البيئة ومن ثم مصير الإنسانية ومصير الحياة على وجه هذه البسيطة.

صارت الحضارة المعاصرة عبارة عن كتلات الإسمنت وركام من القصدير والكوابل والبلاستيك فبلغ الأمر إلى أن الإنسان أينما اتجه قابله جبال من الحديد والفولاذ وأكم من البلاستيك وفضلات الصناعة، وأدى ذلك إلى انقراض كثير من أنواع الحيوانات، خذ من هذا إلى تلوث الهواء بالغازات السامة وضوضاء المصانع وصخوب الموتورات والماكينات الصناعية، إلى تهديد المراكز النووية للأحياء والبيئة، إلى انتشار المواد الكيميائية انتشارا هائلا في المواد الغذائية من جراء ما

يستعمل من السماد الصناعي والأدوية الزراعية والهورمونات. جميع هذه الأمور يسبب كثيرا من المشاكل والأمراض من العقم المتسبب عن موت الحوينات المنوية في السائل المنوي وضيق النفس وغثيان المعدة والسرطان والتسمم وكثير من الأمراض الجلدية.

كل هؤلاء إلى جانب أن حدود الغابات الخضراء في برازليا تتقهقر كل عام من عشرة إلى خمسة عشر كيلو مترا وأن ثمانين بالمائة من المياه العذبة في الاتحاد الأمريكي تلوثت بالفضلات الصناعية وأن المصانع و السيارات في الاتحاد الأمريكي تبث في الهواء كل عام ٢٣٠ مليون طن من الغازات السامة ؛ وأن المراكز النووية في فرنسا نشرت في الهواء ١١٤ طنا من غاز الككرت واثنين وثمانين مليون طن من الدخان لعام ١٩٦٠ ؛ ورغم بعض التدابير صعدت الأرقام لعام ١٩٦٨ إلى ضعفيها ؛ وفي ألمانيا يقع سنويا على مدينة من مدن منطقة روهر ٢٧ ألف طن من الأدخنة الصناعية. ونتيجة لما يحيط ببيئتنا من هذه الأمراض الفتاكة تفيد الأرقام أن وقائع الأموات الواقعة بسرطان الرئة في الاتحاد الأمريكي ضاعفت في الأعوام العشرين الأخيرة خمسين ضعفا وضاعفت في كل من بريطانيا وسويسرا في الأعوام الخمسين الأخيرة أربعين ضعفا[1]. فهذه نسبة قليلة من الفاتورة التي تبين ما تعانيه البيئة والإنسانية من جراء الحضارة المعاصرة ؛ وتدل على الخطر الداهم على كليهما منها.

---

١) عاليا، المصدر السابق، ص ١٠٠-١٠١.

لكل هذه الأوضاع الرهيبة يلاحظ المراقبون على شؤون المجتمعات أن الإنسانية اليوم في شقاء بالغ وتعاسة فظيعة انطلاقا مما قيده الحضارة الغربية في الدمار الجماعي من التطور الهائل الذي لم يأت إلى اليوم للإنسانية بقسط كبير في الصلاح والخير من سوى إشباع النهم الاستغلالي للرجل الأبيض وأذنابه اللئام وإفساح المجال لهم وحدهم كي يستغلوا جميع ثمرات الأرض وخيراتها فيستعملوها بطمأنينة وأمان في سبيل إرضاء شهواتهم وإرواء غليل أهوائهم لم يأت للإنسانية بخير كبير إلا شيئا مما يساهمه بعض المعطيات التكنولوجية الصناعية في بعض مجالات الخير والصلاح التي تبقى طفيفة تافهة تجاه ما تسببه تلك الحضارة من عثو وفتنة وفساد في الأرض كبير فمن هنا يسمي زبكنف برزينسكي (Zbingniev Brezinski) مستشار الأمن القومي في البيت الأبيض لعهد جمي كارتر في كتابه المسمى : "دنيا خرجت من المراقبة" يسمي القرن العشرين " عصر الأموات العظيمة" ويقول إن عدد من قتلوا وأبيدوا بسبب الحروب الطاحنة والثورات التي وقعت في القرن العشرين أكثر من جميع من قتلوا في جميع الحروب والاضطرابات والفتن التي خاضها بنو الإنسان عبر جميع تاريخهم الطويل فإن عدد من أبيدوا في القرن العشرين- كل ذلك طبعا كان بما أتاحت الحضارة الغربية الحديثة من إمكانيات الدمار الجماعي من الطائرات الحربية إلى القنابل الذرية- مائة وخمس وسبعون مليون نسمة.[1] هذه الأرقام عدا من قتلوا في

1) İbrahim Özdemir- Münir Yüksel Çevre Sorunlar ve İslam DİB yay. Ankara 1995 s. 13

الخمس الأخير من القرن في أفغانستان وحرب الخليج وحرب إيران مع العراق وحرب البوسنا والكوسوفا والشيشان وعدا من قتلوا في زنازن الطغاة والظالمين تحت براثن التعذيب والاضطهاد وعدا من قتلوا بالتخطيط الدولي في كثير من البلاد.

فانطلاقا من هذا الحاضر المخيف اهتم كثير من الذين يهمهم شؤون الحياة والمجتمع والبيئة من الغربيين والمسلمين بالبيئة وأعلنوا للجهات المختصة بعظم الخطر الناجم من التعدي على الطبيعة والذي على وشك الحلول بديارهم إن لم يأخذوا التدابير اللازمة لتطهير البيئة وصاروا يدعون بإلحاح وإصرار إلى الحفاظ على هذا الوسط الطبيعي الذي نعيش فيه أي ما نسميه البيئة وصاروا يبحثون كثيرا ويتفكرون طويلا ويكتبون جزيلا حول كيفية الحفاظ على البيئة وجميع ما فيها وينبهون أرباب الصنائع والمصانع الحديثة والمؤسسات الصناعية العظيمة على مدى تلك المفاسد المدمرة الناتجة عن سوء تعاملهم مع البيئة إن بتلويثها بالفضلات الصناعية وإن بما يحدثون في الطبيعة من الاختلال أويسببونه من غياب الاتزان الطبيعي من جراء تلك الاعتداءات الشنيعة على بعض عناصر البيئة تحقيقا لمآربهم الشخصية ومن أجل ما يحققونه من التبذير والإسراف المرهب في المصادر الطبيعية.

إن القرآن ككونه كتابا عالميا يخاطب جميع البشر في جميع الأزمنة والأمكنة وعلى كل المستويات وككونه كتابا ربانيا يرشد العالم إلى جميع خيري الدنيا والآخرة وككونه كتابا قيوميا نزل من قيوم

السموات والأرض يحافظ على شبابته وطراوته مدى العصور ويلبي حاجات بني الإنسان عبر القرون ففي أي مجتمع كان وعلى أي مستوى كان إذا عرضت مشكلة إنسانية يمكن أن تجد لها بين غضون الآيات حلا فطريا سليما وجوابا وسطا عادلا صائبا.

من هنا نرى أن كثيرا من تلك المشاكل الجمة والنوائب الضخمة التي انتابت[1] البشرية من حداثة القرن العشرين يوجد لها حلول رشيدة سليمة وأجوبة رصينة حكيمة موائمة لجبلية الإنسان والمجتمع بين دفتي الكتاب المجيد إذا تبصره متبصر وتأمله متأمل فنعم المرجع هو! ولمنزله الحمد والمنة.

انطلاقا مما مر بنا من المعلومات نستطيع أن نقول لا ريب أن من أهم ما يقض مضجع الإنسانية في القرن العشرين من المشاكل هو مشكلة البيئة وما ينتابها مما تهبط به الطبيعة من ذلك الإسراف والتبذير، والاعتداء والتغيير، والعبث والتزييف التي يقوم بها الإنسان المتحضر بمخالب التكنولوجيا الحديثة: إن نسل كثير من الحيوانات- التي تحيط بنا في بيئتنا وتنظف وتزين ما حولنا بما وهبها الله من القوى وألهمها من الكفاآت- على وشك الانقطاع كما انقطعت مآت الأجيال منها - وقد أسلفنا- وهي حقا أهم القضايا البيئوية فكان من مقتضى الحكمة القرآنية ذكر تلك القضية الهامة إما إعلانا وتصريحا أو رمزا وتلميحا فنرى أن

---

١) انتابه: أي أتاه مرة بعد أخرى.

القرآن المبين ولى شيئا من عنايته الحكيمة نحو هذه القضية الهامة بكلا وجهيها التصريحي والتلميحي:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾[1]، ﴿فَبَعَثَ اللّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[2].

انطلاقا من هذه النقطة نرى أن ذكر في القرآن الحكيم كثير من العنا صر التي تشكل البيئة من أسماء الحيوانات إلى الرياح والمياه والجبال والأحجار والأشجار وغيرها نقدم هذه الآيات كشاهد على ما قلنا:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۞ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[4]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ

---

١) البقرة، ٢/٣٠.

٢) المائدة، ٥/٣١.

٣) النحل، ١٦/٦٦-٦٩.

٤) الفرقان، ٢٥/٥٣.

أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[1].

فمن نظرة عابرة على هذه الآيات الربانية يتبين مدى اهتمام القرآن البالغ بالبيئة الطبيعية التي تحيط بنا وتشكل لنا مشاهد تسرح فيها النفس الإنسانية كي تقتطف وتجنى منها ثمار العلم والحياة والتفكر والتدبر في قدرة باريها كما تشكل منافذ فطرية ينفذ منها الإنسان إلى الطبيعة والكون لأن يطلع على الأسرار التي أودعها فيه صانعه الذي أتقن كل شيء.

تنبيها لبني الإنسان على ذلك كي يعرف قيمة بيئته نرى أن وضع كاسم لسور كثيرة من القرآن تلك الأسماء التي تدل على أهم عناصر البيئة التي فقدها ينبه الإنسان على أن بيئته المحيطة به في خطر وأن الاتزان الذي كان من ضروريات الحياة على وشك الاختلال والاختزال وعلى قرب من الانقطاع والانفصام وذلك العنصر الهام في البيئة هو الحيوان و تلك الأسماء التي تنبئنا عن قيمة البيئة وتدلنا على أهميتها: **البقرة، الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت، الفيل.**

غير ناسين أن في اختيار أسماء هؤلاء الحيوانات في التسمية بها من بين آلافها لطيفة أخرى وهي أن اثنين منها وهي **البقرة والأنعام** أهليتان **والنمل والعنكبوت والفيل والنحل** من تلك الحيوانات التي تعيش

---

١) فاطر، ٣٥/ ٢٧-٢٨.

قريبة من بني الإنسان وفي بيئته القريبة منه فدورها البيئوي أظهر للإنسان من غيرها.

كما نرى في الجانب الآخر أنه رغم اهتمام القرآن المزيد بأهم عناصر البيئة وهو الحيوان ـ وانطلاقا من هذا أخذت سور ست أسمائها من أسماء مختلف الحيوانات- لم يترك بعض تلك العناصر البيئوية الأخرى في تسمياته، فمن المشاهد البيئوية التي اكتسبت قيمة بيئوية بما تدل عليه من المنظر المثير للعجب حينا وللتذكر لما مضى من إحدى صفحات التاريخ حينا آخر ذكر: **الكهف**،

ومن العناصر البيئوية الطبيعية الثابتة المستمرة ذكر: **الطور** (الجبل)، وهو أهم المشاهد الطبيعية البيئوية التي يصادفها الإنسان دوما في حياته اليومية كما أنه من أهم ما يجدر أن يسترعى أنظار بني البشر إلى قدرة خالقهم العظيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾[1]، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[2].

ومن العناصر البيئوية المتغيرة المحدثة فيما بعد بإنشاء الإنسان والتي هي كرمز على ما ينشئه بنو الإنسان في بيئته ذكر: **البلد**. لأن البلد (بمعنى المدينة) لم يزل فيما مضى - ولا يزال- مهدا للحضارة الإنسانية ومركزا هاما فعالا للمدنية البشرية ومن هنا أخذ المدنية اسمها من المدينة التي هي مرادفة للبلد.

---

١) المرسلات، ٢٧/٧٧.

٢) النبأ، ٦/٧٨-٧.

كما ذكر في التسميات السورية الرياح التي أسلفنا كثيرا من فوائدها والتي لها تأثير بالغ في الاتزان البيئوى وسيره الطبيعي: المرسلات، الذاريات على إحدى الوجوه المحتملة في تفسيرهما.[1]

ولم يترك أيضا في التسمية الشجرة التي هي أيضا من أهم العناصر البيئوية، ومن بين شتى أجناس ذلك العنصر الهام ذكر شجرة لها صلة وثيقة ببيئة الإنسان حيث هي مما يصادفه الإنسان في الأوساط الموجودة هي فيها يوميا: التين.

هذا إلى جانب أن ما ذكرنا في شعبة الطبيعة كلها يشكل مثالا حيويا للنموذج البيئوي أيضا، علما منا أن كثيرا من أسماء السور ذو اتجاهات متعددة بما تحتمله من وجوه المعنى أو بما تحمل طبيعة المعنى المدلول عليه باسم السورة من وسعة الاتجاه التي تجعله صالحا لأكثر من اتجاه واحد وقد أشرنا إلى ذلك قبل.

إن هذا الاهتمام الزائد بالطبيعة والبيئة في هذه التسمية السورية التي لا تعدو أن تكون كفهرسة للقرآن الحكيم يعطى من ألقى عليها نظرة المتأمل ـ الفاحص عن وجه الحكمة في كل شيء في القرآن ـ من المؤمنين رسالة هامة ودرسا بليغا حول مسؤولية التعامل مع الكون بما فيه الطبيعة والبيئة وهو أن تعاملنا معاشر المسلمين مع الكون ـ ذ لك التعامل الذي يلهمنا القرآن إياه و يأمرنا بالانتهاج في مناهجه- تعامل الباحث

---

١) راجع لتفسير الذاريات القاضي، ج ٤، ص ٢٩٢، ولتفسير المرسلات: نفس المرجع: ج ٤، ص٥٠٠، الشوكاني، ج٥، ص ٣٥٥-٣٥٦، ابن كثير، ج٤، ص ٤٥٨-٤٥٩.

الفاحص المتعلم لأسراره والمتفهم لصنوف الحكم الإ لهية فيه والمتطلب لوجه الاستفادة منه وتسخيره لصالح بني البشر في سبل الخير والهدى وعمارة الأرض- التي هي من أهم وظائف الاستخلاف الذي حمله الله بني البشر- والنفع العام للكافة لا للخاصة فقط ولا في صورة الاستهلاك الخثيث والدمار الجماعي - كما ينفخ الحضارة الغربية تلك الصورة الحضارية الضارة كأشد ما يكون لا في أبناء أمتها فقط بل في الإنسانية جمعاء ومن هنا تتسابق أمم العالم اليوم تحت إشراف وسيادة تعاليم الحضارة الغربية في إبداع الأسلحة التي تكون أضر وأنكى بالإنسانية جمعاء- بل في سبل البر والإحسان والصلاح العالمي وفي سبل تأمين وتحقيق الباقيات الصالحات وهي خير عند ربك للمتقين.

كما أن في هذه التسمية الحكيمة حضا وحثا على تعلم علوم الكون وأسراره وهو جزء هام من نظامنا الفكري والمعرفي حيث ان القرآن كثيرا ما يستدل بمختلف مشاهد الكون ومناظره الطبيعية ويأمر بالتفكر والتدبر في مواده وأحداثه والتصريفات والتقلبات الواقعة فيه وكثيرا ما يمتن على عباده بأنه سخر لهم ما في السماوات والأرض كما سبق أن ذكرنا جملة من تلك الآيات المعربة عن التسخير ويأمر أيضا في كثير من بينات فرقانه بالأ كل مما في الأرض حلالا طيبا والأكل الذي هو رمز على جميع وجوه الانتفاع* - حسبما أرى- لا يمكن أو لا

---

* نرى أن الأكل هنا ليس بالمعنى المعروف في الأكل وهو المضغ بالأسنان ثم بلعه بل المعنى المناسب لشمولية معاني القرآن وجا معيتها أن يكون الأكل رمزا على جميع وجوه الانتفاع والتمتع من مأكل ومشرب وملبس ومركب ومسكن وغيرها من جميع وجوه

يوصل إلى درجة الفضل والكمال فيه إلا بتفهم أسرار الكون والطبيعة وكشف مخبوآت حكمهما وإبراز بديع دقائق الصنعة فيهما وليس المطلوب و المحصول من العلوم الكونية إلا ذاك، وهذه العقلية التي يمليها الفرقان المجيد على الجامعة الإسلامية بإلحاح وإلحاف أولى اللبنات الأساسية للبناء الحضاري وهذه العقلية الجامعة هي التي ينفجر منها جميع طاقات العلم والمعرفة الموجودة لدى أية أمة ما وعندئذ تتحول الطاقات إلى النشاطات الواقعية فتوجه الفرد والأسرة والمجتمع من جديد ويبدأ عمل بناء التاريخ من جديد وتكون الحضارة حينئذاك آخذة طريقها إلى جميع مسالك الحياة تلونها بلونها الجديد. ولا يستطيع أية عرقلة أن تعرقلها في مسيرتها مادامت تلك العقلية الجامعة نابضة فيها بالحياة.

نعم إن تراجعنا نحن المسلمين- الحضاري لم يكن إلا من غياب هذا العقل الفاحص المتأمل المبدع والعقلية الجامعة المبدعة عنا مذ زمن غير قريب فترك مكانه لعقل تقليدي يرضى بالتطفل على مائدة الغير أو بالتقاط فتات خوان الأجانب فيا لها من فضيحة وخزي وعار عظيم! علما منا أن ذاك بمنأى عن العقل القرآني الذي يهبه القرآن للبشرية: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[1]، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا

النفع المترتبة على التسخير الذي يمتن الله به على عباده، ويمكن أن يستأنس على ذلك المعنى بجمع الطيبات في بعض الآيات و ذكر الرزق في البعض الآخر.

١) الروم، ٨/٣٠.

اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1].

لا نكون ممتثلين لأمر هذه الصيحة الربانية التي تدوي في الكون كله أكثر من أربعة عشر قرنا ما دمنا لا نرفع مستوانا الفكري والمعرفي الذي إذا أتقناه اهتدينا إلى سبل تسخير الكون لصالح البشر بلا إسراف ولا تقتير ولا اعتداء ولا تبذير والذي عسى أن نلحق به الركب الحضاري الذي سبقنا وفاتنا مذ أمد طويل مشاهدين أن أعظم القوى التي يتسلح بها إنسان القرن العشرين لا جرم هو العلم والفكر و المعرفة ثم التقنية الناتجة منها.

---

١) الأنفال، ٨/٦٠.

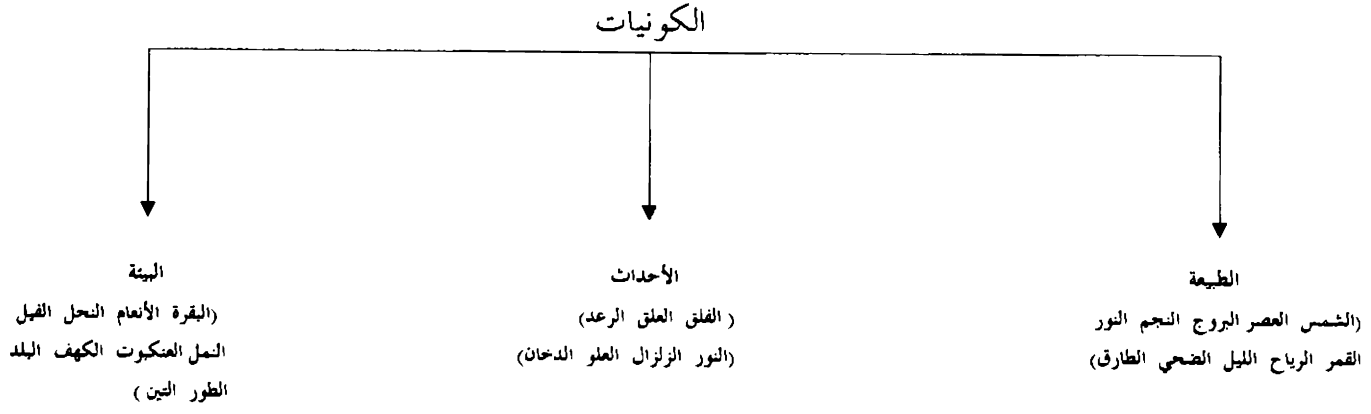

جدول: ٢ أسماء السور التي في محور الكونيات

تمهيد

إن الكيان الحضاري لكل قوم وشعب إنما يتمخض أكثر ما يكون من تفكيراتها الفلسفية ونظراتها الاجتماعية، ومنظماتها التوجيهية ومؤسساتها الجماعية فعندئذ إن الذي يعين الصبغة الحضارية إنما هو اللون الاجتماعي تفكيرا وتنظيما ونظرة وفلسفة لا غير فالجانب الاجتماعي لأمتنا الملهم من الدروس القرآنية التي تتلى على البشرية منذ أربعة عشر قرنا هو الذي يلعب أكبر الدور في تشكل كياننا الحضاري علما منا أن أية أمة لا تكون لها ميزات وخصائص ومقومات حضارية نابعة من خالص كيانها الاجتماعي لا يقام لها وزن ولا تكون لها قيمة في المحافل العالمية ولا في عالم القيم الذي يريد أن يجعل من نفسه حكما على التاريخ والأمم.

ثم إن تلك الأمة التي لا تريد أن تصهر الأطر الحضارية في بوتقته المتكونة من عناصرها الاجتماعية الناتجة من هويتها الذاتيتة بل تلهث خلف عناصر ومكونات حضارات الغير وتستوردها من الخارج كما هي في القوم بلا معالجة ولا تهذيب ولا تشذيب[1] فإلى جانب تطفلها الذي ينعكس منه آثار سيئة على نفسيات أفراد تلك الأمة وجماعاتها حيث تتكون فيهم من مركب النقص إلى كثير من العقد النفسية فإلى جانب ذلك التطفل المخزي تفشل أيضا فشلا ذريعا في استكمال بنيانها

---

١) التشذيب: الطرد وإصلاح الجذع؛ والمراد هنا الإصلاح على التجريد.

الحضاري أيضا لأن البنية الاجتماعية لأية أمة ما لا تقبل الأمور الخارجية فيها إلا بعد انهيارات كثيرة وتضحيات بالغة ومتلفات زائدة من القيم والمبادئ التي هي عناصر كيانها الاجتماعي. وكل هذا يدل دلالة ظاهرة على مكانة الاجتماعيات الهامة في تكون الخصائص والبنيان الحضاري والثقافي لأية أمة ما من جانب وإبرازها إلى الساحة من جانب آخر. ومن هنا ذهبت أدراج الرياح سدى تلك المحاولات الكثيرة التي بذلت من بعض البلدان الإسلامية لاستيراد الحضارة الغربية بعجرها وبجرها بلا نقد ولا تمحيص ولم ينجحوا في ذلك وسببوا - من سوى إهدار طاقات كثيرة للأمة- اختلالات واضطرابات كبيرة على الصعيد الفردي والاجتماعي كليهما في مجالات الأخلاق والقيم والعقائد كلها.

فنرى أن ما للاجتماعيات من هذا الدور الحضاري الهام هو السبب -والله أعلم- في غلبة النزعة الاجتماعية على التسميات السورية لأن الرسالة التي أتى بها القرآن تهدف تنظيم الحياة الإنسانية في جميع نواحيها التي أهمها الجانب الاجتماعي وتهتم بها إلى أقصى الحدود، ونتيجة لذلك الاهتمام ترى في الغالبية العظمى من جوامع الحديث النبوي موضوع الأدب والبر والصلة والأخلاق الحسنة تغطي مساحة واسعة منها. فكان لزاما أن تحتل الاجتماعيات في التسمية القرآنية مكانا هاما تفوق على أخواتها من المحاور كمّا وإحاطة بما لابد منه من التفصيل والتشعيب.

من جانب آخر الفرقان المجيد ككونه كتابا يهدى البشرية إلى جميع معالم الخير والهدى يعتني بجميع نواحي الحياة ويضع لها الأسس الموائمة و القواعد المنسجمة مع نزعة البشر الإنسانية وجبلته فلا يمكن أن يهمل ما يتركز عليه حياة الفرد أو الجماعة بلا مساس ولا تفصيل ولا توضيح. لذا ترى أنه لا يخلو كثير من تلك السور القرآنية عن تنظيم جانب من جوانب الحياة سواء في الحياة العقدية والتعبدية أو غيرها من نواحي الحياة الكثيرة وهذا التنظيم هو الحكمة العليا والسر الأسنى في التنزل القرآني إلى الإقليم البشري: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

إن القرآن حينما يهدف تنظيم الحياة في محور التوحيد من جديد آتيا في سبيل ذلك جميع ما لابد منه من وسائل التعقل والتدبر والاستبصار والاعتبار والاستذكار لا يعرض الأمور عرضا عشوائيا مفككا الأوصال أو عرضا فلسفيا معقد البيان أو عرضا مغمورا بالقواعد الفنية أو مطموسا بالمصطلحات العلمية بل يسلك طريقا بينا واضحا نير الجوانب، مستبين المعالم، مستنير المسالك، سهل السلوك، غير متوعر على أصحاب الفطر السليمة، يسلك في ذلك طريق الباحث

---

١) الجمعة، ٢/٦٢.

٢) الشورى، ٥٢/٤٢.

المتبصر بجميع نواحي ذلك الجانب الذي يتعرض له. من ذا ترى الفرقان المبين أتى بثورات عظيمة وانقلابات عجيبة في جميع تلك النواحي التي استهدف تغييرها وتأسيسها من جديد من العقائد إلى الأخلاق، من التنظيم الفردي إلى التنظيم السياسي، من شؤون الأسرة إلى أمور المجتمع قاطبة.

إن نظرة القرآن التوحيدية إلى الكون وجميع ما فيه تلمس ملامحها الإيجابية ومعالمها النيرة وانعكاساتها الطيبة في مجموع ما أتى به القرآن من المساحات التشريعية الكثيرة والمجالات التنظيمية العديدة كما أن تلك النظرة التوحيدية تبرز آثارها في مقاربات القرآن إلى نواحي الحياة الأخلاقية وغيرها من جميع تلك النواحي الجمة التي يتعرض لها القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[1].

فعندئذ الاجتماعيات من حيث إنها من أهم المحاور التي تدور الحياة في فلكها والتي تلوح فيها القسمات التوحيدية أكثر من غيرها لابد أن يتكشف حولها شيء من البيان القرآني تنظيما وهداية وإيضاحا وتفصيلا. وإلا فالعقيدة الوجدانية المحبوسة في مشاعر الضمير ونبراته فقط التي لا صلة لها بالحياة وتنظيمها وتوجيهها تكون أضعف من أن تقاوم موجات الحياة العارمة[2] وتوجهها الوجهة الصالحة التي تظهر فيها شعائر العبودية الصادقة لله والتسليم وفق أوامره. أما الإسلام فبراء من

---

١) الإسراء، ١٧/٩.

٢) العارمة: الشديدة.

كل ذلك الوهن والخلل والضعف وهذا هو الذي يفهمه من الإسلام كل من لديه أدنى علم بالإسلام ولم يكابر عن قبول الحق بما يخفيه في صدره ضد الإسلام من الحقد والشحناء أو بما أغراه عليه بعض سادته الحاقدين على الإسلام وذويه. ترى **محمد أسد** حينما يعرب عن سبب إسلامه يقول حول قضية أهمية الاجتماعيات ومكانتها في الإسلام:

"ولا أستطيع أن أقول أي النواحي (من الإسلام) قد استهوتني أكثر من غيرها، فإن الإسلام على ما يبدو لي بناء تام الصنعة وكل أجزائه قد صيغت ليتمم بعضها بعضا ويشد بعضها بعضا فليس هناك شيء لا حاجة إليه وليس هناك نقص في شيء فنتج عن ذلك كله ائتلاف متزن مرصوص..." ثم يقول بعد كلام: **"هذه الدراسات و المقارنات خلقت فيّ العقيدة الراسخة بأن الإسلام من وجهته الروحية والاجتماعية لا يزال بالرغم من جميع العقبات التي خلقها تأخر المسلمين أعظم قوة نهاضة بالأمم عرفها البشر"**[1] وحينما يذكر الهدف من تأليفه كتابه **الإسلام على مفترق الطريق** يقول: **"وهذا الكتاب... كتب على الأصح لأولئك الذين لا يزال يحيا في قلوبهم شرارة من ذلك اللهيب الذي كان يضطرم في قلوب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك اللهيب الذي جعل الإسلام فيما مضى عظيما بنظامه الاجتماعي ورقيه الثقافي"**[2] ونجده أصرح بالحقيقة في موضع آخر من كتابه: **"إننا نعتقد أن الإسلام**

---

١) محمد أسد، **الإسلام على مفترق الطريق**، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧، ص ١٥-١٦.

٢) المصدر السابق، ص ١٦.

بخلاف سائر الأديان ليس اتجاه العقل اتجاها روحيا يمكن تقريبه من الأوضـــاع الثقافية المختلفة، بل هو فلك ثقافي مستقل ونظام اجتماعي واضح الحدود..."[1]

ونراه يشرح كلامه هذا في محل آخر: "إن فكرتنا عن وحدانية الله يجـــب أن تتجلى في سعيها للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا.

هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه هي فرق آخر بين الإسلام وسائر النظم الدينية المعروفة. ذلك أن الإسلام – على أنه تعليم (مبدأ يتقيد بـــه النـــاس في حياتهم الروحية)– لا يكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقـــة بمـــا وراء الطبيعة فيما بين الأرض و خالقه فقط، ولكنه يعرض أيضا -بمثـــل هـــذا التأكيد على الأقل– للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية"[2]

وتراه يقول في كتابه الآخر:

"...وهكذا فقد كان طبيعيا أن النظام الذي أعلنه النبي محمد صلـــى الله عليه وسلم في السنوات الثلاث والعشرين من رسالته لم يختص بالشؤون الروحية فحسب بل زود إطارا لكل نشاط فردي واجتماعي أيضا. إنه لم يبسط مفهـــوم الصلاح الفردي فحسب بل عرض أيضا مفهوم المجتمع العادل الذي يجـــب أن يوجده ذلك الصلاح. لقد قدم مجمل المجتمع السياسي... كما قدم نظاما للحقوق الفردية والواجبات الاجتماعية."[3]

---

١) المصدر السابق، ص ١٨.

٢) المصدر السابق، ص ٢٤.

٣) محمد أسد، الطريق إلى الإسلام، ص ٢٤٣.

قبسنا كل هذه الكلمات عن محمد أسد لأنه -وإن أسلم- لا يزال غربيا جمع جمعا جيدا بين كلتا الثقافتين الإسلامية والغربية فربما يكون في مقالاته هذه مقنع لبعض هؤلاء الذين يغمضون أعينهم عن اجتماعيات الإسلام ونظمه الاجتماعية ويحاولون بإلحاح بالغ أن يحصروا الإسلام في الروحيات والأخلاقيات وحدهما و يعلنون مكابرة مع الحق الصريح وإرضاء للباطل القبيح أن الإسلام عبارة عن نظام روحاني لا يقدم للإنسان من سوى إطار أخلاقي فقط.

وإذا لاحظنا التنظيم الاجتماعي والتوجيه الجماعي في الإسلام من خلال نصوص القرآن رأيناه مؤكدا بجلاء ووضوح عبر الآيات القرآنية من مبدئها إلى منتهاها:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۞ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۞ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1]، ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ

---

١) المائدة، ٥/٤٨-٥٠.

كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[1]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾[2]، ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۞ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۞ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۞ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

فلما للاجتماعيات من هذه الأهمية القصوى والمكانة العظمى احتلت مكانا هاما في التسميات السورية ويبدو السمة الاجتماعية في ما يقارب من نصف أسماء سورها ولكن كل ذلك ليس في فرع واحد أو شعبة واحدة من شعب الاجتماعيات بل سلطت التسمية السورية الأشعة على شتى مجالاتها من هنا نرى أنه يتفرع هذا المحور إلى فروع رئيسية خمس: التاريخ والأدب والأخلاق والدين والتنظيم بما أن فرع التنظيم أيضا ينقسم إلى فروع خمسة، فكان المجموع عشرة فروع. وهي التي تضم بين جنباتها غالب نواحي الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية إذا كانت منظمة بإتقان كامل وسياسة رشيدة وثبتت على أرضية محكمة من التبصر والمعرفة بأمور الحياة عامة وشؤون الفطرة والمجتمعات خاصة.

---

١) النساء، ٤/٥٨.

٢) النساء، ٤/١٠٥.

٣) النور، ٢٤/٤٧-٥١.

الفرع الأول التاريخ

إن الإنسانية متحركة غير ثابتة آتية من خلف شواهق الماضي عابرة بصحارى الحال قادمة إلى وديان المستقبل وحينما تأتى من الماضي تأتى معها بلفيف من حكايات الماضي وصور أحداثه ووقائعه ومعارفه ومعلوماته وتلقيها في محافل الحاضر وذلك اللفيف من ذكريات الماضي يكوّن الكيان التاريخي للأمم والشعوب وهذا الكيان التاريخي يتضمن بين طياته الكثير الكثير من العبر والدروس والعظات والمفاخر والمآسي ويشتمل على كثير من الذكريات العاطرة الفاخرة والشائنة المهينة وهو أهم العناصر التي يتكون منها الكيان القومي لأية أمة كانت كما انه من أعظم أجزاء الهويات التي تكوّن الكيان الثقافي لها ومن أكبر المقومات للشخصية الاجتماعية لأي شعب ما. وقوم بلا تاريخ كولد زنيم لا يعرف له نسب ولا سبب، فغالبا ما لا يبقى له حسب أيضا لأنه بين أقرانه ذليل خاشع البصر لا يرفع رأسه أبدا فكذلك الأمة التي لا تاريخ لها خاشعة الطرف بين الأقوام الأخرى لا حسب لها ولا نسب .

وهذا الكيان الذي نسميه التاريخ مصدر ثر و نبع فياض ملهم لكثير من الأمور الرشيدة النافعة ونبراس مسطاع يهتدي به آتي الأجيال إلى خيري الدنيا والآخرة. كما أنه من أهم المقومات الحضارية. فكلما ازداد استبصار الأمم بماضيها المجيد كلما ازداد تقدمها في ميادين الحياة

الرشيدة، وكلما ازداد اعتبارها من دروس الماضي كلما ازداد عطائها الحضاري أيضا.

ولما لتاريخ الشعوب من الأهمية القصوى لا تجد أية أمة حازمة حكيمة متأهبة للسيطرة على الحاضر، طامحة في مستقبل مشرق، عازمة على صنع التاريخ من جديد لا تجد أمة تحمل هذه المواصفات وتكون لديها هذه الطموحات ثم تعادي ماضيها وتاريخها. فليس هناك أي أحد يستغني عن ذكريات ماضيه ويضرب عنه صفحا سوى تلك الأمة التي احتلت أدمغة ساستها وغسلت مخخهم - بتلك الدروس التي يتلقونها من سادتهم المراوغين الذين يستهدفون فرض سيادتهم على البقاع والمناطق الغير الواعية شعوبها وأمتها- فاستهلكت تحت براثن الاستعمار الفكري والسياسي هويتها الذاتية وانصهرت في بوتقة الاستعمار جميع مقوماتها الشعبية فنسيت كيانها القومي وصارت تستحي من ذكر ماضيها المجيد كما نجد اليوم ذلك العار والشنار[1] متوفرا على أبشع صوره لدى البعض الغير القليل من ساسة البلاد الإسلامية وخصيصا أولئك الذين جعلوا العلمنة شعارا مقدسا لهم!

فمثلا ترى من جانب أن دولة يابان اهتماما بتاريخها وإحياء لذكرى السالفين من عظمائها واستفادة من تقاليدها وعاداتها المنقولة ببريد التاريخ إليها لم تترك حكومة ولا شعبا حروف أبجديتها و لم تنتقل إلى ما هو أبسط منها بكثير رغما من أن عدد حروف أبجديتها ستة

---

١) الشنار: العار، وأقبح العيب، والأمر المشهور بالشنعة.

وأربعون حرفا والرموز الصينية فيها ثمانمائة وثمانون رمزا ورغما من صعوبات كثيرة في تعلمها وكتابتها وقراءتها. فتراها أنها استطاعت بما حافظت على كيانها الاجتماعي المستمر من عريق تاريخها أن تنجز في مدة قصيرة مالا يفعله الغير من المخترعات التكنولوجية والثورات الصناعية في زمن كثير فصارت اليوم تتسابق مع الدول العظمى في كثير من الميادين التقنية والاقتصادية وغيرها رغما من ذلك الدمار والهلاك الذي شاهدتها في الحرب العالمية. ومن الجانب الآخر ترى أن تركيا غيرت أبجديتها من العثمانية إلى اللاتينية تحببا وتقربا إلى الغرب فقطعت جميع صلاتها مع تاريخها ورفضت ما يقارب ثمانين بالمائة من عاداتها وتقاليدها الموروثة وغيرت كيانها الاجتماعي من هوية مسلمة إلى هوية غربية ولكن رغما من كل ذلك لا تزال تتسكع[1] في أوحال التخلف والفقر والجهل وانحدرت إلى مستوى دول العالم الثالث[2] رغما من طاقاتها الوفيرة وثرواتها الكثيرة بحيث تعد الدولة السابعة في العالم من الدول التي تستطيع أن تكتفي بمواردها وثرواتها. وذلك لأنها فقدت بذلك التطفل للغير وبرفض تاريخها جميع القوى المحركة لديها الدافعة لها إلى الأمام فصارت كموتور (محرك ماكينة) بلا محروقة.

إعلانا بهذه القيمة الذاتية للتاريخ نجد الفرقان العظيم أعطى مكانا فسيحا للتاريخ وسرد وقائعه التي تحمل في طياتها كثيرا من

---

١) من تسكع: أي مشى مشيا متعسفا لا يدري أين يأخذ من بلاد الله، وتحير.

٢) عاليا عزت بغوفتش، البيان الإسلامي، ص١٥.

الدروس والحكم والعبر فما القصص التي تغطي مساحة واسعة في الحجم القرآني إلا لما للتاريخ من اليد الطولى في توجيه المجتمعات وجهة طيبة و تربية الأجيال وتنشئتهم نشأة صالحة- لذا لم يستغن الإنسانية يوما ما - كما أسلفنا- عن التاريخ وذكرياته النافعة الحميدة.

ونرى أن الفرقان الحكيم تلميحا إلى تلك الحقيقة الناصعة لم يهمل الاهتمام بالتاريخ في التسميات السورية أيضا لأن أسماء السور في النتيجة فهرست للقرآن كما قدمنا والفهارس عناوين على المضامين... فأعطي التاريخ ميدانا واسعا في التسمية السورية بجعل أسماء أهم الأشخاص التاريخية- التي نستفيد كثيرا من الدروس والعبر من ذكراها- أسماء للكثير من سوره وهي: أسماء بعض الأنبياء الذين لهم مكانة سامية في تاريخ النضال التوحيدي- كما مر في قسم الاعتقاديات-: **يونس، هود، يوسف، إبراهيم، نوح.**

كما جعل في هذا الصدد التاريخي لفظة **الأنبياء** الشاملة لكل نبي ورسول اسما لسورة جليلة من سورها رمزا على ما كان للأنبياء كلهم من دور هام في تسيير وتوجيه أحداث التاريخ وتحديد جل المصائر التاريخية. وإشارة إلى أن من أهم وظائف المؤرخ أن يشكل نظرته التاريخية في محور تاريخ الأنبياء كما نرى أنه يعضد فكرتنا هذه تلك الأسماء التاريخية التي تأتى في الفقرة التالية والله اعلم. وإضافة إلى ذلك التخصيص والتعميم في التاريخ الأنبيائي ذكر في التسمية بعضا آخر من أسماء الشخصيات والقوميات التاريخية التي لها صلة بأحد الأنبياء

فكانت لها مكانة هامة في تاريخ الأديان أوفي النضال التوحيدي عبر الكتب السماوية : **آل عمران، بني إسرائيل،* مريم، لقمان، سبأ.**

نجد في الجانب الآخر أن لم يترك في التسمية- استكمالا للمشهد بذكر أهم عناصره اللازمة لكي تكتمل الصورة التاريخية في الذاكرة العامة- ذكر بعض من تلك الأمكنة التاريخية التي جرت فيها أوعلى أرضها ذلك الكفاح التاريخي بين الحق والباطل : **الكهف، الحجر، الأحقاف.**

ولم يترك فيها أيضا ذكر حادثة تاريخية لها الأهمية القصوى في تاريخ بعض من الأنبياء : **المائدة.** فاكتمل في التسمية العناصر اللازمة لإتمام ديكور المشهد التاريخي : **الحادثة، أسماء الأبطال، الساحة.**

الفرع الثاني الأدب

إن الأدب من أهم مقومات الكيان الثقافي للأمم وله دوي عال مر التاريخ وله دور كبير في كثير من فروع التوجيهات الاجتماعية من الترغيب في الخير والهدى والتنفير عن الغي والهوى إلى الدور التربوي في تكوّن أخلاقيات الشعوب وغيرها وإلى كونه ذاكرة عامة لكثير من مستملحات الماضي وظرائفه ونفائسه. حتى ترى البعض من الناس يدعي أن المجتمع يأخذ صورته الجماعية وينتهج في حياته المناهج التي

---

* هذا تنزل على الاسم الآخر لسورة الإسراء الذي مر بنا وجه التسمية به في فرع الرسالة من محور الاعتقاديات.

أملتها عليها عقليات الناس التي تتكون من طريق ما تمليه عليهم القنوات الأدبية من شعر وقصص وحكايات ومسرحيات وغيرها وهذا ليس بالأمر المستنكر لأن تأثير القراءة في الإنسان من البداهة بمكان فإذا ألح غالب أفراد شعب ما على قراءة ما تنطوي على نفس الأفكار من المقروآت فلا غرو أن الكل يتأثر إيجابا أو سلبا بما توجههم إليه تلك المقروآت. وهذا هو الكائن للمحاصيل الأدبية من المفعول العميق في نفوس الناس.

انطلاقا من هذا يتبين ما يمتلكه المنتجات الأدبية سلفا وخلفا في نمو العطاء الحضاري وتشييد الصرح الحضاري. لأن للأدب بجميع فروعه المسموعة والمكتوبة والمرئية منها مفعولا قويا في تحديد سلوكيات الناس وتوجيه وتكوين ميولهم وسائر نزعاتهم واتجاهاتهم. وهي المجموعة التي يتكون منها تدريجا مع الزمن العقلية الواعية الحضارية لدي الناس تلك العقلية التي لا تقوم قائمة الحضارة بدونها.

وخصيصا إن دور الأدب في المجتمعات المعاصرة التوجيهي والإصلاحي والإفسادي أكبر وآثاره الملموسة أعظم فكان لا بد أن يتبوأ مكانا بين أسماء السور إشارة إلى مكانته الاجتماعية. فنرى أن أخذت سورتان اسميهما من أهم فرعين من فروع الأدب المعاصر وهما: الشعر في: **الشعراء** والقصة في: **القصص**.

مكانة الشعر في الأدب معروفة سلفا وخلفا ومشهورة قديما وحديثا فهو كسجل عام ينقل لنا كثيرا مما سلف في التاريخ من الحكم

والدروس وأحداث الحروب ووقائع الدهور وعلوم الأقوام وعادات الأمم وتقاليد الذين خلوا. كما أن القصة لها دورها الخاص وقيمتها العظيمة في توجيه عقليات الناس فلذا استعملها القرآن بجد وكثرة مع أن استعمال القصة ما كان معروفا في الأدب العربي بحجم ذلك الاستعمال الذي ألح القرآن عليه وقيمتها وخصيصا في الأدب العربي إنما استكشفت بعد القرآن بقرون.

وبما أنهما قسمان هامان من الأدب فلهما ما للأدب من الجوانب المتنوعة والأدوار المختلفة في التوجيه والتربية والإصلاح الاجتماعي وكذا في مقابلها، فأخذهما محلهما في التسمية من الحكمة بمكان. ثم إن الشعر والقصة لهما صفة جامعية حيث إن كثيرا من فروع الأدب ترجع إليهما فهما كالنائبين الجامعين لغيرهما من الفروع الأدبية الجارية بين أهل الأدب.

ومن فروع الأدب الهامة التاريخ وقد ذكرنا سابقا مناولة التسميات السورية للتاريخ بمحوريها الخاص والعام.

الفرع الثالث الأخلاق والفرع الرابع الدين

إن الأخلاق حجر الأساس في دوام المجتمعات وبقائها وكلما ازداد الضبط الأخلاقي وانتشر رعاية الوظائف الأخلاقية في مجتمع ما ازداد قوتها وطال عمرها واشتد مناعتها ضد جراثيم الفساد وأعطاه ذلك التماسك الأخلاقي دما جديدا طريا ونفخ فيه ذلك الانضباط

الخلقي روحا شديدا قويا وكان في حصن حصين من الظلم والتعدي على حقوق الآخرين وحرز منيع من الفتن والفساد التي هي الداء الفتاك لأي مجتمع كان وإذا فقدت الأخلاق الحسنة في مجتمع ما فأخذت الأخلاق السيئة محلها بدأ دبيب تلك الأخلاق القاتلة يدب ويهب في نواحي المجتمع ومعنى هذا أن جرس الخطر يدق ونذير الخطر يصيح ويقول ألا أنا النذير العريان! إن هلاككم دنا ودماركم قرب! فقد قال القائل:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ❖ فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويدل على تلك الأهمية البالغة للأخلاق في المنظور الإسلامي أحاديث كثيرة حول الأخلاق: **ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيمة من خلق حسن فإن الله يبغض الفاحش البذئ**[1] وقد قدمنا جملة من الأحاديث التي تنم عن وجهة الإسلام الأخلاقية كما أن هذا الحديث يعرب عن البعد الأخلاقي ومدى عمق وشمولية الاتجاه الأخلاقي في المنظور الإسلامي حيث يشمل كل خير و بر: **البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك و كرهت أن يطلع عليه الناس**[2] وهذا الحديث التالي يذكر بعضا من أخلاقيات المؤمن الواقعية التي ينبغي للمؤمن أن يتمسك بها عبر حياته وأعماله اليومية وبذلك يتكامل البنية الأخلاقية في المنظور الإسلامي بمقارنة الكليات الأخلاقية التي هي أقرب إلى النظرية مع

---

١) الترمذي، أبواب البر والصلة/٦٢.

٢) مسلم، البر/٥.

الجزئيات التي هي أدنى من الواقع: **تبسمك في وجه أخيك لك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق صدقة وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة.**[1]

إن دور الأخلاق في بناء الحضارات وانهيارها غير خاف فكلما اشتد البنيان الأخلاقي لأمة ما كلما قوي البنيان الحضاري أيضا لها. كما أن قيام الحضارة الإسلامية وانفتاحها إلى ثلاث قارات من أعظم قارات العالم في أقل من ثلثي قرن فيما مضى كان بسيرة المسلمين الحسنة والتكامل الأخلاقي والحسن الخلقي فيهم. كانوا أسوة حسنة لغيرهم في الخير والبر والمرحمة والعدل والوفاء بالوعود والعهود. كذلك جميع تلك الصيحات التي تعلو على شتى الأصعدة الغربية والشرقية وشكاواها التي تنبأ عن وشك انهيار حضارتها لا تكون إلا من فشو الأخلاق الفاسدة وازدياد المنكرات الرذيلة فيها وإلا فالبنيان المادي لها لا تزال على أقوى صورة اقتصادا وتنظيما وسياسة وعدة وعددا. ونرى أن مناعتها ومقاومتها للانهيار إلى الآن - مع حصول أسباب موتها منذ أمد غير قليل برفع القسم الكثير من القيم الإنسانية والبعض الغالب من الكمالات الأخلاقية منها- مناعتها للانهيار بما تتمتع به من تلك المستندات القوية المادية من التنظيم والتنسيق الحسن والاقتصاد القوي

---

١) الترمذي، أبواب البر والصلة/٣٦.

والاستراتجية التامة والتخطيط الحكيم. وإلا فقد فقدت موجبات الحياة منذ أمد بعيد وما بقي مبرر ومسوغ لدوام قيامها وحياتها أبدا.

إن مما يسترعي نظرنا في هذا الصدد هو أن الجانب الأخلاقي والجانب الذي يمثل الدين أقل مكانا في التسمية من غيرها من الاجتماعيات وحكمة ذلك- والله اعلم- أن القرآن اكتفي في كلا الصددين بذلك التكثيف البالغ الذي يدوم عبر القسم الغالب- وحتى قل عبر الكل- من آي الفرقان المجيد حول كلا الموضوعين. اكتفاء بذلك نرى أن الأخلاق تمثلت في تسمية واحدة: الهمزة: ذلك المرء الذي جعل لنفسه أسوء صنيع وأشنع عادة من الغيبة والوقوع في أعراض الناس حيث يهمز غيره ويلمزه ويغتابه ويقع في عرضه ويطعن في كرامته ويلوث سمعته ويجعل شرفه موطئ الأقدام وممر الأقزام[1] ألا وهو الشين المبين والخسران المشين! وهو من أسوء الأخلاق وأرذلها حيث يسبب في انحلال أواصر الأخوة والمحبة بين بني البشر كما يسبب في رفع معاني الثقة والطمأنينة من بين أفراد المجتمع وهو الداء العضال الذي ينبغي أن يتجنب عنه المجتمع أكثر ما يكون. كما أن تلك العادة السيئة كانت تسبب في المجتمعات القروية والتي قبل المجتمع الصناعي كثيرا من المشاكل وتثير كثيرا من الفتن إلى حد المقاتلة والمحاربة العظيمة بين طوائف تلك المجتمعات. فالتنفير عنه من أهم الوظائف القرآنية إن عبر آياته وإن عبر التسمية السورية فيه. ومما يجدر التنبه له هو أن الفرقان الحكيم إنما أتى في

---

١) الأقزام: أراذل الناس.

التسمية السورية في باب الأخلاق بنموذج من الأخلاق السيئة انطلاقا من ملحوظ **درء المفاسد مقدم على جلب المصالح** في نظر الإسلام والعلم والعقل فكان الاهتمام بسيئ الأخلاق وذكر نموذجها المثالي في التسمية أولى وأقدم.

الدين ببيان حقه وباطله هو بيت القصيد في القرآن وبيان حقه من باطله هو المطلب الأسمى والهدف الأعلى والمقصد الأسنى من جميع آياته واستدلالاته وترغيباته وترهيباته وتذكيراته وتحشيداته ومواعظه ونصائحه وحكمه وأحكامه وأوامره ومناهيه ومن سائر جهوده ومساعيه. إن ذكر القرآن في قسم الاعتقاديات من التسمية السورية لغالب أركان الدين الحق: **الإخلاص و الرسالة والآخرة والقرآن والملائكة وبعض من الغيبيات الأخرى** يغنينا عن التصدي لذكر الدين في جوهره الفلسفي أو لذكره كمفهوم اجتماعي داخل فيه الدين الحق والباطل يتلاقى معه وفيه كل المجتمعات الإنسانية - بلا استثناء - دوما عبر تاريخه المديد. لأن هذا امتداد لنظريات الأمور والقرآن إنما يهتم دائما بواقعياتها متجنبا إلى أقصى الحد عن النظريات وعما تتسم به من العلاقة الفكرية الغير المناسبة لموقع الكتاب العزيز من جانب ومن الميوعة التي تجر إلى الحق والباطل والصواب والخطأ أحيانا من جانب آخر. فلذا اكتفى القرآن في هذا الصدد بالإشارة إلى واقعيات الدين وهي ترى في ممثلي كلا الدينين الحق والباطل وهم: **المؤمنون والكافرون**.

غير أن هناك فريقا يظهر بين الناس بمسوح الدين الحق وهو عنه براء وضرر ذلك الفريق على الجامعة الإسلامية أشد وخطره أكبر. وما عاناه الجماعة الإسلامية الفتية في عنفوان[1] شبابها من ذلك الخصم اللدود والعدو الحسود غير خاف. وكذا في هذه الأيام الأخيرة أيضا ألد عدو يشتد ضرره على الإسلام والمسلمين هو جماعة النفاق. ومن هنا ترى القرآن العظيم حينما يذكر في ثاني سوره (البقرة) الفرق الثلاث: الكافرين والمؤمنين والمنافقين فبينما يكتفي في وصف المؤمنين بثلاث آيات وفي ذكر الكافرين بآيتين اثنتين فقط يطنب عن المنافقين في ثلاث عشرة آية كما ترى في شتى مواضع السور الأخرى أيضا حملات عنيفة على المنافقين. فناسب إعطائهم محلا في التسمية السورية تنبيها على خطرهم البالغ و شرهم المزيد وخبثهم العظيم ويتمثل ذاك الفريق في: **المنافقون.**

الفرع الخامس التنظيم الاجتماعي

إن التنظيم الجدي الحسن في الزمان والمكان والأفعال وغيرها من أهم الأمور النافعة المفيدة في المشوار الحضاري. وبدون تنسيق جيد شامل وتنظيم حسن كامل قلما تعطي الفعاليات الإنسانية والنشاطات البشرية عطائها المنشود وتؤتي ثمارها المرجوة سواء في العمل الحضاري أو في غيره. وترى أن أكثر ما يستفيد منها الأمم المتقدمة اليوم هو التنظيم

---

١) العنفوان (بضم الأول) من كل شيء: أوله.

المحكم والترتيب المتقن في جميع المحاولات والمعالجات والإجراءات والنشاطات ونرى أن ذلك من أحد أسباب تفوقهم وبقاء حضارتهم كما أشرنا آنفاً.

ومن الجانب الآخر إن النظام من أهم السنن الموجودة في جميع أجزاء هذا الكون: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]، فلا يرى في أي جزء من أجزاء الكون خلل أو فساد أو اضطراب بل لكل منها نظام خاص يسير على وفقه ويدوم في فلكه: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2]، ولما للنظام من أهمية بالغة جعل من براهين التوحيد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[3]، كما جعل الفساد الذي هو اختلال في النظام من أهم سمات الكفر والضلال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[4]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾[5].

فكما جعل الخالق سبحانه في الكون نظاما بديعا يتحير فيه أولو الألباب كذلك جعل في فطرة بني الإنسان وفي حياتهم الفردية والاجتماعية أيضا نظاما من جانب وتطلعا واشتياقا إلى النظام من جانب آخر فلا حياة بلا نظام ولا نظام يعلم بلا حياة. ومن هنا اهتم الله سبحانه

---

١) النمل، ٨٨/٢٧.

٢) يس، ٤٠/٣٦.

٣) الأنبياء، ٢٢/٢١.

٤) النمل، ١٤/٢٧.

٥) ص، ٢٨/٣٨.

بتنظيم الحياة الإنسانية على أساس الفرد والجماعة على لسان كتابه ولسان رسوله ولم يكن الإسلام إلا تنظيم العلاقات بين الله سبحانه وبين عباده من ناحية وبين العباد فيما بينهم من ناحية ثانية وبين الناس وما حولهم من الطبيعة من ناحية ثالثة. فالتنظيم كهو من أهم ما يهتم به الدين الحنيف لأن كل شيء لا يقوم على قاعدة الانتظام لا يقوم له قائمة ومآله إلى الاضمحلال[1] لا غير.

فإذاً تلك الحياة الإسلامية التي اصطفاها الله لعباده المؤمنين لا بد أن تقوم على قاعدة محكمة من النظام والتنظيم وأهم الصفحات التي نرى فيها التنظيم الإسلامي سائدا هو حياة العبودية ثم تليه الحياة الاجتماعية بشتى جوانبها علما منا أن كلا منهما مترابط مع الآخر في المنظور الإسلامي لا ينفصم أي جانب من الحياة العبودية عن الحياة الاجتماعية كما لا تنفصل هي الأخرى عنها. من هنا نرى أن القرآن ولى في جم غفير من آيه المجيدة جزأ كبيرا من عنايته نحو النظام والتنظيم وبطبيعة الحال انعكس نصيب من هذه العناية القرآنية إلى التسمية السورية أيضا فأعطت مكانا فسيحا للتنظيم والنظام بشتى مجالاتهما وأهم ما يسترعي نظرنا من تلك المجالات التنظيمية التي أتى القرآن فيها بأفق جديد وصورة جديدة هو التنظيم الاجتماعي الذي يضم بين جنباتها كثيرا من جوانب الحياة الاجتماعية. ففي التنظيم الاجتماعي نرى أن التسمية السورية عطفت من الميادين الاجتماعية نظرتها على

---

١) الاضمحلال: الذهاب والانحلال.

هذه الفروع: التنظيم الزمني وما يناسبه من التقسيم المكاني والتنظيم الاقتصادي والتنظيم السياسي والتنظيم العسكري والتنظيم التشريعي. ومع أن القرآن الحكيم أعطى بين أسماء سوره محلا هاما لهذه الميادين لم يترك بعضا آخر من تلك الجوانب التي لها أهمية بالغة في المجتمعات المنظمة: كمحاربة الأمية التي هي من أهم منقلات الإنسانية من طور البداوة إلى طور الحضارة حيث كان الكتابة هي الواسطة العظمى والأداة الوحيدة في نقل ميراث العلم وثرواته والرصيد الحضاري إلى الآخرين كما أنها هي الآلة الوحيدة في نشر العلم والمعرفة وبث الفضائل والفواضل وذيوع الكمالات والمحاسن واستقرار الثقافة وسائر صنوف المعارف في الأوساط الإنسانية والبيآت البشرية وبهذا يتجلى حكمة ذلك القسم الرباني بالقلم وحكمة الامتنان بتعليم العلم وبالتعليم بالقلم في أولى آيات الوحي المنزل. نعم تتمثل تلك المحاربة التي يعلنها القرآن ضد الأمية بصورة رمزية في التسمية السورية بجعل القلم الذي هو من أهم آلات الكتابة قديما وحديثا اسما لسورة: **القلم**.

والاهتمام بالصحافة- وهي صارت لسانا عاما يتكلم بها ألوف الألوف في شتى الميادين والمواضيع وصارت أيضا منبرا جامعا يبلغ بوساطتها إلى ملايين البشر آلاف الرسائل والمقالات والأفكار المتنوعة صحت أو سقمت- الاهتمام بالصحافة يتمثل في: النبأ ككونه من أهم عناصر الصحافة المعاصرة وفي فلكه يدور الأحداث والتنظيمات والتصريفات الصحافية.

والإشارة إلى التقسيم المكاني للأسرة الذي هو من أهم أسباب شقاء الأسرة وسعادتها خاصة في الاتجاه الإسلامي الحنيف الذي يرى تعدد الأزواج إن ذلك التنظيم المكاني المتمثل في أن يجعل البيت تشتمل على بعض الغرف حفاظا على مروات أفراد الأسرة يشير إليه اسم الحجرات. انطلاقا مما توحي إليه الكلمة ككونها دالا على التقسيم والتنظيم النبوي لحجرات أزواجه صلى الله عليه وسلم الطاهرات.

كما توحي اسم الممتحنة إلى معنى هام له أصالته ودوره الهام في الحياة العلمية والتربوية قديما وحديثا فان الكلمة وصف مأخوذ من الامتحان الذي هو الاختبار[1] - وهو في القرآن مستعمل بهذا المعنى- وخصيصا إذا لاحظنا ما للامتحان من دور عالمي هام في مجالات العلوم سلفا وخلفا- ونحن بدورنا هذا نعالج المسئلة معالجة عصرية موقنين جازمين أن كل وجوه الحكمة والمناسبة مما اطلعنا عليه وما لم نطلع سواء كانت موجودة قبل أو موجودة في يومنا هذا أو موجودة بعد في العصور التالية هي السبب في التراتيب والتراكيب والتعابير والانبناآت والتسميات الواقعة في الكلام العزيز لأنه لا يخفي على منزله شيء في الأرض ولا في السماء وهو اللطيف الخبير- إذا لاحظنا ذلك الدور الهام للامتحان استبان لنا بوضوح ما توحي إليه الكلمة من مغزى كما تبين لنا من ذاك حسن موقعها في التسمية أيضا هذا إذا قرئ كلمة الممتحنة بكسر الحاء

---

١) الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٩٣، ص ١٥٩٢.

على صيغة اسم فاعل[1] وهي المشهور.

وإلى جانب هذا توحي الكلمة - إن قرئت بفتح الحاء على صيغة اسم مفعول[2] - باعتبار كونها وصفا للمؤنث إلى دور اجتماعي هام للمرأة وتبوأها مكانتها الإنسانية في المجتمع الإسلامي حيث ان كونها ممتحنة تدل على أنه يتحتم أن يكون لها مسؤولية ضخمة في كثير من المجالات من العقيدة والعبادة إلى العلم والمعرفة حتى تكون ممتحنة فان المسؤول ممتحن وغير المسؤول غير ممتحن والله اعلم.

والمقارنة الذكرية بين الرجل والأنثى في بعض الآيات أيضا تنبئ من جانب عن المكانة التي أعطاها الإسلام للمرأة ومن جانب آخر عن تلك المسؤولية الضخمة للمرأة في المنظور الإسلامي:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[3].

إلى جانب أن جميع الممارسات العملية التي كانت المرأة المسلمة

---

١) القرطبي أبو عبد الله محمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٦، ج ١٨، ص ٤٩، الشوكاني، **فتح القدير**، ج ٥، ص ٢٠٩.

٢) المصدران السابقان.

٣) الأحزاب، ٣٣/ ٣٥.

تمارسها في الحياة الاجتماعية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم بمرأى ومسمع وتقرير منه عليه الصلاة والسلام يدل أيضا دلالة واضحة على ما أعطى الإسلام للمرأة من دور حضاري واجتماعي بحيث لا يقل دورها الحضاري ذلك عن دور الرجل كما تنم تلك الممارسات التي كانت المرأة المسلمة تزاولها إبان ظهور الإسلام عن الحريات الفسيحة والحقوق الغزيرة التي تتمتع بها المرأة المسلمة وتعرب أيضا عن دورها في الحياة الاجتماعية في الإسلام ذلك الدور الذي أعطاها الإسلام عن علم وحكمة.

الفرع السادس التنظيم الزماني والمكاني

إن الزمن قيم وغال عند الإنسان الذي يحمل عقلية حضارية وعند المجتمع الذي رشح نفسه لريادة حضارية فإن جميع النشاطات الحضارية وجميع الجهود المبذولة التي ينتج منها البنيان الحضاري إنما تكون في قطاع من قطاعات الزمن ولا يتصور استغناء أية فاعلية حضارية عن الزمن. ومن ناحية أخرى إن العطاء الحضاري لأية أمة إنما يتناسب مع مقدار استثمارها لوقتها، كلما زاد الاستثمار للوقت واستغلاله كلما زاد العطاء الحضاري أيضا. والاستثمار الكامل المفيد إنما يمكن بالتنظيم التام السديد. الزمن سيال يسرع في جريه ولا ينتظر أحدا ولا يتوقف له فمن لم يحسن استثماره فات عليه وما فات مات. فلذا

يصر **مالك بن نبي** على أن أحد الأركان الثلاث للحضارة هو الوقت[1] وإذا كان للوقت هذا المجال الواسع في التطور الحضاري فلا جرم أن تنظيم الزمن من أهم العوامل المفيدة لاستثماره بصورة أفضل وأروع وهو الذي يجعل من الوقت ركنا حضاريا وهذا التنظيم الزمني نجد أفضل صوره في الإسلام، حيث يوفر الفرص التامة لأبنائه على استثمار الوقت ويحضهم على الحرص التام على استثماره والاستفادة الكاملة منه: ففرضية الصلوات الخمس تعبير مفيد عن تنظيم الزمن اليومي للمؤمنين و فرضية الجمعة إفادة لتنظيم الزمن الأسبوعي لهم. ونلاحظ أن فرضية الصلاة الأولى اليومية عند بزوغ الفجر وهو أول تباشير الصبح وجعل الصلاة الأخيرة اليومية عند غياب الشفق الذي هو آخر متبقيات أنوار النهار كما توفر الوقت للجامعة الإسلامية بصورة أفضل كذلك تتضمن حثا وحضا على استغلال المؤمن للوقت كاملا كما سنفيد ذلك وتدل أيضا على أن وقت السعي يبدأ عند المؤمن مبكرا وينتهي مؤخرا وهذا ما يزيد من عطاء الزمن الحضاري. إن الاستثمار الأفضل للوقت هو الذي ساهم بدرجة كبيرة في ما حققته دولة يابان من التطور البالغ في الميادين الصناعية كما سبق أن ذكرنا أن بعض الدول بينما يأخذ من جميع ساعات العمل الرسمي اليومي (التي تتراوح بين ستة وثمانية ساعات يوميا) عطاء ١٥ دقيقة والبعض عطاء ٤٠ دقيقة

---

١) مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الطبعة الخامسة، دمشق ١٩٨٩، ص ٣٢.

والبعض عطاء ساعتين، والبعض عطاء أربع ساعات والبعض عطاء ست ساعات نجد ساعات الدوام الرسمي اليومية في اليابان تسعة ساعات وعطائها أيضا تسع ساعات يعني يستثمرون الوقت مائة بالمائة.

فالتسمية باسم: **العصر** يدل بإشارة تقرب من التصريح إلى أهمية الزمن في الملحظ القرآني حيث ان جميع القسمات الربانية يدل من جانب على مدى أهمية المقسم به ومن جانب آخر هي كحض وحث على التدبر في ماهيات تلك الأمور المقسم بها والبحث عن وجوه أسرار حكمة الخلق المندمجة فيها[1] فمن هنا كان هذا الاسم رمزا إلى أهمية الزمن المطلق في نظر القرآن. ومن الناحية الأخرى كل هؤلاء الأسماء الآتية لها أهمية قصوى في الإشارة إلى البرنامج الزمني اليومي للمؤمن، حيث ذكر أول الزمن اليومي وآخره ووسطه:

الفجر يدل على بدء الزمن اليومي عند المسلم، وهو إشارة كما أسلفنا تحض المؤمن على أن يبدأ بأعماله اليومية مبكرا وأن لا يتريث ولا يتبطأ. كما يفعله الكسالى النومة ويذهبون بركة البكور بنوم الصباح.

والليل حيث يدل على انتهاء الزمن اليومي،

والضحى حيث يدل على جزء هام من الزمن اليومي تلك الفترة التي يؤدى فيها معظم الأعمال.

---

١) انظر ابن قيم الجوزية محمد شمس الدين، **التبيان في أقسام القرآن**، دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٨، ص ١٩ وما بعدها.

والجمعة، حيث تكون رمزا على تنظيم الزمن الأسبوعي فإن للجمعة جوانب متنوعة حيث انها أشرف الأوقات في الأسبوع التي يطلب من المؤمن اغتنامها بالأعمال الصالحة عند الله النافعة للإنسان كما أنها رمز لتجمع أسبوعي للمؤمنين سنبين ذلك في التنظيم الاجتماعي إن شاء الله تعالى.

أما القدر فله في هذا الصدد الزمني مغزى آخر حيث يدل بسياقه القرآني على قيمة الزمن وفضيلته كما أن فيه خصوصا إشارة بالغة إلى حض العباد على اغتنام بعض من أجزاء الزمن الذي هو موسم للبركات وبيدر للأعمال الصالحات وموعد تكثر فيه الخيور والبر، وقد أسلفنا نظير ذلك آنفا في الجمعة أيضا.

كل هؤلاء الأسماء إن دلت على شيء فإنما تدل على فضيلة الزمن المطلق في نظر الإسلام من ناحية وعلى التنظيم الزمني الذي إنما يمكن أن يتحصل بتقسيم الزمان إلى أجزاء محدودة بتحديد أولها وآخرها ووسطها من ناحية ثانية وتدل على أهمية تلك الأزمنة أيضا من ناحية ثالثة. كما أن في العصر إشارة إلى أمر هام آخر وهو الإعلام بقيمة الزمن كي لا نضيعه ولا نسرف فيه فان إسراف الزمن أضر على الفرد والجماعة من إسراف المال كما يشير إلى ذلك الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه: **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ.**[1]

---

١) البخاري، الرقاق/١.

ويتبع المكان الزمن في أخذ نصيب من الاهتمام القرآني حيث جعل للمكان أيضا محل في التسمية السورية ولكن نجد الفرق واضحا بين الذكرين حيث ان التسمية السورية القرآنية- على العكس مما نجد للزمن محلا واسعا في التسمية يتناسب مع أهميته- أعطت للمكان محلا في بعض السور منها: **البلد والطور** ولكلا التسميتين مغزى هام حيث إن الأولى تكون كنموذج على الأمكنة العمرانية الحضارية التي تبدو معنى خلافة الإنسان فيها أكثر وأظهر- كما أشرنا إلى ذلك قبلُ في فرع البيئة. والثانية **الطور** (الجبل) كنموذج على الأمكنة الطبيعية التي لا غناء للإنسان عنها في أي طور من أطوار الحياة من طور البداوة إلى طور الحضارة فتكون التسمية بهاتين الكلمتين جامعة لكل الأمكنة بما تجمع تحتها من الطرفين والله اعلم.

كما ومنها **الحجرات فهي** تشكل إلى جانب ما ذكرنا دلالة على تنظيم المكان الذي تبدو وجه الحضارة فيه أكثر **ومنها الكهف** فهي بالعكس من ذلك تحمل دلالة على المكان الذي يبدو معنى البداوة فيه أكثر.

الفرع السابع التنظيم السياسي

يتبين من أول نظرة ملقاة على آي الذكر المجيد مدى اهتمامه البالغ بتنظيم المجتمع كما أسلفنا فانطلاقا من هذه النقطة الهامة نجد أن التسمية السورية ذكرت أهم الأمور التنظيمية في حياة المجتمع وسياسته

وهو: الشـــورى بكل ما تحمل الكلمة من معنى غزير شامل جامع وخصيصا إذا ما لاحظنا ما لمقابل الشورى وهو الاستبداد من تأثير سلبي كلي في حياة الشعوب والأمم و آثار سيئة وأضرار فادحة على الإنسانية كلها عبر التاريخ البشري إذا ما لاحظنا ذلك أدركنا مدى القيمة الإنسانية والسياسية لهذه الكلمة وأدركنا ما تحمل في طياتها من المغازي التنظيمية والمعاني السياسية الرشيدة الحكيمة وتيسر لنا أيضا أن نفهم أهمية موقعها في أسماء السور أيضا.

التسمية لم تكتف في معرض التنظيم السياسي بهذا القدر بل أشارت إلى المظاهر التي تكون مظهرا ومركزا للأعمال السياسية وهو التجمع الإنساني وهذا التجمع يبدو عبر تسميات السور في مظاهر منها التجمع الطائفي العام الغير المقيد بطائفة معينة ضمن التسمية ب: الزمر فإن الكلمة تدل انطلاقا من الإطلاق القرآني على التجمع من ناحية وعلى الفرقية والطائفية- التي هي سنة اجتماعية في تاريخ المجتمعات ولا غنى عنها بأي حال- من أخرى.

ومنها التجمع الدوروي المرتبط بدورة معينة في السنة الشامل لجميع صنوف الناس وهو المدلول عليه ضمن التسمية ب الحج وهو من أهم التجمعات الإنسانية التي أمر بها الإسلام مهرجان عالمي يعرض فيه صنوف الأقوام والشعوب عبوديتهم على ربهم من غير أن يكون هنا جواز لتلك الملابسات الخصوصية والتميزية التي تدل على الفوارق من ثياب ومكان وأعمال وسائر المرفهات فكل الناس من أب واحد، عباد

لرب واحد، متزيون بزي واحد، واقفون بخشوع وخضوع في مقام واحد- من غير أن يكون هناك محل للخصوصيات والدرجات والرتب- مقام الذل والعبودية لله مبتهلين متضرعين إلى جنابه سبحانه. ثم إنه ليس هذا وحسب كل ما يتضمنه الحج من معنى وحكمة بل الأظهر الأشمل من ذلك هو أن الحج إلى جانب هذا مؤتمر إسلامي سنوي عالمي يجمع فيه شمل الأمة وتوحد كلمتها وتظهر شوكتها أمام جموع الأعداء وهو فرصة عالمية للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تتلاقى فيها أبناء الأمة آتين من كل فج عميق وصوب سحيق، يجدون في تلك الفرصة السانحة إمكانية مشاورة ومذاكرة جل أمور الأمة السياسية و الإدارية والاقتصادية و الدبلوماسية والفكرية وما إليها.

فالحج إلى جانب كونه عبادة عظيمة فرضها الله على عباده المؤمنين هو من أهم تجمعات المسلمين السياسية يجتمعون فيه وعلى رأسهم رئيسهم- كما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وجميع خلفائه الأربع من بعده- تحت راية **لا إله إلا الله** وهتافهم في تلك المظاهرة الإلهية والتجمع الرباني شعارات **الله أكبر ولبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك** فيا ترى! هل تجد من تجمع سياسي يكون أنجع في إرواء غليل الأمة وشفاء عليلها وإيجاد الحلول السليمة النافعة لمشاكلها وأزماتها وتوحيد صفوفها واعتزازها بكيانها الجماعي هل ترى أنفع من هذا التجمع المقدس الذي طالما أعرض المسلمون عنه وعما يحمل من تلك المعاني السامية الحكيمة الناجعة واكتفوا منه بتلك الحركات التقليدية الميتة

الجوفاء الفارغة من روح وديناميكية فصار الحج لا يسمن ولا يغني من جوع، فاستحقوا الذل والهوان، فأتاهم الموت من كل مكان وما هم بميتين!

وكما أشير في معرض التنظيم الجماعي السياسي بتسمية الحج إلى ذلك التجمع السنوي بين المؤمنين الذي تتلاقى فيه روح العبادة والسياسة تحت راية الاعتزاز بشعائر دين الله الأقدس كذلك أشير أيضا بتسمية الجمعة إلى التجمع الأسبوعي الذي لابد منه في جماعة منظمة هادئة هادفة إلى نشر دعوة ورسالة عالميتين بين ربوع العالم، هادفة إلى تحصيل ديناميكية الإيمان في القلوب، هادفة إلى تحصيل طاقاتها بشتى أنواعها وتوجيهها إلى صالح العباد والبلاد، هادفة إلى الكفاح لكل المنكرات والرذائل الخلقية، هادفة إلى إظهار وحدتها الجماعية والأخوية التي تشع منها أنوار الإخاء والمساواة بين أفراد أسرتها العظمى، هادفة من ثمة إبراز قوتها المنبثقة من التساند بين أفراد أسرتها واستئصال كل الفواحش والخبائث الفردية والاجتماعية من المسكرات والمخدرات إلى الغيبة والحسد والبغضاء من المجتمع ومن ترسيخ روح الفضائل والكمالات في أعماق مجتمعها إلى غير ذلك من أهداف الجمعة السياسية والعبودية والاجتماعية. تتضمن الجمعة وتجمعها الأسبوعي كل هؤلاء المعاني السامية الحكيمة. وأدل الدلائل على ذلك جعل الخطبة من أركان الجمعة وجعل الأمر بالتقوى من أحد أركانها كما هو رأي الشوافع.

كما نجد في معرض التنظيم السياسي أن ذكر في تسمية سور

الفرقان المجيد أهم عناصر السياسة وهو الإنسان فمرة ذكره مفردا في التسمية ب: **الإنسان** ككائن سياسي له أدواره العظيمة الهامة في السياسة، ولما للإنسان من هذا الدور الهام في السياسة التي تجئ في رأس تلك الأمور التي تعد المناخ الطيب والتربة النافعة للبناء والعطاء الحضاري المتكامل المتواصل، لهذا الدور الفعال للإنسان يعده البعض من أولى العناصر اللازمة للحضارة ويكون الإنسان بتحمل ذلك الدور وحدة اجتماعية.[1]

ومرة ذكر الإنسان في التسمية جمعا ب: **الناس** بما أن أكثر مظاهر السياسة أو قل كلها هو التجمع الإنساني،

ومرة ذكرت التسمية أصغر وحدة و تجمع سياسي ربما الدور السياسي الأعظم في التاريخ كان لها وهو القبيلة متمثلة في اسم **قريش**،

وأخرى ذكرت أعظم وحدة سياسية إبان ذاك حافظت على مكانتها تلك إلى يومنا هذا وهي الوحدة التي ترى في صورة القوم فان الوحدة القومية من أكبر الوحدات السياسية التي تطبق فيها أصول السياسة ويجرى فيها أعمالها ونرى أن تلك الوحدة قد تمثلت في اسم **الروم**.

كما لم تهمل التسمية في هذا المقام الهام ذكر النسوة التي تقرب كميتها من نصف النسمات التي تعيش على وجه البسيطة ذكرت النسوة في التسمية ب: **النساء**. فان السياسة الأرضية- الحديثة والقديمة- كثيرا ما

---

١) مالك بن نبي، السابق، ص ٣٢.

أساءت ولا تزال تسيء إلى المرأة في سياستها وإدارتها لشؤون المجتمع وأقصتها عن محلها المتناسب مع فطرتها البشرية والمتوائم مع كرامتها الإنسانية وجعلتها طورا في محل الذل والهوان والازدراء[1] كما فيما سلف وطورا في محل المجون والدعارة والاستهتار[2] والعبث بكرامتها النسائية إشباعا لأهواء جامحي الشهوات كما في يومنا هذا. فجائت السياسة السماوية بين دفتي القرآن كي تعيد لها محلها وكرامتها وعزها ومكانتها[3] فما أجدر وما أنسب أن أعطى القرآن في تسميات سوره محلا لذكر المرأة. كما أن في ذكرها في صورة اسم الجمع إشارة- ولو خفية- إلى أن للمرأة قوة بما تتزود به من كثرة العدد. فلا يليق أن يضرب عنها الذكر صفحا.

وما أنسب وأوقع أيضا أن جعل القرآن مجادلة المرأة لنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام حول شيء من حقوقها العائلية اسما لسورة من سوره: **المجادلة** تخليدا لذكرى مجادلتها كي يطن في أذن الدهر على الدوام ما أعطى الإسلام للمرأة من تلك الحريات الفسيحة والحقوق الغريزة حيث جعلها قادرة على أن تجادل نفاحا عن حقها حتى مع نبيها ورسولها، مع قائدها، مع أكبر مرجع سياسي وديني في دولتها إلى أن تحصل ما أرادها لنفسها. نعم! كانت تلك المرأة المسلمة الصحابية الجليلة

---

١) راجع الطباطبائي، **الميزان**، ج ٢، ص ٢٦١-٢٦٨.

٢) المجون: قلة الحياء؛ الدعارة: الفساد والفسق والخبث؛ والاستهتار: كثرة الباطل والافتتان بالشيء.

٣) انظر السابق، ج٢، ص ٢٦٨-٢٧٦.

تجادل لأخذ حقوقها مع نبيها الكريم صلوات الله وسلامه عليه[1] حينما كانت أخواتها فيما حولها تمر بأقسى أدوارها الحالكة حيث كانت بعض الأمم حينئذاك تتناقش فيما بينها قضية هل المرأة إنسان أم لا؟ وكانت بعض الأمم الأخرى لا تعامل معها إلا معاملة أداة طيعة لإشباع شهوات الرجل فقط و... و... و...[2] ونرى أنه بما أعطاها الإسلام من الحريات الفسيحة والحقوق الواسعة وبما حمّلها من الأدوار الهامة في تسيير أمور المجتمع وبما هيأ لها من أخذ مكانتها المغصوبة منها عبر التاريخ في المجتمع تيسر للمرأة المسلمة أن تساهم مساهمة فعالة جيدة وأن تلعب دورا هاما في البناء الحضاري للإسلام فما أعظم سياسة الإسلام في إدارة المجتمع! وما أعظم سياسة القرآن في تسمية سوره! ولله الحمد والمنة!

---

١) يروي ابن ماجه عن طريق عروة بن الزبير قال قالت عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء. إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقول يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني أللهم إني أشكو إليك. فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات: **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله**...محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، **السنن**، أبواب الطلاق/٢٥.

٢) راجع في ذلك الكتاب القيم لأبي الحسن علي الندوي، **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، تحقيق مصطفى الندوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى، ١٤١٨، ص ٤٢-٤٣.

ثم إنه لا يخفي على جلنا أيضا ما توحي إليه كلمة المجادلـــة- من جانب آخر- من مغزى سياسي يشتغل به الأوساط السياسية وكثيرا ما يهمهم نحو ما تدل عليه كلمة المعارضة في يومنا هذا. فإن المعروف اليوم بين السياسيين أن كمال العمل السياسي يتم إلى درجة كبيرة بمجادلة المخالفين ومعارضتهم. فالمعارضـــة بأطرها السياسية الحية اليوم مما لا يستغني عنه أصلا تلك النظم السياسية التي تدور في فلك الشورى.

ثم إن المجادلة تحمل معنى سياسيا أيضا من جانب آخر حيث أجرتها خولة رضى الله عنها دفاعا عن حقها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القائد المنظم والرئيس الفذ للمسلمين وهو المرجع السياسي الوحيد لهم.

كما أن ذكر الممتحنة- ككونها اسم فاعل للمؤنث- بين أسماء السور من أدل الدلائل على الدور الذي وهبه الإسلام للمرأة في المجتمع كما أسلفنا.

الفرع الثامن التنظيم الاقتصادي

إن الأمور التي تحتل محلا هاما في حياة الفرد والمجتمع تنقسم إلى قسمين قسم يكون من الأمور الغير المتحتم الوجود لإدامة الحياة تراها حينا توجد وتتصل بالحياة وتراها حينا آخرتنعدم و تنفصم عنها فهي من الأمور التي تدوم الحياة بغير اشتراط وجودها كالسكنى في المباني الفخمة المشيدة والركوب على المطايا الفارهة فإنهما وإن أخذا مكانا هاما في الحياة ولكن تدوم الحياة بغيرهما أيضا لأنهما ليسا من ضروريات الحياة

التي لا تمكن الحياة بدونهما كالمأكل والمشرب. وقسم آخر من تلك الأمور التي تبوأت في حياة الفرد والمجتمع مكانة هامة هي من الثوابت التي لا تنفصل عن الحياة ولا الحياة عنها فهي ثابتة في الحياة لا تتبدل ولا تتغير.

لا جرم أن من هذه الأمور الثوابت في الحياة التي لا تنفصل الحياة عنها ألبتة هو الاقتصاد بجميع ما تحمل الكلمة في طياتها من مغازي اقتصادية فلا تجد في العالم الإنساني حياة مستغنية عن الاقتصاد كثيرة كانت الحاجة أو قليلة، ضئيلة كانت أو عظيمة، والأمور الاقتصادية التي يحتاج إليها متطورة كانت أم بدائية، والإنسان المحتاج إليها متحضرا كان أم متخلفا. فالحاجة إلى الاقتصاد مما لا غناء للإنسان عنها أبدا وهو ركن في حياة جميع بني البشر غير منفصل عنها من حياة الزهاد والصلحاء إلى حياة المترفين البطرين. لكل منهم حاجته الاقتصادية بحسبه.

كذلك تتبوأ الاقتصاديات في حياة المجتمع أيضا نفس المكانة الهامة التي كان لها في حياة الفرد فهي من ضروريات حياة المجتمع ودوام مسيرته فيما يعتني به من ترقية وتطور وإصلاح وجهاد وغيرها. فالوثبة الحضارية لأية أمة ما لا يمكن أن تكون بلا اقتصاد مستقل، مستقر. الاقتصاديات هي التي بها تستثمر الطاقات الإنسانية كلها وبها تترقي المجتمعات وعليها تبنى وتتكامل الحضارات، لأن البناء الحضاري يقتضي جهودا ونفقات مالية جمة وبتلك النفقات تؤسس الحضارات

مؤسساتها وتبني آثارها وتكون مناهجها وتستحصل على معالمها. لهذا ترى البعض من العلماء من أمثال **ويلل درانت** يعد الاقتصاديات أحدا من أركان الحضارات الأربع كما أسلفنا عنه.

فدلالة على ما للاقتصاديات من المكانة الهامة والدور العظيم في إصلاح المجتمع وإقامة مجده وعزه ترى أن الله سبحانه يأمر المؤمنين بالجهاد بالمال والنفس في آيات ست وفي جميعها قدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس. كما أن التقوّى الاقتصادي (بأخذ ما في عير قريش من الأموال) كان الباعث على أول عملية عسكرية (حرب بدر) زاولها الرسول صلى الله عليه وسلم. ومن هنا أيضا نرى العلماء والفلاسفة وجميع المهتمين بأمر المجتمع كثيرا ما اهتموا بأمر الاقتصاد خلفا وسلفا وعلى الخصوص في القرون الأخيرة التي ازدادت - ولا تزال تزداد- الحاجات الإنسانية فيها يوما فيوما بازدياد الصنائع والمنتجات الحديثة وأخذ الإنتاج والاستهلاك محلا مركزيا في حياة الفرد والمجتمع. فكلما زاد ثقافة الإنسان المتحضر الاستهلاكية كلما زادت حاجاته الاقتصادية على نسبتها. ومن ناحية أخرى من أهم العوامل التي تكثر الحاجة إلى الاقتصاديات علما وفلسفة وتنظيما وإدارة هو ازدياد الطلب في يومنا هذا إلى مجالات العمل بازدياد كثافة النسمات الإنسانية إلى درجة لم تحلم بها الإنسانية يوما ما.[1]

---

1) İbrahim Erol Kozakç İbnu Haldun a Göre İnsan Toplum İktisat Pnar yay. İstn. Trz. s. 31-33

فمن هذه الأهمية المركزية للاقتصاد في الحياة الإنسانية كان لزاما أن يتعرض البيان القرآني إلى التنظيم الاقتصادي بعديد آياته في عديد السياقات وأن يذكر كثيرا من الأعمال والمنافع والتصرفات والأحكام والتشريعات الاقتصادية في مختلف الأساليب:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1]، ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا﴾[2]، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۞ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[3]، ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[4]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[5]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾[6]، إلى غير ذلك من الآيات العديدة الدالة على كم كبير من

---

١) الجاثية، ١٣/٤٥، وانظر: إبراهيم، ٣٢/١٤، النحل، ١٤/١٦، الحج، ٦٥/٢٢.

٢) النحل، ١١٤/١٦.

٣) الأنعام، ١٤١/٦-١٤٢.

٤) البقرة، ١٨٨/٢.

٥) البقرة، ٢٦٧/٢.

٦) البقرة، ٢٧٨/٢-٢٧٩.

القواعد الرئيسية المجملة والأصول الأساسية العامة في الحياة الاقتصادية التي تفصح عن النظرة الاقتصادية القرآنية.

إلى جانب ما كثف القرآن في ثنايا آياته كما كبيرا من جهوده على الشؤون الاقتصادية الأخرى بحيث يمكن أن يستنبط من هذا وذاك بسهولة قواعد أساسية مجملة لتنظيم اقتصادي متكامل يتماشى مع العصور والقرون. فكي يتناسب العنوان مع المُعنوَن ولى القرآن اهتماما كبيرا للاقتصاديات في تسميات سوره أيضا.

انطلاقا من أهمية الاقتصاد في المنظور القرآني ترى أن أول ما يقع عليه نظرك في أسماء السور من تلك الأمور التي لها ملابسة خاصة بالاقتصاد هو ما ينبأ عن الملكية - بمفهومها العام- التي جل الشؤون الاقتصادية تدور حولها: **الملك**. ونرى اليوم أن أهم ما يميز إحدى المنظومات الاقتصادية عن الأخرى هي نظرتها إلى الملكية كما يرى ذلك واضحا جليا بين المنظومات الاقتصادية الثلاث: الإسلامية، اللبرالية، الاشتراكية.[1]

ثاني ما يسترعي نظرنا في أسماء السور من الأمور الاقتصادية الزكاة المدلول عليها ب: **الماعون**[2] وهي التي تشكل الجزء الأساس

---

١) راجع لتفصيل الملكية في الإسلام: فكري أحمد نعمان، **النظرية الاقتصادية في الإسلام**، ص ١٤٩-١٥٠.

٢) إن المفسرين رحمهم الله تعالى ذكروا لكلمة **الماعون** وجوها لا يخرج أي واحد منها عن الإطار الاقتصادي كما رجح الكثير أنها بمعنى الزكاة: راجع ابن كثير، ج ٤، ص ٥٥٥، شيخزاده محمد بن مصلح الدين القونوي **الحاشية على تفسير القاضي**، مكتبة الحقيقة إستانبول ١٩٩١، ج ٤، ص ٦٠٥.

والقطب العظيم في تنظيم هيكل الاقتصاد الإسلامي.

ويصحبها ذكر تلك المواد الاقتصادية التي لا يكون اقتصاد بدونها وهي: **البقرة والأنعام والنحل والفيل والعاديات والحديد والتين والزخرف و المائدة.**

إن غالب ما كان يدور عليه ويتكون به الكيان الاقتصادي من الأفعال والأحداث والأموال والثروات - طيلة التاريخ إلى مشارف القرن العشرين - هو ما أشار إليه هذه الأصناف باعتبار ما تجرى من وظيفة وهي: الاستهلاك المدلول عليها ب: **المائدة والزخرف والتين والحديد والمسد**، والإنتاج المدلول عليه ب: **الحديد والمسد والبقرة والأنعام والنحل، والفيل والعاديات**، والأعمال الاقتصادية الأخرى كالتجارة والتقلب في الأرض ابتغاء الرزق يدل عليها: **الأنعام**. (ولعلك لم تنس ما ذكرنا أن كثيرا من أسماء السور القرآنية تحمل أكثر من مغزى باعتبار ما نحن بصدده)

الأمر لا يقف عند هذا الحد في معرض الإشارة إلى الأمور الاقتصادية في تسميات السور فنرى التسمية السورية تقطع شوطا آخر أبعد حول الإشارة إلى الشؤون الاقتصادية وهو ذكر أهم ما يهدف في الأعمال الاقتصادية من تكثير الأموال الذي هو المحور الأصيل لغالب المحاولات الاقتصادية أشار إليه ضمن: **التكاثر** وهو أول وآخر ما يقصد في الاقتصاد تنزيلا بالكلمة - في وجهتنا هذه- إلى معنى تكاثر الأموال- وان كان له محمل قرآني آخر- كما قال **الإصفهاني**: إن التكاثر التباري في

كثرة المال والعز[1] ويرافق لفظة التكاثر في الدلالة على الكثرة الاقتصادية انطلاقا من المعنى اللغوي للكلمة لفظة: **الكوثر** ونحيل الأمر كرة أخرى على **الإصفهاني** الذي هو فارس هذا المضمار الذي لا يجارى حيث يقول: ويقال تكوثر الشيء كثر كثرة متناهية[2] **فالكوثر** إذا لاحظنا معناها ضمن الإطلاق القرآني (أي المعنى الملحوظ من السياق القرآني) فإنه يتضمن الخير الكثير للأمة[3]، ويشمل ذلك الخير الكثير للأمة تحسن اقتصادياتها أيضا وإن شمل غيرها، وإن لاحظنا معناها اللغوي فحسب بلا إضافة شيء من السياق القرآني عليه كان دالا على ما قصدناها هنا بلا تكلف ولا عناء. علما منا أنه ما لم يرد نص قاطع على أن المراد بالكلمات في أسماء السور هو المعاني القرآنية فحسب جاز لنا حسبما يمنا إليه وجهتنا أن نذهب بها المذهب اللغوي أيضا كما ذكرنا ذلك انطلاقا مما نجده سائدا على الكثير من التراكيب القرآنية من جواز الحمل على الوجوه الكثيرة - الغير المعارضة للنصوص والسياق- بلا مراء ولا نزاع. وقد أشار إلى ذلك علي رضي الله عنه حينما بعث ابن عباس رضي الله عنه إلى الخوارج يحاجهم: "**لا تجادلهم بالقرآن فإن القرآن حمال ذو وجوه**" وهو السبب في كثرة الوجوه التفسيرية وتكثير المحامل القرآنية

---

١) الراغب، **المفردات**، ص ٧٠٣.

٢) نفس المصدر السابق.

٣) راجع ابن كثير، ج ٤، ص ٥٥٨.

مما أدى إلى تأليف الكتب الطوال في تفسير كلام الله مما يناهز الألوف. وقد بينا أسباب ذلك بتفصيل في كتابنا **ثراء المعنى في القرآن الكريم**.[1]

من بين تلك الأمور الاقتصادية الهامة التي تتبوأ محلا هاما في الاقتصاد ولا ينبغي إهمالها هو الغبن الذي يحذر منه حذرا شديدا ويحترز عنه كثيرا كل من يزاول عملا اقتصاديا كتجارة أو ما ضاهاها وهو مذكور ضمن كلمة : **التغابن** ونحن في وجهتنا هذه أيضا مع المعنى اللغوي للكلمة جازمين أن اللفظة لم تنحسم علاقتها بالمعنى اللغوي حينما تبوأت مكانتها في التركيب القرآني أيضا فإن مدلول الكلمة اللغوي- وهو أن يغبن بعض الناس بعضا[2] في صفقاتهم- مستمر في التركيب القرآني أيضا.[3]

و نرى التسمية السورية الحكيمة لم تهمل - تحذيرا للمسلمين وتنبيها لهم- أهم ما يسبب رفع الثقة والأمن في الأعمال الاقتصادية بين الناس في تصرفاتهم الاقتصادية ويكوّن الفوضوية الاقتصادية في المسير الاقتصادي ويسبب رفع أخلاقيات الاقتصاد التي أصر عليها الإسلام في عديد النصوص لم تهمل ذلك تمشيا مع تلك القاعدة المصفاة من روح الشريعة الإسلامية : **إن درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح**[4] مع أن فقدان

---

١) راجع محمد خليل جيجك، **ثراء المعنى في القرآن الكريم**، دار السلام القاهرة ١٩٩٨.

٢) الفيروزآبادي، **القاموس**، ص ١٥٧٣.

٣) راجع ابن كثير، ج ٤، ص ٣٧٥، وجمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨، ج ١٦، ص ١٨٢-١٨٣، والشوكاني، ج ٥، ص ٢٣٧.

٤) انظر لتفصيل هذه القاعدة: عبد الكريم زيدان، **المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، ص ٨٤-٨٥.

التواثق المتبادل والأمن الكامل وعدم رعاية بعض الضوابط التنظيمية المتمثلة في الأوامر والنواهي في الأعمال الاقتصادية خطر عظيم على الاقتصاد ومسيره ونموه الاجتماعي مما تنعكس آثاره السلبية على كثير من ساحات الاقتصاد والأسواق الاقتصادية حيث يسبب فقدان الأمن في الأعمال الاقتصادية من جانب تلكم الأمور التي تسبب الفوضوية والاضطراب في الحياة الاقتصادية ومن جانب آخر التجشم لكثير من الأعمال التدبيرية الوقائية التي لولا أن كان الثقة والأمن مفقودين في المجتمع لما احتيج إليها فرمزا على هذه المعاني جعلت كلمة: **المطففين** اسما لإحدى السور المدنية التي كانت تتنزل إبان الهياج التشريعي.

ومن طرف آخر إن من يلقي نظرة عابرة على الفهرست السوري حينما يصادف اسم **المطففين** لا يتمالك نفسه أن يجد مرتسما على شاشة ذاكرته ذاك الوعيد الرباني الرهيب: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۞ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[1] نعم ما أعظم هذا الوعيد: ﴿**أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾. فإنه وعيد عظيم يفيق منه المؤمن الذي لم يتركز ولم يترسخ المادية في نفسيته وعقليته بصورة التأله- كما في عصرنا- يفيق منه المؤمن لتوه إلى رشده و ينقلع عن أباطيله وضلالاته الاقتصادية. فيتحصل بذاك على ما يثبت في نفسيته روح الأمن والثقة

---

١) المطففين، ٨٣/١-٦.

تجاه الآخرين ويبتعد بذلك الزجر الإلهي العظيم عن مواقع الغدر والخيانة بالآخرين في جميع معاملاته الاقتصادية و يفعل ذلك الزجر الإلهي في ابتعاد المؤمنين عن كل مظان الغدر والخيانة والغش والاحتكار والتدليس والاجتناب عن أكل أموال الناس بالباطل وجميع أنواع الحرام والتورع عن التعدي على حقوق الآخرين تفعل الآية في كل ذلك ما لا يستطيع أن يفعله آلاف الشرطة ورجال الأمن فهل نسينا ما فعلته تلك الآية التي تحرم الخمر؟ فإن تلك الآية الوحيدة مع ما يدعمها من بعض جمل معدودة صرفت من طرف الرسول(أي أحاديث تحريم الخمر) أبقت مفعولا في نفوس المؤمنين بها بحيث ترك الخمر لا المعاصرون لنزول الآية فقط ولا الصحابة فقط بل تركها أبدا كل من آمن بها من مليارات الناس ممن شاهدوا نزول الآية وممن جاؤوا بعد نزولها بقرون كثيرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من الفقراء والأثرياء والرجال والنساء والشبان والشيوخ. فهذا ما لا يستطيع أن يفعله أبدا ملايين قوات الأمن فمثلا الحكومة الأمريكية منعت الخمر(حوالي عام ١٩١٩م) وطاردتها في بلادها واستعملت جميع وسائل المدنية الحاضرة كالمجلات والجرائد والمحاضرات والصور والسينما لتهجين شرب الخمر وبيان مضارها ومفاسدها. ويقدرون ما أنفقته أمريكا في الدعاية ضد الخمر بما يزيد على ٦٠ مليون دولار و ما نشرته من الكتب والنشرات بما يشتمل على ١٠ بلايين صفحة وما تحملته في سبيل تنفيذ قانون التحريم في مدة أربعة عشر عاما بما لا يقل عن ٢٥٠

مليون جنيه (٥ ، ٧٢ مليون دولار). وقد أعدم فيها ٣٠٠ إنسان وسجن ٥٣٢٣٣٥ إنساناً. وبلغت الغرامات المالية إلى ١٦ مليون جنيه (٦ ، ٤ مليون دولار) وصادرت من الأموال ما يبلغ ٤٠٠ مليون وأربعة ملايين جنيه (١ ، ١١٧ مليون دولار) ولكن كل ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراما بالخمر وعنادا في تعاطيها حتى اضطرت الحكومة سنة ١٩٣٣ إلى سحب القانون وإباحة الخمر في بلادها إباحة مطلقة.[1]

فمفعول تلك الآيات التي تحرم مال الغير من مثل قوله تعالى : ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2] و قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[3] مفعول هذه الآيات لا تقل أبدا عن مفعول آية الخمر بل أكثر منها بكثير وكثير فإن أردت شهداء لا شاهدا واحد فقط على ما تؤمّنه هذه الآيات في أمن الأموال من المفعول الطيب فنذكر لك بعض الأمثلة التي يتيسر لك بها المقارنة والموازنة بين ما تمتلكه كلتا الحضارتين من وسائل الأمن الاقتصادي (إلى جانب الأمن في المجالات الأخرى) وما تبقيه تلك الوسائل من مفعول باق دائم عبر العصور:

---

١) أبي الحسن الندوي ما ذا خسر العالم ، ص ٥٩.

٢) البقرة، ١٨٨/٢.

٣) النساء، ٢٩/٤.

١ - اذهب إلى أهم مراكز الحضارة الغربية من أمريكا وبريطانيا وغيرهما وضع في جانب من جوانب ذاكرتك صورة مما رأيته هناك من تشديدات الأمن والتدابير الكثيرة لحفظ الأموال ثم ارجع إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم أو أي مدينة أخرى مما تحتكم إلى الشريعة الإسلامية من مكة أو الرياض أو حتى بعض المدن الأخرى حتى ولو كانت مما ضعف فيها الوازع الإسلامي ثم قارن بين كلتا الصورتين لترى صدق ما قلنا فقد رأينا بأم أعيننا مرات كثيرة أنه يترك الدكاكين التي تحتوي على ملايين الريالات أو آلاف الدولارات مفتوحة بلا راع ولا حارس ويذهب صاحبها إلى المسجد لصلاته أو إلى قضاء حاجته كما ذكرنا سابقا.

٢ - إن أحدا من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة التي أدرّس فيها ممن يوثق بقوله وسمته نقل لي أنه حينما كان في بريطانيا طالبا للبحث في رسالة الدكتوراه سرق أمتعته وسط النهار مرتين من منزله في بريطانيا فاضطر إلى أن غير مسكنه وقال أيضا اختطف وسط النهار وفي إحدى الأسواق الكبرى - من أسواق بريطانيا - من يد زوجتي فلوسها التي كانت تشتري بها بعض حوائجها.

٣ـ وقد نقلنا فيما سلف ما وقع عام ١٩٧٧ في نيويورك في أمريكا حيث فقد بعض التدابير الأمنية بما أن الشرطة انقطعوا من مهمتهم بسبب الظلام حينما انقطع الكهرباء لمدة طويلة من النهب والسلب والخطف والتدمير والسرقة وغيرها. فهل من مزيد؟؟

٤ـ ومن أدل الدلائل على ما يتمتع به المسلمون من الأمن والثقة المتبادلة فيما بينهم تلك الثقة النابعة من الروحية العميقة التي أنبتتها في قلوب المسلمين تلك الآيات السالفة والأحاديث النبوية الشريفة حول تحريم تناول مال الغير بلا حق هو أنك لا تزال ترى في كثير من البلاد الإسلامية أنهم يتداينون فيما بينهم ويقرض بعضهم بعضا ويشترون الأشياء مؤجلا وفي كل ذلك بلا أخذ أي شيك أو سند رسمي يلجئهم غدا إلى الدفع أو يلزمهم القاضي بموجبها بالأداء مع أن جميع المبادلات المالية في الغرب وفي تلك الأوساط العلمانية إنما تتيسر بالشيكات أو السندات التي يوقعها المدين كي لا يفلت غدا من قبضة القاضي فيلزمه على الأداء. أما في الأوساط المتدينة التي تحافظ على سلوكها الإسلامي - ولو غير كامل- فترى أن بعضا غير قليل منهم لا يزالون يتعاملون فيما بينهم اعتمادا على ما يتمتع الطرفان به من خشية الله وعدم التعدي على حقوق الآخرين من غير أي توثيق رسمي أو توقيع شيك أو سند ولم تنتشر المعاملة بالشيكات والسندات وأوراق البنوك بين المسلمين إلا حينما اشتد فيهم روح التغرب والعلمنة وضعف فيهم الوازع الإسلامي وروح التقوى فلو أتيت بالأمثلة لما كفاني عشرات الصحف لسرد ما رأيته من الأمثلة الواقعية في هذا الأمن والثقة المتبادلة العميقة في الأموال والمعاملات اليومية الجارية بين أفراد المسلمين رغما من احتلال العلمنة لغالب بلاد الإسلام في قعر دارها وتلويثها للعقائد والأفكار!

فيتبين من كل ما ذكرنا وما لم نذكر أن مفعول الآية في المجتمعات المؤمنة في ناحية التوجيه الإيجابي الرشيد مفعول يدوم تأثيره على المدى البعيد مفعول غير موقوت بزمن محدد فقط أو مجتمع معين فقط بل يعيش هذا المفعول الطيب طيلة ما عاش الإيمان الصحيح وخشية الله في القلوب فهو مفعول شامل يرى آثاره الطيبة في جميع المجتمعات المؤمنة بها وبين جميع أفراد من آمن بها.

وأخيرا لا آخرا هذا المفعول الطيب في مجال التجنب من التعدي على حقوق الغير من إحدى سمات حضارة هذه الأمة التي يحق أن يفكر فيها الاجتماعيون والذين وقفوا أنفسهم على إصلاح المجتمعات من الإصلاحيين.

خلاصة

يتبين بوضوح أن ما توحي إليه تسميات السور من النظرة الاقتصادية نظرة مستوعبة لأهم جوانب الاقتصاديات حيث ان أول ما يدور في فلكه كل الاقتصاديات هو الملك فلا يتصور الاقتصاد بلا أن يكون هنا ملكية شخصية كانت- كما يقبله النظرة اللبرالية- أو عمومية- كما في النظرة الاشتراكية- أشارت إلى الملكية بمفهومها العام الملك.

ثم إن ما يتعلق بالاقتصاديات إما جانب تنظيمي يدور مع تنظيم العلاقات الاقتصادية فيما بين الناس يوحي إلى ذلك **المـاعون** بمدلولها الزكوي.

وإما جانب عملي وهو إما ايجابي أو سلبي يشير إلى الجانب العملي الايجابي من الاقتصاد: **التكـاثر والكوثـر** فإن تكثير النماء الاقتصادي وازدياد المنتجات الاقتصادية بالربح وغيره من طرق التنمية من أكبر الأهداف الذي يسعى ويكدح له العامل الاقتصادي في نشاطاته الاقتصادية، كما أن تكاثر المال وكوثرته هو المحور الذي يدور ويحور في فلكه الغالبية العظمى من الشؤون والأعمال الاقتصادية.

كما يشير إلى الجانب العملي السلبي الذي يجدر لكل من يزاول عملا اقتصاديا أن يتجنب عنه المنتج من العمليات الاقتصادية **التغابن** من الغبن الذي هو عنوان على أهم المحذورات الاقتصادية الذي يتهرب عنه كل أرباب الأنشطة الاقتصادية ولذا يذكر كل عالم اقتصادي أهم ما يجنب عنه من القواعد والتدابير والسلوكيات الاقتصادية.

كما تشير التسمية إلى نوع آخر من الأعمال السلبية الاقتصادية التي لها آثار سيئة وأضرار فادحة في دنيا الاقتصاد والتي يعالجها شرار الخلق وخبثاء النفس والطبيعة ذلك العمل الخياني الذي يشمئز منها النفوس وينفر منها العقول والقلوب. ألا وهو التطفيف في ضمن **المطففين**.

وفي الجانب الآخر إن من المستحيل أن يستمر الاقتصاد علما وعملا وفلسفة بلا مواد اقتصادية تتقلب فيما بين الناس- ككونها كائنة لها الدور الأعظم في الاقتصاد- ولا يتأتى أيضا أن يبرز إلى الوجود بدونها عمل محوري يسمى عملا اقتصاديا ينبنى عليه قواعد الاقتصاد علما وفلسفة ويجري على ضوئه عملياته تطبيقا فنرى أن تسميات القرآن السورية لم تهمل ذلك الجانب أيضا فذكرت كنموذج على المواد الاقتصادية ما عساه أن يكون أهم مواده: **الحديد، المسد، البقرة، التين، الأنعام، النحل، الفيل، العاديات** وأظن أن لا يخفي عليك بعد ما سردنا- ما يوحي إليه كل من هذه الأسماء أيضا ككونها نموذجا على جنس من الأجناس التي كانت أهم المواد الاقتصادية عبر التاريخ.

الفرع التاسع التنظيم العسكري

إن أهم ما شغل الإنسانية طوال عمرها المديد هو الحرب بإيجابياته وسلبياته فالحرب حادث اجتماعي هام يحتل محلا هاما ومجالا واسعا في الاجتماعيات لا مناص من الصدود عنه ورميه إلى الوراء مهما كان من أمره ولم يخل عالم الإنسانية من الحروب يوما ما مهما كانت متطورة أو متخلفة، مرتقية أو متأخرة، متحضرة أو ابتدائية والحرب وان رؤى بمنظره الظاهري حدثا منفورا منكرا يترتب عليه سفك الدماء وكثرة الدمار وانتهاك الحقوق ولكن ربما يترتب عليه آثار حسنة أيضا من تحقيق العدل ورفع الظلم وإحقاق الحق وإبطال الباطل إذا غامر الحرب

عباد صالحون يعيشون للعدل والحق والهدى لا للجور والنفس والهوى، عباد ليس غرضهم من الحرب إرواء الغليل الاستعماري والسيطرة على منافع العباد ونهب الأعراض، بل الهدف المنشود لهم هو نشر الفضيلة وبث روح الخير والبر والعدل بين العباد و البلاد ونرى أن هذه الأمور هي الهدف الوحيد من مشروعية الجهاد في الإسلام وليس الهدف منه هو حمل الناس قسرا وقهرا على اعتناق عقيدة الإسلام وإلا فحينئذ لا معنى لقوله تعالى: **لا إكراه في الدين** و قوله تعالى: **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** وقوله تعالى: **لكم دينكم ولي دين** وآيات أخرى من هذا الباب مما يفيد أن لا إجبار على العقيدة في الإسلام وإلا فتكون تلك الآيات متناقضة مع مشروعية قسر الناس على عقيدة الإسلام.

نعم إن مشروعية الجهاد قضية مفروغة عنها فلا اعتداد بذلك الهراء الباطل[1] وخطل القول[2] من طرف البعض ولا بتشكيكاته حول مشروعية الجهاد ومحاولة جره إلى جانب آخر غير مكانته الأصيلة ففي مآت الآيات رغب في الجهاد وأمر به منها:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

---

١) الهراء: المنطق الفاسد لا نظام له.

٢) الخطل: الكلام الفاسد الكثير.

الْفَاسِقِينَ ﴾[1]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[2] إلى آخر ما في الموضوع من الآيات.

ومن الأحاديث:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قيل يا رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله"[3]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مثل المجاهد في سبيل الله – والله أعلم بمن يجاهد في سبيله – كمثل الصائم القائم وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالما مع اجر أو غنيمة"[4]

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم الفتح " لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا"[5] إلى آخر ما في الباب من الأحاديث.

---

١) التوبة، ٩/٢٤.

٢) الصف، ٦١/١٠-١٢.

٣) محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع الصحيح**، كتاب الجهاد والسير/٢.

٤) نفس المصدر.

٥) البخاري، كتاب الجهاد/٢٧.

فيتحصل من جميع النصوص الموجودة حول الموضوع بكثرة أن الجهاد مشروع في الإسلام وثابت قطعا كتابا وسنة وإجماعا فهو من المعلوم بالدين ضرورة، ومشروعيته مفهومة عقلا وحكمة ومنطقا، ولكن كيفية الجهاد وتحديد وقته ومساحته وتعجيله وتأجيله ومع من يجاهد كل هؤلاء الأمور موكولة إلى رأي إمام المسلمين وشوراهم.

وليس معنى مشروعية الجهاد في الإسلام أن الحكومة الإسلامية مكلفة بإعلان الجهاد مهما كانت الظروف والأحوال. فليس من الحزم والحكمة أن تغامر الحكومة فيما لا قبل لها به و كذا من الحكمة بمعزل أن ترفض السلم وتصر على الحرب مهما كان الطرف المقابل طالبا للسلم وخصيصا في هذا العصر الذي ترك المضاربة بالسيوف محلها للمقاتلة بأسلحة الإبادة الجماعية من الطائرات والراجمات والصواريخ ذوات الرؤوس النووية وغيرها:

﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

أما الهدف من الجهاد الإسلامي فلا نطول الكلام فيه ولا نتدخل بعرض آرائنا فلنخل المجال للقرآن يفصح عن ذلك بكلماته النيرة الوضائة: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ﴾[3]، ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ

---

١) البقرة، ١٩٥/٢.

٢) الأنفال، ٦١/٨.

٣) الأنفال، ٣٩/٨.

يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۞ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[1]، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾[2].

الحرب ككونه واقعا إنسانيا اجتماعيا يجعل أحد الفردين أو الجماعتين أو المجتمعين المتحاربين إما على شفا حفرة من الهلاك والدمار وإما على صعيد النصر والفتح فيكون للمتحاربين خياران لا ثالث لهما: **إما الحياة بعزة والموت بعزة أو الحياة بذلة والموت بذلة** فمن هنا تقتضي سياسة الحرب تنظيما هاما كي يجري فيه على مقتضى استراتيجية دقيقة حكيمة تذهب بالمرء والجماعة نحو الظفر والنصر وخصيصا إذا كان الحرب يجري لإحقاق الحق ورفع الظلم ومحق الباطل لا طمعا في ثروات الغير ووقوعا في أعراض الناس وكراماتهم وحرصا على ازدياد ميادين الاستعمار الجماعي فإن الحرب حينئذاك من أهم الوظائف الإنسانية ويجب على القائمين على ذاك الحرب أن يكونوا على أهبة تامة وعدة إنسانية بالغة واستعداد كامل كي لا يظفر الطرف الغاشم والجهة المعتدية.

انطلاقا من هذه الوجهة الرشيدة ترى القرآن الحكيم اهتم بالحرب انتصارا للحق وقمعا للباطل في عديد من آياته البينات فإن الواقع الإنساني هو أن الإنسان وإن تطور تطورا بالغا وتقدما

---

١) النساء، ٤/٧٥-٧٦.

٢) الأنفال، ٨/٧٣.

مدهشا في كثير من مجالات العلم والتفكير والمعرفة والتربية، وكذا وإن قطع أشواطا بعيدة ومسافات شاسعة - حسب مزاعمه- في ميادين الحريات والحقوق الإنسانية لكنه لم يخل يوما ما فيما مضى وليس خاليا في أي آن من الحاضر ولا يخلو فيما سيستقبل من تلك المظالم الذريعة الشنيعة والاعتداآت البشعة الفظيعة وانتهاك الكرامات الإنسانية والإهدار بحقوق الأبرياء خاصة والناس عامة في شتى المستويات وبين مختلف الأجناس وفي مختلف البلاد وسفح دماء ملايين العباد بحيث ان أعظم المجازر الجماعية والدمار الجماعي لم يكن إلا في القرن العشرين قرن التطور والتقدم! قرن حقوق الإنسان! فلذا سمى هذا العصر بعض الغربيين عصر الموت الأكبر كما أسلفنا. فإذًا إن نظرة القرآن للحرب تجاه الظلمة والمغتصبين نظرة صائبة إلى أقصى الحدود أخذا على يد الظالم وإنصافا منه للمظلوم كما بين ذلك الآيات السالفة وغيرها من الآيات العديدات وكما قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: "**لينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما إن كان ظالما فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلوما فلينصره**"[1].

من هذا الاتجاه الحكيم أعطى القرآن محلا هاما للتنظيم العسكري في تسميات سوره - إلى جنب كثير من آياته- كي لا يهزل الحق فيكون ظافرا منصورا ولا يتقوى الباطل حتى يكون صائلا مغرورا. ونرى ذاك التنظيم عقلانيا موافقا للعقل وواقعيا يناسب الواقع مناسبة رصينة حيث

---

١) مسلم، البر/١٦.

ذكر: القتال (على إحدى الروايات الواردة في اسم سورة محمد كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك الاختلاف) رمزا لوجود ومشروعية الحرب في الاتجاه الإسلامي انطلاقا من الواقع الإنساني المر إذا اقتضاه الظروف والحالات الاجتماعية الطارئة. غير أن الاتجاه الحربي ليس الاتجاه الأصل الذي نلابسه - مهما كان الأمر- غلوا في الأرض واستكبارا واستغلالا لمنا فع الغير واستعمارا، بل الأمر في نظر الإسلام موقوف إلى درجة بالغة على موقف الغير منا سلما وحربا واعتداآ واعتدالا فإذا ليس المسلمون هم طلاب الحرب بحيث هم يبدءون به بادئ ذي بدء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1]، ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2]، ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[3].

إن الإسلام ليس دين القسوة والعنف والشدة والوحشة والاستعمار والاستغلال حتى يكون الأهداف الحربية فيه الاستعمار والاستغلال أو الأساليب الحربية فيه الشدة والعنف والظلم بل هو دين الإنسانية والخير والرحمة والمساواة والعدل والشفقة وإحقاق الحق وإبطال الباطل. ومن ثم كان جميع أهدافه من الحرب والقتال والجهاد

---

١) البقرة، ٢٠٨/٢.

٢) الأنفال، ٦١/٨.

٣) التوبة، ٧/٩.

هو الأخذ على أيدي الظلمة والمنع من اعتداء المعتدين ورفع المظالم وإزاحة مواقع الفجور وتطهير الأرض من درن الرذائل ووسخ المنكرات ودنس الفحشاء من جانب ونشر الهدى والخير والفضيلة والعدالة بين بني الإنسان - مؤمنا كان أو مشركا صالحا كان أو طالحا برا كان أو فاجرا- من جانب آخر. كما يرى ذلك بوضوح وجلاء في ممارسات المسلمين للحروب وفي سيرتهم في البلاد التي فتحوها في معاملاتهم لأسرى الأعداء عبر التاريخ.[1]

ثم بعد هذا العرض المجمل وبعد ما رأينا الإشارة الإجمالية إلى الحرب ضمن التسمية المتقدمة نرى أن الفرقان الحكيم لم يكتف بهذا الإجمال بل ناول التنظيم العسكري في تسميات السور ضمن قضية التجمع للحرب في اسمين: **الأحزاب والصف** فإنهما- انطلاقا من المدلول القرآني لكليهما- توحيان بالتجمع للحرب: أولاهما تدل على التجمع

---

١) يستبين ذلك بوضوح وسطوع إذا ما ألقينا أدنى نظرة على ما تقيده كتب التاريخ من خطب حكام المسلمين حينما تولوا الإمارة على المسلمين (انظر محمد حميد الله، **الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، دار النفائس، الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٨٥، ص ٣٣٩-٣٤١، علي الطنطاوي، **رجال من التاريخ**، دار المنارة، الطبعة الثامنة، بيروت ١٩٩٠، ص ٧٨-٧٩) وحول أوامر خلفاء المسلمين لقواد وأمراء جنودهم بالرحمة وعدم الاعتداء على الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ والرهبان وعدم الإضرار بالبيئة وعدم إتلاف البهائم والحيوانات انظر محمد حميد الله، السابق، ص ٢٩٥، ٤٢٧-٤٣٦، ٤٤٢، ٤٥٨، ٤٦١، وأبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، **كتاب الخراج**، دار المعرفة بيروت بلا تاريخ، ص ١٣٨-١٤٩.

الضروري كأهبة لازمة قبل مباشرة الحرب وثانيتهما تدل على التجمع التنظيمي في شكل الصفوف حين مباشرة الحرب وهو كرمز على التنظيم والتنسيق والأهبة والاستعداد الاستراتيجي الضروري للحرب. كما أن **الأحزاب** رمز على الاستعداد في صورة التجمع الإنساني في شكل الفرقات والطابورات والوحدات العسكرية التي يعدها ويرتبها أرباب الخبرات العسكرية.

إن التجمع للحرب مهما كان كبيرا وكثيرا والعمل التنظيمي مهما كان متقنا ومحكما فسوف يبوء بالفشل والوبار إذا لم يرافقهما آليات الحرب ومعداته اللازمة فمن هنا نجد تسميات سور الفرقان الحكيم لم تهمل الإشارة في أسمائها إلى آليات الحرب ومعداته بذكر أهم الآليات التي يحتاج إليها الحرب وخصيصا حينئذاك : **العاديات** وهي الخيول التي تعدو إلى الحرب وعلى متنها المحارب المجاهد. **والفيل** التي كان لها أيضا مكانة كبيرة في تلك الحروب الطاحنة التي وقعت عبر التاريخ.

أظن أنه لا حاجة بنا إلى التعريف والبيان بما لعبه الخيل والفيل من الدور الكبير عبر التاريخ في الحروب. ثم إننا نرى أن هذين الاسمين رمزان على آلات الحرب فيدخل في ضمنهما جميع ما يُرى من معدات الحرب في القرن العشرين من الدبابات إلى الراجمات والطائرات القاذفة للقنابل و الصواريخ.

كما يصرح بذلك هذا البيان القرآني الجامع الذي يدل على أن المسلمين مكلفون باتخاذ جميع الوسائل التي تجعلهم على جانب من القوة والنصر والعزة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ﴾[1] مع أننا لا ننسى أن سيادة أية أمة ما وعزة جانبها لا تتيسر إلا بقوتها العسكرية والحربية إلى جانب قوة اقتصادها وبدون السيادة والقوة لا يمكن تحقيق العدل ومكافحة أي نوع من أنواع الظلم أبدا. وواقع دنيانا المعاصرة من أصدق الأدلة على ذلك.

والبيان القرآني في تسمياته الموحية للتنظيم العسكري لم يقف عند هذا الحد فذكر- إتماما لمشهد الحرب وللخطة المبدوءة من أولها كي ينتهي بآخرها- ما هو الهدف الأعظم من الحرب: النصر والفتح لأن جميع الأعمال الحربية تهدف النصر على الأعداء ثم فتح البلاد المطلوب من الحرب، كما ذكر ما يترتب على القتال كنتيجة للحرب أيضا وهو الغنائم: الأنفال فإن معنى الغنيمة يغلب في مدلول الأنفال على غالب الاحتمالات.[2]

فبهذا يكتمل المشهد ويتم الصورة الحربية مبدوءة بالقتال ومختومة بذكر الغنائم التي يظفر بها بعد النصر فيا لله! ما أحكم وأبدع البيان

---

١) الأنفال، ٨/٦٠.

٢) راجع الإصبهاني، المفردات، ص ٨٢٠.

القرآني! إن من آياته البينات وإن من خلال أسماء سوره. ولله الحمد والمنة.

الفرع العاشر التنظيم التشريعي

إن قوة التشريع واكتمال جوانبه وإنسانية أهدافه وحكمة مناهجه وشمله لشتات الأمة ولئمه لصدعها بشير صدق وشاهد عدل على قوة البنيان الحضاري لتلك الأمة فالكيان التشريعي من أهم العوامل في تماسك البنيان الحضاري ودوامه وطول عمره لأنه هو الذي يتحرك به عجلة الأمة الاجتماعية ويتابع الكيان الاجتماعي مسيره به. وبدون تشريع عادل هادف لتحقيق الخير والسلام، ساهر على حفظ الحقوق والكرامات في الأمة، حارس على أمن البلاد وسلامة العباد لا يتقوى البنية الاجتماعية ولا يتكون مناعتها ضد الفساد واختلال الأحوال ويسري فيها ساري الفتن والاضطراب فيتآكل المجتمع بعضه بعضا إلى أن تنهار الحضارة يوما ما أو يسقط مفعولها عن إيفاء دورها الاجتماعي الكامل كما هو الحال الآن في الحضارة الإسلامية حيث سقط مفعوله عن إجراء دوره.

فالصلة بين الحضارة والتشريع صلة قوية متينة صلة حفاظ وحراسة وتأمين قوة ومناعة.

وقد أسلفنا فيما سبق أن من أهم المقاصد التي اهتم القرآن بها هو العدل وذلك إنما يتحقق بتقديم شرعة مكتملة الجوانب والمعالم،

شرعة هادفة إلى تحقيق الخير والبر والسلام والعدل والمساواة والطمأنينة والسكينة في الأوساط الإنسانية، شرعة تقصى كل أسباب الإثم والظلم والجور والفجور والفحش والجشع والبطر والاستبداد وسوء الأخلاق عن جميع قطاعات المجتمع- مسلما سواء كان المجتمع أم كافرا طيلة ما كانت خاضعة للنظام الإسلامي- وذلك لا يمكن إلا بأن تتكفل تلك الشرعة بسن كل ما لابد منه لتحقيق ذلك من القوانين وتشريع ما يتحتم من الفروض والواجبات وتقنين ما لابد منه من الأوامر والنواهي، وحظر ما يضر الفرد والمجتمع على المدى القريب و البعيد من المحرمات والمنهيات. وآيات الأحكام و الأخلاق أعدل شاهد على ذلك وهي جمة كثيرة فائتة عن الحصر في ضمن هذه الرسالة الموجزة.

إن شرعة الإسلام بما تتضمن من تلك القوانين والشرائع قطعت مسافات شاسعة في تحقيق أسمى المبادئ النيرة الخيرة في المجتمعات الإنسانية بما لا يمكن أن يضارعها أو يدانيها أو يلاحقها أو يجاريها في تحقيق أمثال تلك المبادئ ووضع أشباه تلك التعاليم الدول المعاصرة والمجتمعات الراقية. فمثلا إن ما حققته شرعة الإسلام في مبدأ المساواة لم تستطع أن تحققه في القرن العشرين تلك الدول المتطورة المتمدنة المترقية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية[1] رغما من أنها تزعم التمسك بمبدأ الديمقراطية المبنية على أساس الحرية (على ما يقال وإن لم نر لها

---

١) عبد الكريم زيدان، **المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، الطبعة العاشرة، بيروت ١٩٨٨، ص ٣٥-٣٦.

إلى اليوم سوى حرية سب الدين وانتهاك المقدسات وحرية الدعارة والمجون والخلاعة وسوء الأخلاق وشرب الخمور والقمار وحرية الربا والرشا وحرية الظلم واغتيال الآخرين الذين ليسوا في اتجاههم الديمقراطي ومطاردتهم وتشريدهم من ديارهم فلجميع هذه المجالات الفاضلة(؟!!) الحريات متوفرة وطلاب هذه الأمور يتمتعون بما يشاءون ويفعلون ما يريدون ولا يتعرض لهم أحد لأن لهم حق الحرية! و في البلاد الديمقراطية سيادة الحقوق الإنسانية! وأما غير هؤلاء الفضلاء(؟!) من المتدينين المسلمين فمهما كانوا من الكثرة والصلاح أو من المعرفة والثقافة ومهما كانوا من البر والهدى والاستقامة والعدل فلا حرية ولا حق لهم. نعم هذا ما رأيناه من كمالات الديمقراطية! عبر العالم الإسلامي كله فحق لها وللقائمين عليها أن يفتخروا ويمتدحوا بما أهدوه للعالم الإنساني من هذا النظام الخير والبر العام ؟؟!).

الشريعة التي كلف الله عباده العمل بها تتناول جميع جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعبودية والسياسية والأخلاقية والعسكرية بتشريع قوانين وحدود لها إما مفصلا وإما مجملا[1] كل على حسب الحكمة. وقد أسلفنا فيما مضى الإشارة المندمجة في تسميات السور القرآنية إلى جل تلك الأمور. أما هنا ونحن على جناح السرعة فنشير إلى بقية من أسماء السور التي كان وجه الحكمة فيها فائضا

---

١) السابق، ص ٤٣.

واضحا مع ذكر ما يناسبها من تلك الأسماء التي قد مر بنا فيما سبق من المحاور.

ففي مجال التشريع رغم كثرة وسعة ميادينه نجد التسمية السورية سلكت طريقة قصيرة لكن شاملة فألقت الضوء على ما يمكن أن تكون نموذجا للباقي وكثفت السعي على تشريع العبادات لما لها من الأهمية القصوى في سعادتي المرء الدنيوية والأخروية، لأن العبادة مفتاح هام لامتثال أوامر الشرع الحنيف على المستوى الفردي ولأنها وسيلة لتحقيق سائر أحكام الشريعة بين مختلف قطاعات المجتمع على المستوى الدولي فمن اهتم بعباداته وأتى منها ما كان مكلفا به ضمن الحدود الشرعية كان إطاعته في سائر التشريعات أيسر نفسيا وعقليا واجتماعيا لما يجد المرء عندئذ في نفسه سائقا قويا على مراعاة سائر التشريعات لكونها آتية من طرف الحكيم الخبير الذي قوي إيمانه به بالعبادات واطمأن نفسه إلى رحمته وسكينته بالطاعات وجعل رضاه نصب عينيه بما يؤدي كل يوم مرات عديدات من الصلوات التي تترك في نفسه وعقليته آثارا إيجابية كبيرة كثيرة.

إن العبادات على ما هو معلوم تنقسم إلى بدني ومالي ومالي-بدني وانكفافي- تركي ففي مجال تشريع العبادات نجد أن كلا من الأقسام الأربع أخذت محلها في التسمية السورية:

ففي العبادات البدنية أكثر ما كان المؤمنون مكلفين به هو الصلاة من غير تفرقة بين فقير وغني وضعيف وقوي وشيخ وشاب وصحيح

وسقيم وأفضل أجزاء الصلاة لا جرم هو السجدة لدلالتها البالغة على التعظيم والخضوع لرب العالمين فهي قمة التعظيم والإجلال ونهاية الخشوع والابتهال فلهذا لا يجوز السجدة لغير الله على الإطلاق. بينما ترى أن بعضا آخر من أنواع التعظيم يجوز لغير الله أيضا. يشير إلى طرف من ذلك الحديث القائل: **أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.**[1]

فالتسمية باسم **السجدة** إشارة إلى الصلاة التي هي أشمل العبادات البدنية وأدلها على ذلك الخضوع العميق الذي يستولي على جميع مشاعر العبد المصلي كما أنها أدل بما تشتمل عليه من جميع أنواع التعظيم والخضوع على عظمة ذلك الخالق الذي يعبد بها له.

كما أن اسم **الجمعة** إشارة إلى أهم الصلوات التي لها تأثير إيجابي كبير ومفعول عميق في كثير من نواحي الحياة الاجتماعية بجانب ما تحمل من معاني العبودية الجماعية التي يظهر فيها خضوع المجتمع بغالب من يحتوى عليه من الأفراد لله رب العالمين، يجمعهم مكان واحد ويظلهم سقف واحد و يؤمهم إمام واحد ويتجهون إلى اتجاه واحد ويثنون على رب واحد سبحانه ويذكرونه ويقدسونه بكلمات واحدة فيظهرون بذاك في صلاة الجمعة أتم معاني العبودية الجماعية الصافية لله الواحد الأحد، غير ناسين ما تحمله الجمعة من إظهار شوكة المسلمين أيضا وما تسبب فيه عند الجامعة الإسلامية من اعتزاز واطمئنان وثقة بمبادئ دينهم الحنيف وترشيد للآخرين أيضا إلى هذا الخير العميم والبر الكريم، إلى

---

١) مسلم، الصلاة/٤٢.

جانب ما تحصل الجمعة لدى المسلمين من جد وعزم أكثر في التمسك بما أمرهم به ربهم سواء بمضمون الخطب الملقاة فيها أم بما يحصله ذلك الجو الروحي من إخلاص ونشاط.

وفي العبادات المالية الزكاة ركن هام لها معاني جمة وافرة في إزاحة قلق المجتمع الناشئ من المشاكل الاقتصادية ومن ثم لها دور كبير في تحقيق الأمن الجماعي والسلام التام والثقة الراسخة الكاملة بين أفراد المجتمع كما أنها التأمين الاجتماعي الوحيد لفقراء الدولة الإسلامية وساحة خصبة لإيجاد ساحات العمل لهم حيث إذا ما طبق إعطاء الزكاة على الحدود الشرعية لا يبقى أحد من أبناء المجتمع بلا عمل[1] فمن هذا الدور الكبير لها كان جديرا أن يكون اسم بعض السور اسما دالا على الزكاة كما في **الماعون**.

وحول تشريع العبادات المالية والبدنية أخذت في التسمية مكانهما نوعان هامان منها لكل منهما دوره الهام في تحقيق العلاقات الوثيقة بين أفراد المجتمع والحفاظ على قوة الأمة ضد عدوها الخارج وهما: **الحج والقتال** كما أسلفنا بعض ما يتعلق بهما.

ومحور العبادات الانكفافية لا جرم هو ترك المعاصي والسيئات فان العباد كما كانوا مكلفين ببعض العبادات الإيجابية كذلك كانوا

---

١) فمثلا حسب بعض الجهات الزكاة في تركيا على الصورة التقريبية فوجد أن الزكاة الواجبة على الأثرياء في تركيا تقارب أو تنوف على ميزانية الدولة وخمن أنه لو أدي الزكاة وصرف على الوجه الشرعي لم يبق في تركيا فقير - رغم كثافة سكانها بما تقارب سبعين مليونا وكثرة الفقراء فيها- ضمن ثلاث أو أربع سنوات فقط.

مكلفين ببعض العبادات السلبية التي هي محض ترك الذنوب. لأن ترك الذنوب واجب يتحتم على كل أحد رعايته كما أن التوبة مما اقترف من المعاصي واجب على كل أحد حيث إذا أهملها المرء وقع في معصية أخرى من ناحية ترك الواجب الذي هو التوبة. والذنوب لاشمئزاز الطبع المؤمن منها لا يليق جعلها أسماء للسور لأن أسماء البعض الغالب منها لا تتناسب مع الأدب القرآني الرفيع حيث يكون في جعلها أسماء لإحدى السور القرآنية تنويه بذكرها وهو لا يناسب حكمة القرآن فالأفضل هنا بدل أن تجعل الذنوب اسما الإشارة إلى عنوان جامع لها والعنوان الجامع لها تلك العبادة المتحتمة على العبد بما اقترف منها وهو التوبة لأنه يجب على العبد التوبة عن جميع ما اقترف من المعاصي- كما أسلفنا- فجعلت **التوبة** كعنوان للعبادات السلبية اسما للسورة. والله أعلم

وفي التشريع المدني نجد أنه ذكر الطلاق كنموذج على سائر التشريعات المدنية لأنه أكثر ما يكون الناس مبتلين به كما أن في تشريع الطلاق رفعا لحرج أسري هام كان ثابتا في بعض المجتمعات النصرانية حيث كان الطلاق ممنوعا أبدا فكان المجتمع يعاني منه ما يعاني فناسب لكلا الأمرين جعل **الطلاق** اسما لسورة.

كما أن تسمية **التحريم** أيضا تحتل مكانا هاما في التشريع حيث تشير إلى أحد الركنين الأساسيين العظيمين في التشريع وهما الإيجاب والتحريم ولما أن التحريم متعلق بالمنهيات والنفس إليها أميل كان ذكره

في التسمية أوفق بوجه الحكمة تذكيرا للعباد بمدى ما يهتم المولى سبحانه بالتحريم كما يهتم بالإيجاب مع أن الإيجاب قد أخذ محله ضمنا فيما سبق من تشريع العبادات لأن كلها من الإيجابيات التي هي مقابل التحريم ومن الجانب الآخر إن في جعل أسماء المحرمات كالزنا واللواط والخمر والفحشاء والكذب مثلا أسماء للسور ثقلا على النفس بما ينفر منها الطبع ويشمئز حتى من التلفظ بها- كما سبق الإشارة إلى ذلك- فالإشارة الإجمالية إليها في صورة: التحريم أنسب بمحاسن القرآن وأليق بجماله والله أعلم.

ونظير ذلك في رعاية أسلوب القرآن لدقائق الأمور ولطائفها عبر بيانه المجيد مما ربما لا نلقي له بالا ولا نهتم به ما نجد أن القرآن لم ينادِ الكافرين والمنافقين بصفتي الكفر والنفاق أي بصيغة "يا أيها الكافرون" و "يا أيها المنافقون" مباشرة أبدا، بل وقع النداء لهما بصيغة "يا أيها الناس". وذلك كي يدل على أن صفتي الكفر والنفاق لا تحوزان من الكرامة ما تتأهلان به لخطاب الله سبحانه بل هما أخس وأرذل من أن يناديهم الله بهما. وأما ما وقع في سورة الكافرون فالله سبحانه لم يناديهم بها مباشرة بل أمر رسوله بذلك.

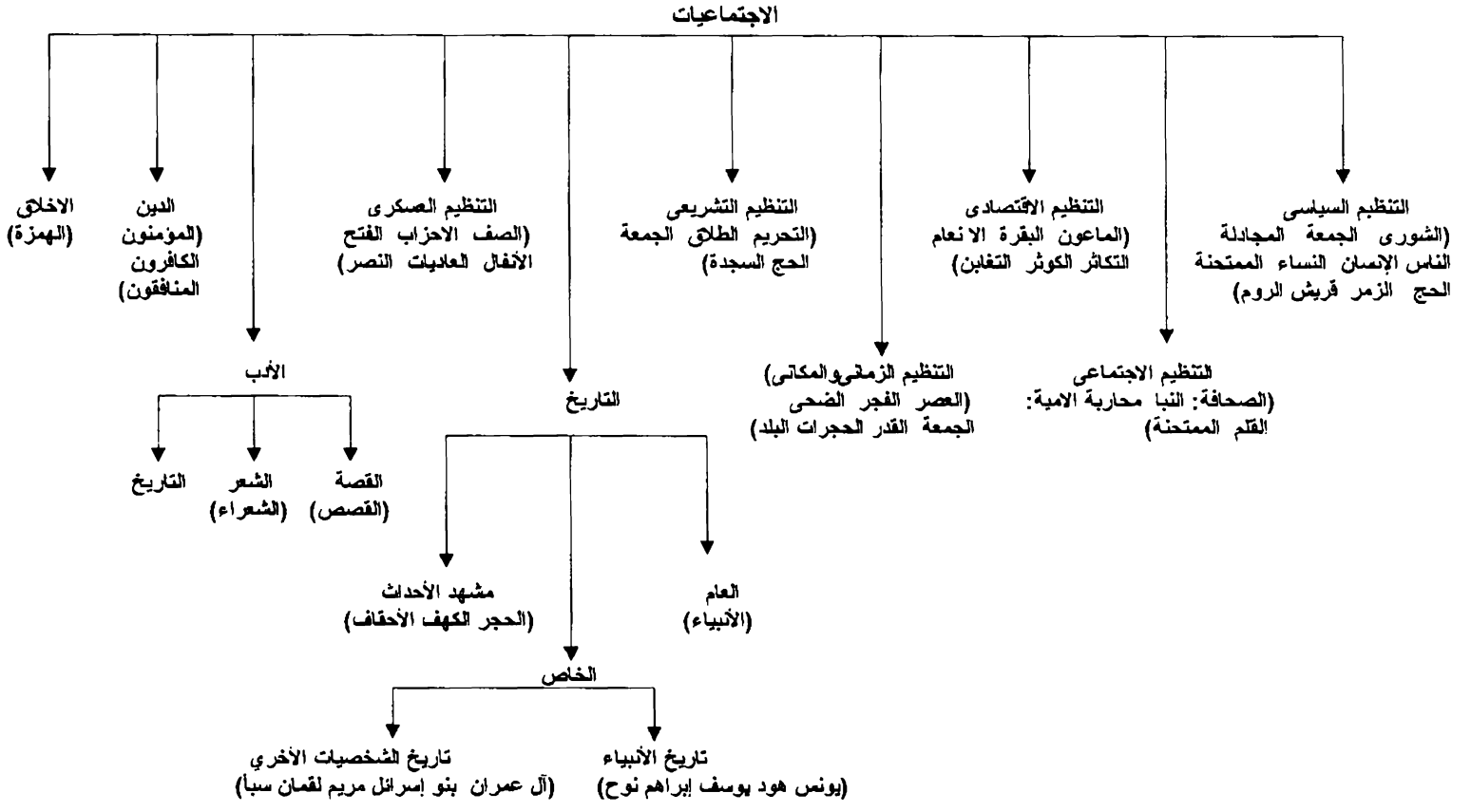

جدول: ٣ أسماء الصور التي فى محور الاجتماعيات

نتيجة في نظرة القرآن المعرفية

يستخلص من جميع ما مر معنا أن ما أتى به القرآن المجيد في صدد تشكيل بنيانه الحضاري مرتب ترتيبا فطريا متسلسلا حيث ان العباد المؤمنين بالقرآن مخاطبون أول الأمر قبل كل شيء بالنظر إلى الكون نظرة استدلالية عقلانية منطقية يستدرجون منها إلى:

النظرة المعرفية التوحيدية تلك النظرة المعرفية التي تأتي للإنسانية بآفاق جديدة وأبعاد عميقة في التعامل مع الدين والكون والإنسان والمجتمع.

ثم يستدرج منها إلى **الاستخلاف** الذي هو أهم المسؤوليات البشرية التي حملها الإنسان وأعظم الوظائف الإنسانية التي يتحقق بها العدل الرباني بجميع أبعاده.

ثم يستدرج من تلك الوظيفة الاستخلافية إلى **تسخير الكون** بما فيه من جميع الثروات ومواد الاستغلال لصالح بني الإنسان على الوجه النافع الصالح لجميع ذوات الحياة.

ثم يستدرج من تلك المحاولة التسخيرية كنتيجة طبيعية لها إلى **عمارة الأرض** فعلا على وجه تكون الكرة الأرضية معمورة صالحة لدوام الحياة على ظهرها، معمورة بالخير والهدى والأمن والصلاح، معمورة على وجه إحقاق الحق وإبطال الباطل وإزاحة جميع الرذائل و المنكرات.

وبذلك يتحقق على الوجه الأكمل أهم الأهداف القرآنية وهو

تحقيق العدل في جميع أنحاء العالم الذي ساد عليه السياسة القرآنية وفاز بنصيب غير منقوص منها.

وفي نتيجة كل هؤلاء الأمور المتسلسلة يستخلص إلى الهدف الأسمى والمقصد الأعلى من النزول القرآني وهو حفظ الكيان الإنساني بحفظ تلك الكليات الخمس: **النفس والعقل والمال والدين والعرض** إلى جنب تحقيق العبودية الكاملة لله سبحانه بين ربوع العالم.

استخلاصا مما مر يمكن لنا أن نركب المعادلة الحضارية القرآنية على هذه الصورة:

النظر في الكون ـــــــــــــ> ثم المعرفة التي تتشكل في الإطار التوحيدي ـــــــــــــ> ثم الاستخلاف ـــــــــــــ> ثم التسخير ـــــــــــــ> ثم عمارة الأرض ـــــــــــــ> ثم تحقيق العدل ـــــــــــــ> ومن ثم حفظ الكيان الإنساني بحفظ الكليات الخمس له وتحقيق العبودية الصادقة لله سبحانه.

خاتمة

إن القرآن المجيد نزل نبراسا للعالم كله يرشدهم إلى طرق الخير ومسالك الهدى في أمور الدين والدنيا والآخرة جميعا. ومن هنا نزل القرآن أول ما نزل حربا على الأمية والجهالة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] وعالج إبان نزوله ثورات جذرية في كثير من جوانب وآفاق الحياة الإنسانية - تلك الحياة التي تعفنت وانتنت مذ أمد طويل تحت أوساخ الشرك وقتام الأساطير- من الفكر والمعرفة إلى الإدارة والسياسة فأخذ القرآن بيد الإنسانية كي يدلها على معالم الخير والهدى ومعاني الرحمة والبشرى وعالج عملا دؤوبا في تطبيب ومداواة ذاك الإنسان الذي كان على وشك الفناء تحت ضغوط الجهل والظلم ومعاول الاستبداد والهوان وغيرها من كل ما يصد الإنسانية عن سلوك طرق الكرامة والفضائل والكمالات الإنسانية.

فكالحجر الأساس لهذا العمل البنّاء في تشييد بناء الإنسانية من جديد وضع الإسلام التوحيد كأساس في خطته العملية من أول يوم ودل بالتوحيد الإنسانية وأطلعها على قراءة الكون قراءة تفيق بها إلى ما غاب عنها من رشدها وتنقذها مما ابتلى به من غيها وسفهها قراءة تسير بالإنسان إلى مختلف صحائف الكون بشتى الأساليب:

---

١) العلق، ٩٦/١-٥.

أولا بها يستدل على وجود خالق، مبدع، عليم، قدير. هذا الكون بجميع ما فيه من صنعه وخلقه أوجده بعلمه وقدرته،

ثانيا يهتدي بتلك القراءة التوحيدية الترشيدية إلى واجباته نحو خالقه ونفسه وأسرته ومجتمعه الذي يعيش فيه وسائر أبناء جلدته الذين يتعايش معهم حتى واجباته نحو بيئته وممتلكاته من الأموال والبهائم وغيرها. فليس جميع العبادات والآداب والأخلاق التي أصر الإسلام عليها إصرارا بالغا إلا لبيان منهج كيفية التعامل مع جميع من ذكر،

ثالثا يسترشد بتلك القراءة الواعية ويتجه بها نحو وظيفته الاستخلافية في عمارة الأرض،

رابعا تكون تلك القراءة الواعية نبراسا للإنسان كي يتبرأ بها من رذائل الجهل وخرافاته وكي يجلو بها عقله وقلبه وبصيرته عما ران عليها من أباطيل الشرك و أساطير الكفر.

خامسا بتلك القراءة المزدوجة من قراءة القرآن وقراءة الكون المتفاعلتين يؤسس توازنا كاملا ثابتا عميقا بين الروح والمادة فلا يطغى في مقاربته ومنظوره الإسلامي أي أحد منهما على الآخر ولا يتوجه إلى أي واحد منهما على حساب الآخر. فكما يتمتع بالابتهال والخضوع لله سبحانه بذلك الإشراق الروحي الذي يجد فيه مخلصا ومتنفسا من كثير من مشاكل ومتاعب الحياة المادية التي تبهظ على كاهل روحه كذلك يطمئن ويسعد حينما يسعى ويكدح لقضاء حوائجه واكتساب معيشته وعمارة أرضه امتثالا لأوامر ربه.

وبهذه النظرة التوحيدية والقراءة التنويرية والترشيدية في الكون فتح القرآن على العقل المسلم آفاقا جديدة فسيحة كل الفسحة في المعرفة والتفكير الإنساني وجعل من الإنسان الجهول البدائي الخرافي الأسطوري البربري الغاشم إنسانا عادلا مدنيا متحضرا منورا سالكا مسالك العلم والمعرفة شعاره التفكير وهدفه التنوير ووجهته الحق والصواب وغرضه تحقيق الحق وقمع الباطل مهما كان وفي يد من كان.

وجعل القرآن من ذاك الإنسان النفعي المستبد إنسانا عادلا يحكم بالشورى ويحترم الرأي العام شعاره الإيثار وهدفه تحقيق العدل والفضيلة والمرحمة وإحقاق الحق وإبطال الباطل فيما بين بني الإنسان فمن ذا ألقى القرآن إلى المحافل الإنسانية نظرته العالمية الشمولية حول الكون والإنسان والمجتمع وهي تتبلور بهذه الصورة الآتية :

التوحيد ومن ثم قراءة الإنسان للكون ومن ثم خلافة الإنسان وعمارة الأرض ومن ثم تحلى الإنسان بأقصى ما يمكن من معاني الخير والبر والفضيلة ومن ثم تحقيق الهدى والعدل والعبودية الصادقة لله سبحانه في الأرض.

هذه النظرة الشمولية للقرآن تبدو عيانا بالنظر في كتاب الله في كثير من مقاطعه المقدسة كما تبدو بإلقاء نظر متأمل دقيق على أسماء السور أيضا فنرى أن وضع أسماء السور مفروض على انعكاس النظرة القرآنية الشمولية منها لأن كلام ربنا الخبير لا يمكن أن يكون شيء من تلك الأمور الملابسة له من نقطه وحركاته وترتيب آياته و سوره ووضع

أسمائه وتحزيبه وتجزيئته إلى الأجزاء وغير ذلك من الأمور الملابسة لـه لا يمكن أن يكون شيء من ذلك بمحض صدفة عمياء من غير وجه حكمة فيها- كما أسلفنا-

فكما استنبط سلفنا الصالح رحمهم الله بين الآيات مع البون الشاسع بين جمهرتها نزولا ومكانا ومضمونا ومخاطبين مناسبات جمة يطمئن منها العقل وينشرح منها الصدر[1] فكذلك نجد أن أسماء السور تدل على نظرة القرآن العالمية الشمولية.ثم إن استنباط بعض اللطائف والمعاني والنكات من دلالات أسماء السور شيء ما كنت بدعا فيه فقد سبقني في ذلك فطاحل العلماء ترى أن بعض العلماء استنبط من اسم التغابن (انطلاقا من المعنى اللغوي) مع رقم السورة في ترتيب المصحف مناسبة مع وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يقول الآلوسي (ت ١٢٧٠) واستنبط بعضهم عمر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا و .ستين سنة من قوله تعالى في تلك السورة (المنافقون التي قبل هذه السورة) ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها فإنها رأس ثلاث وستين سورة وعقبها سبحانه بالتغابن ليظهر التغابن في فقده عليه الصلاة و

---

١) إن المفسرين القدامى رحمهم الله تعالى والحديثين بذلوا جهودا وفيرة مشكورة نحو استنباط المناسبات بين آي القرآن فمن القدامى الزمخشري والرازي والبيضاوي وأبو السعود والآلوسي ومن الحديثين القاسمي وابن عاشور خير مثال على ذلك كما نجد ثلة من العلماء خصصوا أعمالهم لاستنباط المناسبات بين الآيات وخير مثال على ذلك برهان الدين البقاعي المتوفى ٨٥٢هـ. في تفسيره القيم نظم الدرر في مناسبات الآيات والسور.

السلام[1]. وكذلك لا تفقد بين المعاصرين أيضا من يستنبط ذلك[2]. فإن وفقنا فيما سبق بعض الشيء حول الإبانة عن نظرة القرآن العالمية الشمولية من خلال أسماء سوره فبمن الله وفضله- وإلا فمن نفسنا.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحم أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

ربنا حاولنا جهدنا -ولم نأل- أن نعرب عن شيء من محاسن كتابك فإن وافق رضاك فتقبله مني قبولا حسنا وأنبته عندك نباتا حسنا وتقبله في مصاف خدمات كتابك العزيز واجعله في كتاب حسناتي وفي كتاب حسنات والدي وأهلي وأولادي وإخوتي وأخواتي وأقاربي وأحبائي وكل من علمني ورباني وكان وسيلة لرشادي فإنك أنت الكريم المنان والجواد الوهاب. والحمد لله أولا وآخرا على ذلك وبنعمته تتم الصالحات وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

---

١) الآلوسي، ج ٢٨ ص ١١٩.

٢) انظر مثلاً عماد الدين خليل. مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم. مؤسسة الرسالة. الطبعة الثانية. بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. ص ٢١٩، ٢٢٠. ومراد هوفمان. الإسلام كبديل. تعريب غريب محمد غريب. مكتبة العبيكان، الطبعة الثانية، الرياض ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص ١٦٣، ١٦٦. هذا إلى جانب ما نقلنا سلفاً من محمود عايد الرشدان وعلي شريعتي.

المراجع العربية

القرآن الكريم

أحمد القديدي، **الإسلام وصراع الحضارات**، سلسلة كتاب الأمة، الطبعة الأولى، قطر ١٤١٥.

أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي، **التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح**، المكتبة الإسلامية، إستانبول، بلا تاريخ.

إسماعيل بن حماد الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق أحمد عبد القادر العطار، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤٠٤.

إسماعيل راجي الفاروقي - لويس لمياء الفاروقي، **أطلس الحضارة الإسلامية**، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٩/١٩٩٨.

إسماعيل بن كثير أبي الفداء، **تفسير القرآن العظيم**، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٩.

البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، ١٤١٨/١٩٩٨.

الحسين بن محمد راغب الإصفهاني، **مفردات ألفاظ القرآن**، دار القلم، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٢.

الفضل بن الحسن الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦.

جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨

حيدر عبد الكريم الغدير، **المسلمون والبديل الحضاري** سلسلة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية ١٤١٢-١٩٩٢.

زغلول راغب النجار، أزمة التعليم المعاصر، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٦.

سعيد بديع الزمان النورسي، رجتة العلماء، مطبعة النور أنقره ١٩٥٨.

سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة الثانية عشرة، بيروت ١٩٨٦.

طاهر الجزائري، التبيان لبعض المسائل المتعلقة بالقرآن على طريقة الإتقان، دار البشائر، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤١٢.

طه جابر العلواني، مدخل كيف نتعامل مع القرآن لمحمد الغزالي، الطبعة الأولى، فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩١.

عاليا عزت بغوفيتش، البيان الإسلامي، ترجمة أبو زيد المقرئ الإدريسي، منشورات الراية، الطبعة الأولى، الرباط ١٩٩٤.

الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة صالح شعبان التركية، نشر دار النهر، إستانبول بلا تاريخ.

عبد الرحمن جلال الدين السيوطي الإتقان في علوم القرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الرابعة، مصر ١٩٧٨.

تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق عبد الله محمد الدويش، عالم الكتب، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٧.

الدر المنثور في التفسير المأثور، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت ١٩٨٣.

عبد الكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، الطبعة العاشرة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨.

عبد الله القاضي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، هامش حاشية شيخزاده، إستانبول ١٩٨١.

عبد الله بن أحمد أبو البركات النسفي، مدارك التنزيل ومعالم التأويل، دار قهرمان، إستانبول ١٩٨٤.

عبد المجيد العبد، دور الشباب في بناء الأمة والحضارة وكيف نعنى به، بحث نشر في أبحاث اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي باسم الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.

عدنان زرزور تقديم من روائع حضارتنا لمصطفى السباعى، المكتب الإسلامي، بيروت بلا تاريخ.

عدنان محمد زرزور، علوم القرآن، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٩١.

علي أبي الحسن الندوي، ما ذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، تحقيق مصطفى الندوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، الطبعة الأولى، ١٤١٨.

علي الخازن بن محمد بن إبراهيم، لباب التأويل في معاني التنزيل، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر ١٩٦٤.

علي الطنطاوي، رجال من التاريخ، دار المنارة، الطبعة الثامنة، بيروت ١٩٩٠.

عمر عبيد حسنة، تقديم روح الحضارة الإسلامية لأبن عاشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩٢.

فكري أحمد نعمان، النظرية الاقتصادية في الإسلام.

مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الطبعة الخامسة، دمشق ١٩٨٩.

محسن عبد الحميد، الإسلام والتنمية الاجتماعية، دار المنارة، الطبعة الاولى، جدة، بلا تاريخ.

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، الجامع الصحيح، دار السلام للنشر، الطبعة الأولى، فرنسا ١٤٢٠/١٩٩٩ .

محمد أبو عبد الله القرطبي الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٦.

محمد أبي حاتم ابن حبان البستي، الصحيح، تحقيق شعيب الأرناوط وحسين أسد، الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٤.

محمد أسد، الإسلام على مفترق الطريق، ترجمة عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧.

الطريق إلى الإسلام، ترجمة عفيف البعلبكي، مكتبة العبيكان، الطبعة التاسعة، الرياض ١٤١٨.

محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس ١٩٨٤.

محمد الفاضل بن عاشور، روح الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، الولايات المتحدة الأمريكية، هيرندن- فيرجينيا ١٩٩٢.

محمد بدر الدين الزركشي بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، عيسى البابي الحلبي الطبعة الرابعة.

محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨.

محمد بن عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٠.

محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٩٦٤.

محمد بن محمد أبو شهبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، مكتبة السنة، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٢.

محمد بن مصلح الدين شيخزاده القونوي الحاشية على تفسير القاضي، مكتبة الحقيقة إستانبول ١٩٩١.

محمد بن مكرم بن منظور ابى الفضل جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، بيروت بلا تاريخ.

محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، السنن، دار السلام للنشر، الطبعة الأولى، فرنسا ١٤٢٠/١٩٩٩.

محمد بن يعقوب مجد الدين الفيروزآبادى، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الاولى، بيروت ١٤٠٦.

محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، دار الفكر الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨.

محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة إسماعليان، الطبعة الثانية، ١٩٧٢.

محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٨٥.

محمد خليل جيجك، ثراء المعنى في القرآن الكريم، دار السلام القاهرة ١٩٩٨

محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار الفكر الطبعة الثانية.

محمد سعيد رمضان البوطى، منهج الحضارة الانسانية في القرآن، دار الفكر، دمشق ١٤٠٥.

محمد شمس الدين ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٨.

محمد شمس الدين بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناووط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٠٢/١٩٨٢.

محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية، بلا تاريخ.

محمد فؤاد عبد الباقى، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطبعة دارالكتب المصرية، القاهرة ١٣٦٤.

محمد فتحي عثمان، القيم الحضارية في رسالة الإسلام الدار السعودية للنشر و التوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٠٥.

محمود أبي القاسم جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، مصر ١٣٩٢-١٩٦٢.

محمود شهاب الدين الآلوسى، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥.

محمود عايد الرشدان، حول النظام المعرفي في القرآن الكريم، مجلة إسلامية المعرفة، السنة الثالثة، العدد العاشر، خريف، Maryland USA ١٩٩٧.

محمود محمد سفر، دراسة في البناء الحضاري، من سلسلة كتاب الأمة ينشرها رآسة المحاكم الشرعية و الشؤون الدينية بدولة قطر، الطبعة الأولى.

مراد هوفمان، إلاسلام كبديل، ترجمة غريب محمد غريب، مكتبة العبيكان، الطبعة الثانية، ١٤١٨.

مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، الجامع الصحيح، دار السلام للنشر، الطبعة الأولى، فرنسا ١٤٢٠/١٩٩٩.

نديم الجسر: قصة القرآن بين العلم والفلسفة والقرآن.، بلا تاريخ ولامحل طباعة.

يعقوب أبو يوسف بن إبراهيم، كتاب الخراج، دار المعرفة بيروت بلا تاريخ.

المراجع الأجنبية

Ali Şeriati Kur'ana Bask Çev. Ali Seyyidoğlu Fecir yay. Ankara 1992

Arnold Tonby Medeniyet Yarglanyor (Türkç. Ufuk Uyan) Yeryüzü yay. İstn. trz.

İbrahim Erol Kozakç İbni Haldun'e Göre İnsan-Toplum-İktisat Pnar yay. İstn. trz.

İbrahim Özdemir- Münir Yüksel Çevre Sorunlar ve İslam DİB. yay. Ankara 1995.

Roger Garaudy A.B.D. Çöküün Öncüsü (Türkç. Cemal Aydn) Nehir yay. İstn. 1997.

Entegrizim Türkçe çev. Kamil Bilgin Çileçöp Pnar yay. İst. 1993

İslam ve İnsanlğn Geleceği (Türkç. Cemal Aydn) Pnar yay. İkinci bas. İstn. 1991.

Said Nursi Mektubat Yeni Asya yay. İstn. 1996.

Sözler Envar ne. İstn. 1993.

Will Durant Medeniyetin Temelleri Türkç. Nejat Muallimoğlu Birleik yay. İst. 1996